حرب الجواسيس

روايات مصرية للجيب

سلسلة الأعداد الخاصة

د. نبيل فاروق

5

عيون الصقر



عيون الصقر

عبر سنوات طويلة من حياتى ، أسعدنى القدر ، وتوفيق الله (سبحانه وتعالى) ، بأن أكون واحدًا ممن أتيح لهم الغوص فى هذا العالم الغامض المثير ..

عالم الجاسوسية والمخابرات ..

وعبر تلك السنوات تشرفت بنشر هذه المقالات فى مجلة الشباب المصرية ..

وعبر تلك السنوات قرأت الكثير عن هذا العالم ..

وكتبت الكثير ..

وعرفت الكثير ..

وتعلمت الكثير ..

عرفت وتعلمت أنه مهما تصوّر العدو أنه منيع لا يقهر ، ومهما تصوّر أنه ذكى ، يستطيع دسّ جواسيسه فى عالمنا ، فرجال مخابراتنا أبرع وأذكى ، ويرصدون جواسيسه مهما تَخَفّوا بعيون لا تنام ، ولا تهدأ لحظة واحدة ..

عيون صقر عربى ..

د. نبيل فاروق

أوراق اللعبة ..

انهمرت دموع المصريين والعرب أنهارًا فى ذلك اليوم الحزين من أيام سبتمبر 1970م ، والشعوب العربية كلها تودع الزعيم (جمال عبد الناصر) إلى مثواه الأخير ، وراحت القلوب تبكى بدموع من دم ؛ حسرة على القائد الذى رحل وسط المعركة ، وترك شعبه يرزح تحت نير احتلال إسرائيلى بغيض ، التهم جزءًا غاليًا من الوطن .

وبمزيد من القلق والحذر ، والترقب ، استقبل الجميع القائد الجديد (أنور السادات) ، الذى بدأ على عكس سلفه ، بسيطًا هادئًا ، يتحدث دون حماسة جارفة ، أو ألفاظ ضخمة رنانة ، ولا يفجر مشاعر الحماس والقوة فى عروقهم ، أو يتوعد الجميع بالويل ، والثبور ، وعظائم الأمور ؛ مما جعل الأمل فى أعماقهم ينحسر ، ويرتجف وينكمش إلى الحد الذى تصوروا فيه أن الحق قد ضاع ، والثأر قد غاب فى غياهب النسيان .. وأن القيادة الجديدة قد استمرأت حالة اللا سلم واللا حرب ، وقنعت من الغنيمة بالصبر والاستسلام !

ولكن الذى لم يدركه الجميع حينذاك أن ذلك الهدوء العجيب كان مُجَرَّدَ ستار بارع الإتقان ؛ لإخفاء استعدادات قوية ، وتدريبات مكثفة ، تستهدف الثأر ، واستعادة أرض الوطن السليبة .

كل أجهزة الدولة كانت تعمل من أجل هذا الهدف ، بكل النشاط ، والهمة ، والحماس ، والسرية أيضًا .

وعلى رأس تلك الأجهزة ، وعند قمة النشاط والسرية المطلقة ، كان جهاز المخابرات العامة المصرية .

كان وحده يحمل على كاهله كمًّا لا حصر له من المهمات والمشاكل ، التى تؤرق مضجع كل العاملين فيه ليلاً ونهارًا بلا استثناء .

فقد كان على رجاله أن يبذلوا جهدًا خرافيًا ، وتضحيات لا حصر لها ؛ لجمع كل المعلومات التى تطلبها كل أجهزة الدولة الأخرى ، وتحتاج إليها بشدة للقيام بعملها ، والتخطيط للمرحلة القادمة التى يتوقف عليها مصير الأمة العربية كلها .

وفى كل أركان الأرض تقريبًا ، انتشر رجال المخابرات المصرية وعملاؤهم ؛ لصنع أكبر وأقوى شبكة جمع معلومات عرفها التاريخ ، منذ الحرب العالمية الثانية .

وفى كل يوم تقريبًا ، كان هناك طلب جديد للمعلومات ، وخطة جديدة للحصول عليها .

وبينما كان طلاب (مصر) يثورون فى عنف ، ويتهمون الرئيس (السادات) بالتخاذل وبيع القضية ، متصورين أنه قد ألقى فكرة الحرب الثأرية جانبًا ، خاصة أنه سبق له إعلان حتمية حسم المعركة فيما سمى بعام الحسم ، ثم مضى العام دون أن يضع إعلانه موضع التنفيذ .

فى ذلك اليوم نفسه ، كان رجال المخابرات العامة يتلقون طلبًا خاصًا من القوات الجوية ، بضرورة بذل كل جهد ممكن لمعرفة شفرة إطلاق صواريخ الدفاع الجوى الإسرائيلية ، قبل يوم الحسم ؛ حتى يمكن ابتكار وسيلة مضمونة لتفاديها ، وإلا بلغت نسبة الخسائر ما يقرب من ثلاثين فى المائة مع الضربة الجوية الأولى .

وفى مثل تلك الفترة ، وهذه الظروف العصيبة ، كان ذلك المطلب أشبه بالمستحيل ..

ولكن هذا لم يَفُتَّ فى عضد الرجال لحظة واحدة ..

لقد اعتادوا مثل هذه الأمور ..

واعتادوا مواجهة المستحيل ..

لذا ؛ على الرغم من صعوبة المطلب وتعقيداته ، اجتمع

الرجال لبحث الأمر ودراسته ، والبحث عن كل الوسائل الممكنة لتحقيق المطلوب ، وخفض الخسائر المنتظرة إلى أقل رقم ممكن .. مهما يكن الثمن .

وكإجراء تقليدى ، راح الجميع يراجعون كل ما لديهم ، عن نظام الدفاع الجوى الإسرائيلى ..

أساليبه ، أسلحته ، قادته ، جنوده ، نظمه ، كل شىء .

ولكل نقطة من النقاط السابقة ، كانت هناك عشرات الملفات ، والمعلومات ، والبيانات التى تم جمعها بالجهد ، والعرق ، والدم طوال الأشهر الماضية .

وكان هذا يحتاج إلى ساعات ، وساعات ، وساعات .

وبصبر لا مثيل له ، راح الرجال يدرسون ، ويفحصون ، ويراجعون .

وكلما توقفوا عند نقطة ما ، راحوا يناقشونها ، ويمحصونها ، ويدرسون كل ما يتعلق بها ، حتى صار كل منهم أشبه بجهاز كمبيوتر بشرى ، يحفظ الأمور كلها عن ظهر قلب .

ولقد استغرقت تلك الاجتماعات الطويلة المجهدة ما يقرب من أسبوع كامل ، قبل أن يتفق رأيهم جميعًا على أن الوسيلة

الوحيدة لمعرفة الشفرة المطلوبة هى من خلال الرجل المسئول عنها بصفة مباشرة ..

الجنرال (إيزاك رابينوفيتشى) ..

والجنرال (رابينوفيتشى) هذا من اليهود الروس ، الذين كانوا أول من هاجر إلى (فلسطين) .

أو فروا إليها بمعنى أدق قبل حرب عام 1948 ، وإعلان دولة (إسرائيل) ، التى التحق بأول جيش لها ، وراح يتقدم ويترقى فيه ، حتى حصل على رتبة الجنرال بعد حرب يونيو 1967م مباشرة .

وعلى الرغم من جنسيته الروسية ، لم يكن (رابينوفيتشى) يحمل أى ملامح روسية على الإطلاق ، اللهم إلا قامته الفارهة وجسده الضخم ، وكرشه الكبير ، وفيما عدا هذا كان يهوديًا شرقيًا حتى النخاع ؛ فهو فاحم الشعر ، على الرغم من سنوات عمره الخمسين ، أسمر البشرة ، كث الحاجبين ، ضخم الشارب ، ثم إنه يعشق المال أكثر مما يعشق أى شىء آخر فى الدنيا كلها .

والعجيب فى شخصية (رابينوفيتشى) أنه يحمل الكثير من المتناقضات فى آن واحد ، فعلى الرغم من عشقه للمال والادخار ،

والبخل اليهودى الذى اشتهر به بين زملائه ورجاله ، فإنه كان لا يستطيع مقاومة لعب الورق فى أمسيات السبت ، وهو يسعد للغاية بالربح ، ويكاد يبكى للخسارة ، على الرغم من أنه يلعب دائماً بمبالغ صغيرة للغاية .

وكان من الممكن أن يعتبر قادته لعبه للورق هذا نقيصة تمنعه من تولى أى مناصب قيادية فى فترة حرب كهذه ، لولا أن حياته كلها كانت تؤكد حقيقة واحدة ، لم يثبت عكسها قط تحت أى ظروف أو ملابسات ..

أنه يدين بالولاء لدولته ، وليس لديه أدنى استعداد لخيانتها ، ولو بكل أموال الدنيا .

وهذا التناقض العجيب وضع الرجال فى حيرة شديدة .

فدراستهم كلها أثبتت أن السبيل الوحيد لتلك المعلومة يأتى من خلاله ، وفى الوقت ذاته لا يوجد سبيل واحد إليه هو ..

ولكن الرجال كانوا يؤمنون بقاعدة ذهبية ، أثبتت نجاحها دومًا فى كل الظروف والأحوال ..

ما من نظام أمن بلا ثغرات ، أو بشر بلا نقاط ضعف .

هناك حتمًا ثغرة ما ، أو نقطة ضعف يمكن النفاذ منها إلى أى

مخلوق ، مهما بدا كاملاً متكاملاً ؛ لأن الكمال لله ـ سبحانه وتعالى ـ وحده دون سواه ..

ومن هذا المنطلق عاد الرجال يدرسون الأمر مرة أخرى ..

وبنفس الدقة ، والعناية ، والرعاية .

كان ولعه بلعب الورق نقطة ضعف واضحة ، ولكنه يحميها بحذره الزائد ، وانتمائه القوى لبلده (إسرائيل) بحيث لا يمكن استغلالها كدافع للخيانة .

لابد إذن من البحث عن نقطة ضعف أخرى ..

أو وسيلة جديدة ومبتكرة ..

وهذه هى مهمة الرجال الذين لم يعد لهم من هَمٍّ فى الدنيا سوى البحث عن تلك الوسيلة ، والتفكير فيها ليلاً ونهارًا .

ثم فجأة قفز حَل عبقرى إلى الأذهان ، وانطلق عبر الألسنة إلى العقول ، وخفقت له القلوب فى حماس وظفر ..

لم يكن حلاً سهلاً أو تقليديًا ، وإنما كان انقلابًا فى كل الموازين ، وكسرًا لكل قواعد العمل السرى ، والسعى خلف المعلومات ..

وهنا تَكْمُنُ عبقريته .

فالأمر الذى علموه من خلال تحريات دقيقة للغاية ، هو أن الجنرال (رابينوفيتشى) يحتفظ بنسخة من كل الوثائق البالغة السرية فى خِزَانَة خفية منيعة داخل منزله ، كما أنه لا أحد يعلم موضع تلك الخِزَانَةِ حتى زوجته نفسها .

ولأن الاقتحام أمر مرفوض تمامًا فى عملية كهذه ؛ نظرًا لأن الأسرار تفقد أهميتها ، إذا ما أدرك الخصم أنك قد كشفت أمرها ؛ فقد كان من الضرورى البحث عن وسيلة عبقرية لدخول منزل الجنرال ، والبحث عن خِزَانَتِه السرية ، وفحص كل ما تحويه ، دون أن يدرك أو يشك فى أن هذا قد حدث .

ولأن العملية غير تقليدية على الإطلاق ؛ فقد عالجها الرجال بأسلوب غير تقليدى أيضًا ، وقرروا أن أفضل شخص يمكن أن يصل إلى الجنرال (رابينوفيتشى) لابد أن يكون مقامرًا محترفًا ، يجيد اللعب ، و ...

والخسارة ..

(نعم ، إنك لم تخطئ قراءتها ، والمطبعة لم تخطئ كتابتها ، فهذا بالضبط ما كان يحتاج إليه الأمر) .

مقامرًا محترفًا يعرف جيدًا كيف يلعب ، وكيف يخسر باحتراف ..!

ولأن طبيعة رجال المخابرات بعيدة تمامًا عن المقامرة ، بكل صورها وأنواعها ؛ فقد احتاج الأمر إلى البحث عن عميل من عملائها ، داخل (إسرائيل) نفسها ، يمكن تدريبه على الأمر ، فى وقت قياسى ، ويمكن دفعه على نحو يبدو طبيعيًا للغاية ، فى طريق الجنرال .

وبعد بحث أكثر دقة ، وقع اختيار الرجال على (دافيد باراهودا) رجل الأعمال الإسرائيلى الذى هاجر إلى (إسرائيل) ، من (سويسرا) ، وأبغض الحياة الاستبدادية داخلها ، على نحو جعله يعمل بمنتهى الحماس والتفانى لحساب المخابرات العامة المصرية ، منذ أوائل عام 1970م .

وفى بداية شتاء 1972م ، سافر (دافيد) إلى (باريس) بناءً على برقية شفرية من المخابرات المصرية ، والتقى هناك برجل المخابرات (أمجد) ، وعدد آخر من الرجال ، بينهم خبير فى ألعاب الورق ، راح يدربه على أبرع حيلها وأدلق أسرارها ..

وفى نهاية الشهر ، عاد (دافيد) إلى (تل أبيب) ، بصحبة رجل أعمال (فرنسى) يحمل جوازَ سفرٍ سليمًا ، باسم (فرانسوا موليبيه) ، ويهوى أيضًا ألعاب الورق .

ومع منتصف الشتاء كان فريق (دافيد فرانسوا) قد اشتهر بالبراعة فى هذا المضمار ، وعقد عددًا من الصداقات مع بعض من يمارسون اللعب فى ليالى السبت فحسب .

وفى نهاية الشتاء قَدَّم بعضهم (دافيد) و(فرانسوا) إلى الجنرال (رابينوفيتشى) ، باعتبارهما هُوَاةَ لَعِبِ الورق بنفس الحذر ، والمبالغ الصغيرة التى يهوى هو اللعب بها .

وكان من الطبيعى أن يقبل (رابينوفيتشى) على لعب دورة واحدة مع اللاعبين الجديدين ، كنوع من الحذر ، الذى يتسم به ، ولقد قامر بمبلغ صغير للغاية ؛ خشية الخسارة ..

ولكنه ربح هذه المرة ..

وفى المرة الثانية ، والرابعة ، والسابعة ..

ربح ثلاث دورات كاملة لأول مرة فى حياته ، حتى إنه راح يصرخ فى فرح طفولى ، جعل الفرنسى يبتسم قائلاً :

ـ يبدو أننا نجلب لك حسن الحظ أيضًا ..!

ولأول مرة فى حياته ينسى الجنرال (رابينوفيتشى) نفسه ، ويتجاوز الحدود الصارمة التى وضعها لنفسه ويشترك فى دورة عاشرة أيضًا .

وعندما ربح تلك المرة أيضًا ، كاد يجن من فرط السعادة حتى أنه ربَّت على ظهر (دافيد) فى عنف ، وهو يصافحه منصرفًا ، وهتف بصوت حمل كل حماس الدنيا :

ـ لابد أن نلتقى مساء كل سبت .. إن اللعب معكما متعة !

كان يعنى كل حرف نطق به ، فقد أورثه الربح لهفة للَّعب لم يعرفها فى حياته كلها ، حتى إنه صار يتعجل السبت التالى .

ومع توالى الأسابيع والربح ، أدمن الرجل اللعبة ، وصار يسهر حتى بعد منتصف الليل على المائدة ، وسط أوراق اللعب ، كما لم يفعل طيلة عمره ، وتصاعدت ضحكاته وقهقهاته ، على غير المعتاد ، وبدأ يتعامل مع (دافيد) ، و(فرانسوا) كصديقين حميمين ، خاصة أنهما كانا يتقبلان الخسارة بنفس صافية ، دون غضب أو حنق .

والواقع أن الرجلين كانا يخفيان ابتساماتهما الظاهرة بالكاد ، وهما يلعبان ببراعة ليس لها مثيل ، ليخسرا دورة من كل دورتين تقريبًا ، لحساب الجنرال (رابينوفيتشى) الذى انبهر بالأرباح ، وأصبح يعتبر اللعب لأول مرة فى حياته وسيلة شبه منتظمة للربح ، ولم يعد يروق له اللعب مع أى مجموعة أخرى .

حتى كان ذلك اليوم ، فى بدايات صيف 1973م ..

يومها كان كل شىء يسير كالمعتاد ، والجنرال يحصى أرباحه ، ويطلق ضحكاته وقفشاته ، عندها حدث شجار بسيط بين (فرانسوا) ونادل المقهى ، وكان يمكن أن ينتهى فى لحظات إلا أنه ، ولسبب ما تطور بسرعة ، وتصاعد على نحو عجيب ، وانتهى بمشاجرة عنيفة ، غادر الفرنسى بعدها المكان وهو يسب ساخطًا ، ويقسم بأرواح آبائه وأجداده أنه لن يطأه مرة أخرى أبدًا ..!

ولأنه يعد ضيفًا على (دافيد) ، فقد غادر الأخير المكان معه ، وهو يحاول تهدئته ، والجنرال يبذل قصارى جهده فى محاولة لتهدئة الموقف حتى لا يخسر أرباح الليلة ، التى اعتاد عليها بعد كل هذا الوقت ..

وغادر الجنرال المكان بدوره فى حسرة محنقة ، وهو يمنى نفسه بتعويض كل هذا فى السبت التالى ، عندما تدور الأوراق مرة أخرى بين الأصابع ..

ولكن (دافيد) والفرنسى لم يحضرا فى السبت التالى ، ولا حتى الذى يليه ..

وبعد مرور أربعة أسابيع دون أرباح ، انهارت مقاومة الجنرال وراح يبحث عن رفيقى اللعب بكل لهفة وحماس .. وقد تصور أن الحظ قد تخلى عنه مع غيابهما .

وعندما عثر عليهما لم يكن الأمر مرضيًا له كما تصور ، فالفرنسى أقسم أنه لن يدخل ذلك المقهى ثانيًا أبدًا ، و(دافيد) بدا يائسًا مستسلمًا ، يستحى أن يتصدى لرغبة ضيفه ، الذى تمادى فى الأمر ، وأقسم أنه لن يلعب فى أى مكان عام بعد الآن ؛ حفاظًا على كرامته وهيبته .

وراح الجنرال يعتصر عقله بحثًا عن وسيلة مناسبة لمواصلة حلقة الربح ، الذى أحبه وأدمنه ، ولم يعد بإمكانه التخلى عنه .

ثم جاءته الفرصة على طبق من ذهب عندما ربحت زوجته رحلة مجانية لمدة شهر كامل ، من شركة (بيتون) للسياحة ، التى أعلنت أنها ستتكفل بمصروفات السفر والإقامة بالإضافة إلى حصولها على جائزة مالية قَيِّمة للمصروفات الخاصة .

ولأن الأمر لا يقاوم ؛ سافرت زوجته (إيلينا) ، وتركته وحده فى منزلهما ، طوال الفترة من منتصف أغسطس إلى منتصف سبتمبر 1973م .

لذا ؛ فقد تلقى (دافيد) والفرنسى الدعوة لقضاء أمسيات السبت فى منزل الجنرال (إيزاك رابينوفيتشى) حول مائدة لعب خاصة .

ومع سكرة الربح ، كانت أمام الفرنسى فرصة مثالية ، للتجول فى المنزل ، خاصة بعد أن يرهق اللعب والربح الجنرال ، فينام على مقعده ، ويرتفع شخيره عاليًا ، مع نسمات الفجر الأولى ، وهو يحتضن أمواله وأوراق اللعب .

ومع نومه كان (دافيد) يجلس لحراسته فى انتباه كامل ، فى حين يبدأ عميل المخابرات المصرى الذى ينتحل شخصية فرنسى ؛ ليخفى حقيقته كخبير خزائن لا يُشَقُّ له غبارٌ ، فى فحص كل شبر فى المنزل بحثًا عن تلك الخِزَانَةِ السرية الخفية ، التى تحوى كل أوراق الجنرال ووثائقه السرية .

والواقع أن تلك الخِزَانَةَ كانت تحفة أمنية بكل المقاييس ، حتى إن خبير الخزائن المحنك قد احتاج إلى ثلاث أمسيات كاملة ، قبل أن يعثر عليها ، وإلى أربع ساعات متصلة فى الأمسية الرابعة والأخيرة ، قبل عودة (إيلينا) ؛ حتى يتجاوز كل استحكاماتها مع أول ضوء شمس ، ليبدأ البحث وسط كل ما تحويه من أوراق سرية ، عن شفرة الدفاع الجوى .

ولكن من المؤكد أن المخابرات العامة فى (مصر) قد أدركت كم كانت خطتها عبقرية رائعة ، على الرغم من بساطتها ، عندما تلقت ثلاثة من الميكروفيلم ، تحوى عشرات الصور ، التى التقطتها عمليها لكل الوثائق السرية التى تحويها الخزينة ، قبل أن يعيد إغلاقها على نحو لا يمكن معه كشف ما فعله بها وبمحتوياتها .

وفى الوقت ذاته الذى تلقت فيه القوات الجوية شفرة الدفاع الجوى الإسرائيلى ، كان (دافيد) ورفيقه الفرنسى يواصلان اللعب والخسارة ، أمام الجنرال (رابينوفيتشى) الذى عادت ضحكاته تعلو فى المقهى الذى وافق الاثنان على العودة إليه ، بعد عودة (إيلينا) من رحلتها المجانية ، التى دفعت المخابرات المصرية ثمنها ، عبر واحد من أهم وأخطر عملائها فى (تل أبيب) .

وفى الرابع من أكتوبر 1973م ، سافر (دافيد) وعميل المخابرات المصرية عائدين إلى (باريس) ، مع وعد منهما للجنرال (رابينوفيتشى) بقضاء أمسية السبت التالى فى المقهى ، ليواصل أرباحه من نقودهما .

ولكن الجنرال لم يكن يدرك أنها آخر مرة يحصل فيها على نقود المخابرات المصرية ، ففى ظهر السبت التالى ، السادس

من أكتوبر 1973م ، انقضت الطائرات المصرية عبر قناة (السويس) على خط (بارليف) ، وكل استحكامات ومعسكرات ومطارات الجيش الإسرائيلى فى قلب (سيناء) .. وجن جنون الإسرائيليين ، عندما فشلت دفاعاتهم الجوية فى اصطياد نسور (مصر) ، الذين انطلقوا يحطمون ، ويدحرون وينسفون الغطرسة الإسرائيلية ، ويمحون إلى الأبد أسطورة جيش إسرائيل الذى لا يقهر أبدًا ..!

وفى القاهرة ، راح الرئيس (السادات) يلقى خطاب النصر ، ويوزع الأوسمة والنياشين على قادة الجيش المنتصر ، ويتلقى تهانى وفرحة شعبه ، الذى أسكره النصر ، وأعاد إليه ثقته بقادته وبحكومته .. فى الوقت ذاته الذى أخذ رجال المخابرات يراجعون فيه تقارير العمليات الأخيرة ، ويبتسمون فى ظفر واثق ، وهم يدركون أنهم كانوا يمسكون أوراق اللعبة كلها فى أيديهم طوال الوقت ..

لعبة الحرب ..

والنصر!

* * *

الإبـرة والصاروخ

فجأة ودون مقدمات أعلن الرئيس (جمال عبد الناصر) قبول مبادرة (روجرز) لوقف حرب الاستنزاف ، والضربات المتبادلة ، بين الجانبين ، المصرى والإسرائيلى ، وإيجاد الوقت الكافى لبناء حائط الصواريخ ، القادر على حماية الجبهة الداخلية ، بعد أن تجاوز الإسرائيليون حدودهم أكثر من مرة ، ووجهوا ضرباتهم إلى أهداف مدنية فى العمق ، مثل مصنع أسمدة (أبو زعبل) ، ومدرسة بحر البقر ، استنادًا إلى تفوقهم الجوى ، فى الوقت الذى كانت (مصر) تسعى فيه لإعادة بناء جيشها بعد نكسة يونيو 1967م .

ومن المؤكد أن قبول المبادرة ، على هذا النحو المباغت ، وبعد أن أعلن رئيس مجلس الأمة (أنور السادات) رفض (مصر) للمبادرة ، قد أربك العالم كله وأدهشه ، وعلى قمته (إسرائيل) ، التى تساءلت فى حذر قَلِقٍ : لماذا قَبِلَ (عبد الناصر) المبادرة ؟!

ما الذى يسعى إليه بالضبط ؟!

وما خططه للمستقبل ؟!

وبينما انشغلت (إسرائيل) مع قادتها وجنرالاتها فى دراسة ومناقشة الأسباب ، التى دعت (مصر) إلى قبول المبادرة .. كانت القوات المسلحة المصرية تسعى بكل جهدها ، بالتعاون مع الأجهزة الأمنية المختلفة ، لبناء حائط الصواريخ الدفاعى ، وحماية الجبهة الداخلية ؛ حتى تحين لحظة المواجهة الكبرى .

ولم يمهل القدر الرئيس (جمال عبد الناصر) لاستكمال خطة المواجهة الشاملة ، فلقى ربه فى سبتمبر 1970م ، وخلفه (أنور السادات) ، الذى بدا كأنه صورة متناقضة تمامًا عن سلفه ، بهدوئه الشديد ، وأسلوبه الذى يوحى بالتراخى ، وبالاستسلام لفكرة اللاسلم واللاحرب ، علىٍ نحو أثلج قلوب الإسرائيليين ، وجعلهم يؤكدون ـ بما لا يدع مجالاً للشك ـ أن (مصر) لن تفكر لحظة واحدة فى القتال والثأر ، وأنها على العكس تمامًا ، ستبذل قصارى جهدها وفكرها ، للتوصل إلى حل سياسى دبلوماسى ، يحفظ ماء وجهها ، ويحجب عنها هزيمة جديدة مؤكدة ، لو جَرُؤَت على مواجهة الجيش الإسرائيلى ، الذى ملأ أصحابه وجنرالاته وقادته الدنيا بأكذوبتهم الكبرى ، التى أكدت أنه جيش أسطورى لا يقهر ..

ولكن بناء حائط الصواريخ استمر ..

وزودته (موسكو) بصواريخ دفاعية قديمة ، من طراز « سام » كانت تكفى ـ بالكاد ـ لمنع الطائرات الإسرائيلية من التوغل فى العمق المصرى .

ولأن الإسرائيليين يعرفون ـ بالفعل ـ تركيب وتصميم صواريخ (سام) القديمة ، فقد ضاعف هذا من استرخائهم وارتياحهم ، وثقتهم بالنصر ، خاصة أن خط (بارليف) ـ الذى أقاموه على الضفة الشرقية لقناة (السويس) ـ بدأ فى رأى كل الخبراء العسكريين كأقوى خط دفاعى منيع عرفه التاريخ ، وأنه من المستحيل أن يعبره المصريون أو ينجحوا فى اقتحامه ، مهما بلغت براعتهم وقوتهم .

الشىء الذى لم يدركه الإسرائيليون فى تلك الأيام ، هو أن كل ما يبدو على الرئيس المصرى ورجاله ، من هدوء واسترخاء واستسلام ، ليس سوى قناع زائف ، يهدف فقط إلى خداع العدو ، وإيهامه بصورة غير حقيقية ، فى ذات الوقت الذى تغلى فيه كل الأحداث تحت السطح ، ويتحرك عشرات الرجال ، بكل همة ، وذكاء ، ونشاط ؛ استعدادًا للضربة الكبرى الشاملة .

ومع أوائل عام 1973 ، تضاعفت نشاطات الجميع ، تحت السطح فى (القاهرة) ، وبدأت المرحلة الأخيرة ، والأكثر خطورة ، من خطة الخداع العظمى ، التى تواصل إلهاء العدو عن الهدف الحقيقى ، الذى بدأ العد التنازلى له بالفعل .

ووسط كل تلك الظروف ، وبينما الجميع يتأهب بكل حواسه ، ومشاعره ، وقدراته ، جاء ذلك الخبر بغتة كقنبلة مدوية وسط عالم من الصمت ..!

فذات صباح يوم من أيام مارس 1973م ، هتف أحد رجال المخابرات المسئولين عن مكافحة الجاسوسية الداخلية ، فى اجتماع طلب عقده على وجه السرعة :

ـ الإسرائيليون لديهم جاسوس ، فى منصب مهم جدًا ، فى الميناء الذى ستصل إليه شحنة الصواريخ الروسية الجديدة .

كان الخبر عنيفًا ومخيفًا للغاية ، فى تلك الآونة بالذات .. فالسوفيت كانوا قد أجروا تطويرًا سريًا مدهشًا على صواريخ (سام) القديمة ؛ ليخرجوا بطراز جديد منها وهو (سام 7) يمكنه تعقب مصادر الإشعال فى طائرات العدو ، والانقضاض عليها ونسفها ، مهما بلغت براعة مناوراتها ، أو سرعة انطلاقها وابتعادها .

وهذه كانت أكبر مفاجأة يختزنها المصريون لطائرات العدو ، عندما تحين المواجهة المباشرة .. وكشفها ، بأى وسيلة من الوسائل ، كان يعنى خسارة عامل مهم وحيوى ، وبالغ الخطورة ، من عوامل النصر .

وبسرعة قفزت إلى أذهان الرجال فكرة واحدة ، عبرت عن نفسها على لسان أحدهم ، وهو يقول :

ـ فلنلقِ القبض على هذا الجاسوس فورًا .

تساءل آخر فى حماس :

ـ ألدينا كل الأدلة الكافية ؟

أجاب ثالث فى سرعة :

ـ لدينا كل ما يكفى لإدانته وإعدامه.

هتف رابع :

ـ ماذا ننتظر إذن ؟!

وهنا ارتفع صوت (أ.ص) رجل المخابرات المُحنَّك ، وهو يشير بسبابته قائلاً بهدوئه الشهير :

ـ أعتقد أننى أخالفكم الرأى !

كانت عبارته تكفى ليسود المكان صمت تام مباغت ، ولتستدير العيون كلها إليه بكل حيرة ودهشة ، فتابع بنفس الهدوء :

ـ ربما كان وجود جاسوس كهذا ، فى ظروف كهذه ، أمرًا بالغ الخطورة بالفعل ، لو أمكنه كَشْفُ أمر الصواريخ الجديدة ، ولكن ماذا لو أنه لم ينجح فى هذا ؟!

قال أحد الرجال معترضًا :

ـ لا يمكننا أن نجازف باحتمال كهذا .

مَالَ (أ . ص) إلى الأمام ، وهو يسأل فى اهتمام :

ـ السؤال الآن هو : كيف سيمكنه كَشْفُ أمر تلك الصواريخ الجديدة ؟! إنها من الناحية الظاهرية صورة طبق الأصل من الصواريخ القديمة ، بل لقد حرصنا على أن تبدو أجسامها الخارجية كأنها ملقاة فى مخازن السوفيت منذ عامين على الأقل .. فكيف سيعلم أنها حديثة ؟!

أجاب حامل الخبر فى حزم :

ـ المشكلة أن ذلك الجاسوس هو أحد أهم عملاء المخابرات الإسرائيلية هنا ، ولقد زوده الأمريكيون بجهاز كشف إليكترونى من ثلاث نسخ فحسب ، وذلك الجهاز الصغير لديه قدرة مدهشة على كشف وجود أى أجهزة إلكترونية داخل الصواريخ .. ومن المؤكد أنه سيكشف أمر الخلية الحرارية الجديدة ، وهذا سيعنى للإسرائيليين كل شىء .

التقى حاجبا (أ . ص) وهو يتراجع فى مقعده ببطء ، ويقول وكأنما يحدث نفسه :

ـ جهاز كشف إلكترونى من ثلاث نسخ فحسب ؟!.. آه ... من الواضح بالفعل أنه جاسوس خطير جدًا ، وأن الإسرائيليين يولون الأمر جُلَّ اهتمامهم !

قال حامل الخبر بحزم أكبر :

ـ هذا صحيح .

ازداد انعقاد حاجبى (أ.ص) بشدة ، وشرد بصره بضع لحظات ، وغرق فى تفكير عميق ؛ حتى إنه قد بدا كأنه انفصل تمامًا عن كل المحيطين به ، والذين لاذوا ـ بدورهم ـ بالصمت التام ، وعيونهم كلها تتجه نحوه ، وكأنهم يدركون مدى عبقريته ، وموهبته فى التعامل مع أعقد الأمور وأغربها ، بأساليب مبتكرة وبارعة للغاية ..

ثم فجأة ، عاد (أ.ص) إلى من حوله ، ومَالَ إلى الإمام ، على مائدة الاجتماعات ، وهو يسأل فى اهتمام بالغ :

ـ ألدينا فكرة عن تصميم جهاز الكشف الإلكترونى هذا ؟

هزَّ المسئول عن الأمر رأسه ، قائلاً :

ـ ليس بصورة كافية ، إننا نعلم أسلوب تشغيله فحسب .

تألقت عينا (أ . ص) ، وكأنما كان هذا الجواب يكفيه ، وتراجع فى مقعده ، وهو يفرد كفيه على سطح مائدة الاجتماعات ، قائلاً فى حماس :

ـ عظيم .

ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة واثقة ، وهو يضيف :

ـ أعتقد أيها السادة أن علينا أن نبقى على ذلك الجاسوس فى الميناء ، وأن نرعى جهازه الحديث أيضًا !

ولم تَبْدُ الدهشة على وجوههم هذه المرة ؛ ربما لأنهم يدركون أنه يعنى كل حرف نطق به ..

وأن لديه حتمًا خطة جديدة ..

وعبقرية .

ولقد نطق (أ.ص) عبارته ، ثم نهض من مقعده ، وراح يدور حول مائدة الاجتماعات كعادته ، وهو يشرح خطته ..

وكالمعتاد كانت الخطة عبقرية ، مدهشة ، وبسيطة للغاية ..

ولم يدرك الإسرائيليون أو يتصوروا قط أن أبرع جواسيسهم ، وأقوى وأحدث أجهزتهم ، قد أصبحا ـ منذ تلك اللحظة ـ تحت عيون رجال المخابرات المصرية ، وفى قبضتهم .. المحكمة ..

فلقد سار كل شىء كما خططوا تمامًا ، وراح جاسوسهم ينتظر وصول شحنة الصواريخ الجديدة فى اهتمام بالغ ، وذلك الجهاز الحديث ، الذى يبدو أشبه براديو ترانزستور صغير ، لا يفارق يده قط بحجة أنه يهوى البرامج الإذاعية إلى درجة الإدمان ، كما أبلغ المحيطين به وأقنعهم .

ثم وصلت السفينة السوفيتية ، وتوقفت داخل المياه الإقليمية المصرية ، وطلبت الإذن بالرُسُو عند الميناء ، فى الصباح الباكر ، لإفراغ شحنتها العسكرية ذات الطابع الخاص .

وبكل اهتمامه وحواسه استعد الخائن لفحص الشحنة ، وإرسال تقريره إلى سادته فى (تل أبيب) .

وفى الخامسة صباحًا ، اتجهت السفينة السوفيتية نحو الميناء .

واستعد الجاسوس ، و ..

وفجأة وجد أمامه المفتش العسكرى للميناء ، والذى واجهه فى شىء من الصداقة ، قائلاً :

ـ هل استعددتم لاستقبال هذه السفينة ؟

أمسك الجاسوس جهازه فى اهتمام ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد سيتم إفراغها فور رُسُوها ، ونقلها إلى الشاحنات العسكرية دون إبطاء.

نطقها الجاسوس وهو يختلس النظر إلى الرجل هادئ الملامح ، الذى جاء مع المفتش العسكرى ، والذى بدا بحلته البسيطة ، ولحيته المخضرة أشبه بأحد موظفى الشحن المدنيين ، الذين يتولون الأمور والإجراءات الإدارية فى الميناء .. ولقد بدا ذلك الرجل هادئًا لامباليًا ، حتى إن الجاسوس لم يلبث

أن فقد اهتمامه به ، وأولى جُلَّ اهتمامه إلى المفتش ، الذى واصل حديثه معه عن أمور فنية ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ هيًا اكتب ما سأمليه عليك .

لم يكد المفتش ينطقها ، حتى التقط الرجل الهادئ من جيبه ورقة وقلمًا ، وناولها إلى الجاسوس ، الذى ارتبك لحظة ، ثم لم يكن أمامه إلا أن يضع الجهاز على المنضدة المجاورة ، ليلتقط الورقة والقلم بيديه معًا .

وبحركة عفوية بسيطة ، التقط منه « الهادئ » جهاز الراديو ، ووضعه على المنضدة ، وهو يبتسم فى مودة ، ثم لم يلبث أن تراجع فى بساطة ، ليقف إلى جوار المفتش ، الذى أملى الجاسوس بعض التعليمات البسيطة المعتادة ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ أريدك أن تنفذ هذا فور انتهاء نقل الشحنة .. هل تفهم ؟!

أجاب الجاسوس فى سرعة وتوتر :

ـ بكل تأكيد .

غادر المفتش المكان بعدها ، مع ذلك « الهادئ » ، وهو يناقش معه بعض الأمور الإدارية ، على نحو أكد للجاسوس حسن استنتاجه ، قبل أن يختطف جهازه فى لهفة ، ويعدو لاستقبال سفينة الشحن السوفيتية ، وشحنة الصواريخ الجديدة .

وبينما يتم نقل الصواريخ إلى الشاحنات العسكرية راح الجاسوس يختبرها بكل اهتمام وعناية ..

ولكن جهازه الحديث جدًا بقى صامتًا ، ساكنًا على نحو يؤكد أن هذه الصواريخ الجديدة لا تحوى أى جديد ، يزيد عمًا كانت تحويه الصواريخ القديمة .

وانتهت عملية التفريغ ، ورحلت الشاحنات العسكرية بحملها الثمين ، وأسرع الجاسوس ليعد تقريره إلى (تل أبيب) ، مؤكداً أنه لا جديد ..

وفى المساء ، وعندما غادر الجاسوس مقر عمله ، متجهًا إلى منزله ، لإرسال تقرير الخيانة ، التقى مصادفة بذلك الهادئ الذى صافحه فى حرارة ، وذكره بنفسه ، ثم التقط الجهاز من يده ، قائلاً فى حماس :

ـ راديو رائع .. من أين ابتعته ؟

أجابه الجاسوس فى حذر :

ـ إنه هدية .

لم يُبْدِ الهادئ اهتمامًا أكبر بالراديو ، وإنما أعاده إليه ، وهو يقول فى بساطة ، وبابتسامة ودودة :

ـ هدية قيمة بالتأكيد !

ثم راح يتحدث إليه بعض الوقت فى مودة ، قبل أن يعتذر الجاسوس فى ضجر ، ويغادره فى لهفة إلى منزله .

وفى نفس اللحظة ، التى أرسل فيها الجاسوس تقريره السلبى إلى (تل أبيب) ، مؤكدًا أنه ما من جديد ، كان الهادئ يدلف إلى قاعة اجتماعات مبنى المخابرات العامة المصرية ، وهو يحمل ابتسامة كبيرة ، ويشير بيده التى تحمل إبرة صغيرة ، قائلاً :

ـ لقد نجحنا !

لم يكن الهادئ سوى (أ.ص) الذى قرر القيام بالعملية شخصيًا ، لما يتميز به من خفة يد جعلته ينافس أبرع الحواة أما تلك الإبرة الصغيرة ، التى دسها فى الجهاز : عندما التقطه من يد الجاسوس ، قبل فحص الشحنة ، ثم عاد وانتزعها بعدها بنفس الخفة والبراعة ، فقد كانت عبارة عن إبرة مغناطيسية بسيطة ، جذبت إليها مؤشر الجهاز الإلكترونى ، ومنعته من الاستجابة للخلية الحرارية الخاصة ، فى الصواريخ الجديدة ، وأجهزة التوجيه المتصلة بها .

إبرة ممغنطة ، هزمت أحدث جهاز إلكترونى ، وحمت الصواريخ السوفيتية الجديدة ..!

فى أوائل مايو 1973م ، صدر قرار بنقل الجاسوس إلى

منصب إدارى بعيد عن الميناء مع ترقيته ؛ نظرًا لكفاءته ، كما جاء فى الأوراق الرسمية !..

ثم اندلعت حرب السادس من أكتوبر ..

وفوجئ الإسرائيليون بتلك الصواريخ الدفاعية الجديدة ، التى راحت تطارد طائراتهم كشياطين صغيرة ، لتنسفها نسفًا بلا هوادة ، كلما جَرُؤت على اختراق العمق المصرى .

وفى نفس اللحظة ، التى تساقطت فيها طائرات العدو كالذباب ، وجن فيها جنون قادة الطيران والدفاع الجوى فى (إسرائيل) ، كان (أ . ص) يقتحم مكتب الجاسوس ، ويعلن شخصيته الحقيقية ، وهو يلقى القبض عليه ، قائلاً بكل صرامة :

ـ كان ينبغى أن تدرك أن عين (مصر) ساهرة لا تنام ، وأن خائنها لا يربح فى النهاية سوى الهزيمة والفشل والعار ..!

وكان من الطبيعى أن ينهار الخائن لحظتها ، وأن يدلى باعترافه التفصيلى ، الذى لف حول عنقه حبل المشنقة ، والذى حسم المعركة ..

معركة الإبرة .. والصاروخ !

* * *

الاعتراف !

على الرغم من النشاط الدائم والمستمر ، الذى تموج به ، وتغرق فيه المخابرات العامة المصرية ، دون أن تتوقَّف لحظة واحدة ، إلا أنه من المعتاد أن يسود هدوء عجيب فى أروقة مبنى المخابرات ، وأن يتحرك كل شخص فى خفة ، ويتبادل الحديث مع الآخرين فى خفوت ، كما لو أن الرجال يلتهبون بالحمم المستعرة فى أعماقهم ، من جَرَّاءِ صراعهم الدائم مع الأعداء ، ويخشون أن ينقلوا لهيبهم إلى خارجهم ، حتى لا تتحوَّل حياتهم إلى جحيم حقيقى .

وفى ذلك اليوم الجمعة ، الأول من مارس عام 1971م ، وفى الحادية عشرة مساءً بالتحديد ، كانت أروقة مبنى المخابرات غارقة فى صمت شبه تام ، قد يوحى إليك بأن الجميع قد رحلوا ، أو عادوا إلى منازلهم ، وبقى المبنى خاليًا ساكنًا .

ولكنى فجأة ، أسمع وقع أقدام مسرعة ، تقطع أحد الممرات فى خطوات واسعة ، لتبدد ذلك الصمت الرهيب ، وبدا صاحب تلك الخطوات شابًا نحيلاً ، يطل الحماس والنشاط من كل خلجة من خلجاته ، ومن عينيه اللتين تومضان بالذكاء ، من خلف منظاره الطبى البسيط .

وفى اهتمام واضح ، دق الشاب باب حجرة أحد الضباط ، وانتظر لحظة ، حتى سمع صوتًا يدعوه إلى الدخول ، فدفع الباب فى رفق ، ولكن حماسه غلبه ، فقبل أن يصل إلى مكتب الضابط ، كان يقول فى لهفة :

ـ التقطنا رسالة جديدة .

ثم دفع أمام عينى الضابط بورقة خَطَّ عليها عددًا من الرموز ، بدت للوهلة الأولى كأنها لا تتفق مع بعضها .

ولكن الضابط التقط الورقة ، وراح يطالعها فى اهتمام بالغ ، فهو يعلم أن الشاب الواقف أمامه هو أحد العاملين اللامعين ، فى واحد من أكثر أقسام المخابرات أهمية ، قسم الاعتراض اللاسلكى ..

ذلك القسم الذى تقتصر مهمته على الاستماع طوال الوقت ، لكل الموجات فائقة التردد ، التى يبث عليها العدو رسائله اللاسلكية إلى العملاء .

وبكل اهتمام ، سأل الضابط ذلك الشاب :

ـ متى التقطت هذه الرسالة ؟

أجاب الشاب فى سرعة وحماس :

ـ منذ عشر دقائق على الأكثر ، وعلى موجة جديدة تمامًا .

قال الضابط فى حزم :

ـ فليكن .. استمر فى اعتراض الموجة ، وسجل كل ما يَرِدُ عليها من رسائل ، وأرسل هذه إلى قسم الشفرة ، أخبرهم أننى أريد منهم أن يعملوا على حلها بأقصى سرعة .

بدأ قسم حل الشفرة عمله على الفور .. فى حين استمر الشاب فى اعتراض ، ورصد ، وتسجيل تلك الرسائل اللاسلكية الغامضة ، طوال ثلاثة أسابيع ، وبدأت عملية دراسة ومقارنة لبعض المقاطع فى الرسائل ، مع مقاطع من رسائل أخرى ، استغرقت أسبوعًا آخر ، قبل أن يتم كشف الكثير من الغموض ..

واتضحت الصورة ..

لقد كانت هذه الرسائل موجهة إلى (مصر) ، وإلى (القاهرة) بالتحديد ..

وفى الاجتماع اليومى ، أبلغ الضابط المختص فريق العمل بهذه المعلومة ، وأضاف :

ـ الموجة المستخدمة فى بث واستقبال هذه الرسائل ، فائقة التردد إلى حد كبير ، وهذا يعنى أنه ليس من السهل أن يلتقطها أى جهاز استقبال عادى ..

إنها تحتاج إلى جهاز شديد الحساسية ، من طراز خاص .

كان هذا يعنى أنه على فريق العمل أن يبدأ مرحلة جديدة من العملية ..

مرحلة البحث عن جهاز الاستقبال ..

ولما كان إحضار مثل هـذا الجهـاز من الخارج عملية محفوفة بالمخاطر ، بالنسبة لأى جاسوس تقليدى ، فقد افترض الرجـال أن الشخص الذى يستقبل الرسائل ابتاع الجهاز من داخل البلاد ؛ وبناءً على هذا الافتراض نشط فريق من رجـال المخـابرات ، لإجراء أبحاثهم وتحرياتهم حول هذا الأمر ، وراحوا يطوفون بجميع المتاجر والمحـال ، التى تبيع أجهزة الراديو ، وبخاصة الأنواع الحساسة منها ، ويجرون عشرات المقابلات مع أصحـاب هذه المتاجر والمحال ؛ للبحث عن المكـان الـذى ابتـاع منـه الجاسوس جهاز الاستقبال .

وليومين أو ثلاثة ، لم يسفر البحث عن أية نتـائج واضحـة أو مبشرة ، ولكن فى اليوم الرابع ، أبدى أحد أصحـاب المحـال التجارية شيئًا من الاهتمام ، وهو يقول :

ـ نعم ، أذكر أننى بعت جهازًا من طراز (شارب موديف) .

سأله رجل المخابرات :

ـ ومن كان صاحب فكرة الحصول على جهاز راديو شديد الحساسية كهذا .. أنت أم المشترى ؟

هزَّ الرجل رأسه ، وقال :

ـ هذا النوع من الأجهزة ليس تقليديًا ، وثمنه يفوق فى المعتـاد ثمن أجهزة الراديو العادية ، وربما يبلغ ضعف ثمنها ، وليس من السهل إقناع زبون عادى بشراء مثله ، ولكـن هذا الزبـون طلب جهازًا كهذا بالتحديد ، ومن الواضح أنه يعلم ما يطلبه جيدًا .

سأله رجل المخابرات فى اهتمام :

ـ هل تذكر اسم المشترى أو صفاته ، أو حتى تاريخ البيع .

رفع الرجل حاجبيه ، وحاول التذكر قليلاً ، ثم لم يلبث أن أجاب فى لامبالاة :

ـ لقد حدث هذا منذ فترة طويلة ، ولست أذكر شيئًا من هذا .

حاول رجل المخـابرات إقناعـه بـالبحث فى ذاكرتـه أو أوراقـه عن التفاصيل المطلوبة ، ولكنه رفض بذل مثل هذا الجهد تمامًا ، وهنا لم يكن أمام رجال المخابرات إلا أن يصطحبوه إلى مكتبهم ، ويكشفوا له عن هويتهم الحقيقية ..

ويبدو أن هذا الإجراء كان مناسبًا تمامًا ، وأعلن أنه يمنح المشترين لمثل هذا النوع من الأجهزة الحساسة ضمانًا خاصًا ، ولم يعترض هذه المرة على إخراج أوراقه ودفاتره القديمة ، والبحث فيها بكل الصبر والعناية .

وبعد ما يقرب من ساعتين ، من الفحص الدقيق المتأنى ، عثر الرجل على صورة الفاتورة وشهادة الضمان ، وكانت كلماتهما باهتة وضعيفة ، ولكنها مقروءة ؛ لذا فقد نقل الرجال بياناتها بمنتهى الدقة .

وفى البداية ، تصور الرجال ، أو وضعوا فى اعتبارهم أنه من الطبيعى أن يكون الاسم والعنوان فى فاتورة الشراء زائفين ؛ لذا فقد أصابهم شىء من الدهشة ، عندما وصولا إلى عنوان المشترى ، واتضح لهم أنه سجل اسمه وعنوانه الحقيقيين بالفعل ..

وإلى هنا ، لم تكن المسألة تتجاوز الافتراض والاستنتاج والتخمين ، ثم إنه ليس من الضرورى أن يكون كل من يشترى جهاز راديو فائق الحساسية جاسوسًا ..

ولهذا كان على الرجال أن يتأكدوا .

وبدأت خطة منظمة لمراقبة الرجل من بعيد ، ومن قريب ..

وعندما تذكر عبارة (قريب جدًا) هذه ، فإننا نشير فى طرف خفى ، دون الدخول فى تفاصيل دقيقة ، إلى أجهزة التصنت والمراقبة ، التى وضعت فى منزل الرجل ، وراحت تراقبه .

وحسمت نتائج المراقبة الأمر ..

لقد كان هذا الرجل هو الشخص المنشود تمامًا ..

والعجيب أنه لم يكن شابًا ، أو صغير السن ، بل كان كهلاً تخطى الخمسين من العمر ، ويتمتع باحترام معقول بين جيرانه ..

فهو كهل يحمل اسم (عطية فهمى إسكندر) ..

وقصة (عطية) هذا تعود إلى حرب 1967م ، عندما كان موظفاً مرموقًا فى الحكومة المصرية فى (العريش) ، وأوقعه حظه العاثر فى براثن الجيش الإسرائيلى إبان الاحتلال .

كان الرجل مدنيًا كبير السن ، وعلى الرغم من هذا فقد عامله الإسرائيليون عمدًا كأسير حرب ، واصطحبوه إلى (إسرائيل) ، وهناك تعرض إلى بعض الضغوط المنظمة ، قبل أن يستدعيه ضابط مخابرات إسرائيلى ، ويواجهه قائلاً :

ـ هل تعلم لماذا ألقينا القبض عليك ؟

ارتجف (عطية إسكندر) ، وهو يقول :

ـ أبدًا ، فلست عسكريًا ، ولا أنتمى إلى أية جهة حربية .

قال الإسرائيلى فى بطء :

ـ ولكنهم يعتبرونك كذلك ، ويفكرون فى إعدامك.

لم يكن من الطبيعى أبدًا أن يعدم الأسرى ، فى أية حروب ، وعلى الرغم من هذا فقد هوى قلب الرجل بين قدميه ، فتلقفه الإسرائيلى فى سرعة ، وهو يقول :

ـ إلا إذا ..

تشبث (عطية) بهذا الأمل بكل قوته ، وهو يهتف :

ـ إلا إذا ماذا؟!

أدرك الإسرائيلى الخبير أن الصيد ليس عسيرًا ، فقال فى حسم :

ـ إلا إذا وافقت على العمل لحسابنا .

ولم يستغرق الاتفاق وقتًا طويلاً .

لقد وافق (عطية) على كل ما طلبه ضابط المخابرات الإسرائيلى ، والذى طلب منه أن يلتزم الصمت تمامًا ، بعد عودته إلى (مصر) ، وألا يقوم بأى نشاط ، حتى يتحين الفرصة المناسبة للسفر إلى (باريس) ، وهناك سيتم تدريبه ، بعد أن يلتقى بمندوب إسرائيلى ، ويتعارف معه بشفرة بسيطة ومبتكرة .

وأدى الجاسوس دوره بمنتهى الإتقان ..

كان يمكن أن يتراجع عن وعده فور وصوله إلى (القاهرة) ، وأن يبلغ المخابرات المصرية بالأمر ، ولكنه قتل فى أعماقه الانتماء ، واختار طريق الخيانة ببريقه الزائف .

وفى (القاهرة) ، ادعى الرجل أنه أفلت من الاحتلال بقطع الصحراء شرقًا إلى (الأردن) واستقل الطائرة من (عمان) إلى (القاهرة) ..

وكانت قصته منطقية ، مع الاضطراب الذى أصاب المنطقة فى ذلك الحين ، فلم تستوقف أحدًا ، وعاد الرجل ليستقر فى (القاهرة) ، ومارس عمله فى بساطة ..

وحتى يوليو 1970م ، ظل (عطية إسكندر) خاملاً ، ساكنًا ، متحوصلاً فى عمله وحياته ، حتى لا يثير أدنى قدر من الشبهات ،

إلى أن لاحت له الفرصة المرتقبة ، فسافر إلى (باريس) ، فى رحلة نظمتها جمعية الصداقة العربية الفرنسية .

وفى (باريس) ، التقى (عطية) بالمندوب الإسرائيلى ، وتلقى على يديه تدريبًا قصيرًا ومركزًا على تمييز الأسلحة ومعدات القتال ، وبالذات كل الأدوات اللازمة لعبور (قناة السويس) ..

وكانت المرة الأولى ، التى يبدأ فيها الإسرائيليون اهتمامهم بفكرة عبور (قناة السويس) ..

وقبل أن يغادر (عطية) (باريس) ، طلب منه المندوب الإسرائيلى أن يشترى جهاز راديو فائق الحساسية ، وأن يتلقى عليه الرسائل على موجة خاصة ، فى تمام العاشرة والنصف ، من أيام الجمع والآحاد ، وأن يرسل المعلومات على عناوين مختلفة فى (أوروبا)..

ولكن قسم الاعتراض اللاسلكى فى المخابرات العامة التقط الرسائل ..

وكان ما كان ..

وعند هذه النقطة ، اجتمع فريق العمل لتقرير ما سيتم فعله مع الجاسوس .. هل يتم إلقاء القبض عليه مباشرة ، أم يستغله الرجال لخداع الإسرائيليين لفترة أخرى ؟

وفى هذا الشأن ، قال الضابط المختص :

ـ لا أعتقد أننا سنستفيد شيئًا من إلقاء القبض عليه الآن ، فمراقبتنا له أثبتت أنه لا يشك قط فى أننا كشفنا أمره ، وهو يواصل جمع المعلومات ، وإرسالها إلى (أوروبا) ، ويمكننا أن نضعه تحت سيطرتنا ، ونحركه كقطعة من الشطرنج وقتما وكيفما نشاء .

قال آخر فى قلق :

ـ وماذا لو أرسل إلى (تل أبيب) معلومات بالغة الخطورة ؟

أجابه الضابط المختص :

ـ ومن أين سيحصل على مثل هذه المعلومات ، ونحن نراقبه طوال الوقت؟

لم يكن اتخاذ القرار سهلاً أو بسيطًا ، ولقد قضى الرجال ليلتهم كلها فى مناقشته ، ولم يستقر رأيهم على قرار محدد ، إلا والشمس تلقى أشعتها الأولى على مبناهم الصامت .

ومنذ ذلك اليوم ، بدأت مرحلة جديدة من العملية .

كان هناك فريق كامل يدرس الأمر ، ويدس للجاسوس معلومات بعينها ، فيسارع هو بالتقاطها فى لهفة ، ويحولها إلى كلمات مكتوبة ، يخطها بشفرة خاصة ، ويرسلها بالبريد إلى تلك العناوين فى (أوروبا) ..

ولكن الشيء الذى كان يجهله (عطية إسكندر) ، هو أن هذه الرسائل لم تذهب مباشرة قط إلى (أوروبا) ..

ففى جهاز المخابرات ، هناك قسم خاص ، للتعامل مع مثل هذه الرسائل ، بحيث يتم فتحها ، وفحص محتوياتها ، وتسجيل كل كلمة وردت بها ، حتى المكتوبة منها بالأحبار السرية ، ثم إعادتها إلى المظروف ، وإغلاقها فى إتقان مدهش بحيث يستحيل أن يكتشف أى مخلوق ما أصابها من عبث .

وطوال اثنى عشر شهرًا كاملة ، واصلت المخابرات المصرية دس المعلومات للجاسوس ، والتقاط الرسائل اللاسلكية الواردة إليه ، وفحص خطاباته المرسلة إلى (أوروبا) .

ولا شك فى أن هذا كان مفيداً للغاية ، فقد تم كشف أحد أساليب معاملات العدو ، وواحدة من أفضل شفراته ، وعددًا من أحباره السرية الجديدة .

ولكن لا يمكن أن يستمر هذا إلى الأبد ..

فذات يوم ، اجتمع فريق العمل ؛ لدراسة الموقف كله ، وقال الضابط المختص :

ـ هل يعتقد أحدكم أننا مازلنا فى حاجة إلى (عطية إسكندر) هذا؟

ناقشوا الأمر مرات ومرات ، وقلبوه على كل الوجوه ، ودرسوه من كل الجوانب ، ثم حسموا أمرهم قائلين :

ـ كلا ، نعتقد أن الرجل قد استنفد الغرض من وجوده.

أومأ الضابط المختص برأسه متفهمًا ، وقال فى حزم :

ـ فليكن .. دعونا نُنْهِ هذه العملية .

وذات ليلة من ليالى إبريل عام 1972م ، كان (عطية فهمى إسكندر) يجلس فى منزله ويلتقط إحدى رسائله ، عندما سمع طرقات هادئة على باب شقته ، فأدار مؤشر الراديو إلى محطة أخرى فى سرعة ، وهتف بلهجة أرادها بسيطة عادية :

ـ من بالباب ؟

لم يتلق جوابًا للوهلة الأولى ، فكرر النداء ، فسمع صوت بواب البناية يقول :

ـ إنه أنا يا أستاذ (عطية) .

اطمأن (عطية) إلى الأمر ، عندما سمع صوت البواب ، وفتح باب الشقة فى بساطة ، و ..

« مساء الخير .. »

صدمته العبارة ، التى جاءت على لسان شخص لم يره فى حياته قط ، فقال :

ـ مساء الخير .. من أنت ؟ وماذا تريد بالضبط ؟

لمح بواب العمارة يقف بين عدد من الرجال ، فتضاعف قلقه ، وهَمَّ بأن يقول شيئًا ما ، ولكن الرجل الواقف أمامه تجاوزه فى هدوء ، إلى داخل الشقة ، وأبرز بطاقة صغيرة ، وهو يقول فى اختصار شديد :

ـ المخابرات العامة المصرية .

وسقط (عطية) على أقرب مقعد ولم يعترف (عطية) على الفور ..

أو إن أحدًا لم يكن يتعجل اعترافه فى الواقع؟ فقد اتجه الضابط مباشرة ، إلى حيث وضع (عطية) الراديو ، والتقطه فى بساطة ، وأدار مؤشره إلى تلك الموجة الخاصة ، والتى يرسل الإسرائيليون رسائلهم إليه عليها ، وقال :

ـ محطة طريفة ، كنا نستمع إليها معك ، طوال العام الماضى .

وكما حدث فى (إسرائيل) ، انهار (عطية) بسرعة ، واعترف بكل شىء ..

كان يعلم أنه خان وطنه بكامل إرادته ، وأنه لا يستحق أدنى شفقة أو رحمة ، وربما كان هذا هو السبب فى أنه ـ وعلى الرغم من انهياره الشديد ـ تقدم نحو حبل المشنقة ، ليلقى جزاءه العادل بلا كلمة واحدة ..

وبلا اعتراض .

* * *

التـــركى

« الإسرائيليون اعتقلوا الصقر .. »

تلك الكلمات القليلة ، التى حملتها برقية شفرية عاجلة إلى المخابرات العامة المصرية ، فى الساعات الأولى من صباح أحد أيام فبراير 1973م ، كانت أشبه بقنبلة ، تفجَّرت فى المكان كله ، وخلقت موجة من التوتر النشط ، جعلت الرجال يعقدون اجتماعًا عاجلاً طارئًا ، فى حجرة الاجتماعات الرئيسية ، وكل منهم يحمل ملفًا خاصًّا ، لمناقشة الموقف كله .

فالصقر كان ذلك اللقب ، الذى أطلقه الرجال ، على واحد من أفضل عملائهم وأخطرهم ، فى (تل أبيب) ، والذى يمكن أن يؤدى اعتقاله إلى فجوة معلومات ضخمة ، لا يمكن تعويضها بسهولة ، فى تلك الأشهر القليلة المتبقية ، على الضربة الحاسمة.

ولقد اجتمع الرجال لثلاث ساعات كاملة ، لمراجعة ملف (الصقر) بأكمله ؛ بحثًا عن تلك الثغرة ، التى ربما نفذ منها الإسرائيليون ، لكشف الهوية الحقيقية لرجلهم ، الذى تم زرعه فى المجتمع الإسرائيلى منذ أعوام طويلة ، بدقة متناهية ، وعلى نحو لا يمكن أن يتطرق إليه الشك .

والواقع أن ذلك العميل (شوكت نصر الدين) ، كان شخصًا متميزًا منذ حداثته ، عندما ولد ونشأ فى أسرة مصرية بسيطة ، يعولها أب مصرى صميم ، كان يعمل فى وظيفة حكومية مرموقة ، وأم من أصول تركية ، لم تبرز إلا فى اختيارها لاسم ابنها الأصغر ، الذى بدا لها عند مولده أكثر جمالاً من شقيقه الأكبر ، وشقيقته الرقيقة التى اختطفها الموت فى طفولتها ، بمرض نادر عجيب .

وعلى الرغم من أن (شوكت) هو آخر العنقود ، كما يقولون فى الأسر المصرية ، إلا أنه لم يحظ بالدلال التقليدى ، فى مثل هذا الموقف ، بسبب مرض أمه ، بعد ولادته بأشهر قليلة ، بمرض أقعدها لشهرين أو ثلاثة ، قبل أن تسوء صحتها أكثر وأكثر ، ثم تلقى ربها ـ سبحانه وتعالى ـ ، وصغيرها لم يتم عامه الأول بعد .

ولأن ضربات القدر لا تأتى أبدًا فرادى ، فقد اختطف الموت الوالد أيضًا ، تحت عجلات الترام ذات يوم حار كئيب ؛ ليترك ولديه (إبراهيم) و(شوكت) يتيمين ، وحيدين ، يفتقران إلى الحنان ، والحب ، والرعاية .

وعلى الرغم من أنها لم ترض أبدًا عن هذا الزواج ، فقد احتضنت الجدة التركية الصغيرين ، وشملتهما بحبها ، وحنانها ، ورعايتها ، حتى

بلغ (إبراهيم) عامه العاشر ، والتحق (شوكت) بالمدرسة الابتدائية ..

ثم رحلت الجدة بدورها ..

ومع رحيلها ، أصبحت الحياة صعبة ، وعسيرة ، بل وقاسية أيضًا ..

ولأن أحدًا من أفراد الأسرة لم يكن على استعداد لإعالة صغيرين فى آن واحد ؛ فقد تم اتخاذ قرار صارم بالتفرقة بين (إبراهيم) و(شوكت) ، بحيث يحيا الأول مع خالته ، ويستقر الثانى فى بيت عمه ، الذى أصر على الرغم من فقره ، على رعاية ابن شقيقه الراحل ، الذى لم يحظ بالحنان أبدًا .

وكانت أصعب لحظة ، فى حياة (إبراهيم) و(شوكت) ، عندما حانت لحظة الفراق ، وتشبث كل منهما بالآخر ، وهما يصرخان ويبكيان ، قبل أن ينتزعوهما من بعضهما ، فى عنف وحزم ؛ لينتقل كل منهما إلى بيت آخر ..

وكانت آخر مرة يلتقيان فيها فى عمرهما كله ..

فلم يمض عام واحد ، حتى غادرت الخالة مسكنها فى (الإسكندرية) ، ورحلت مع (إبراهيم) إلى (تركيا) ؛ حيث انقطعت أخبارهما هناك تمامًا ..

أما (شوكت) ، فقد ظل يبكى أخاه لشهر كامل ، ثم لم يلبث أن استسلم للأمر ، وخضع لنوائب الزمن ، وإن لم ينس شقيقه قط ، ولم يعد يضحك أو يبتسم أبدًا ، وخاصة عندما راحت زوجة عمه تعلن استياءها من وجوده ، ومشاركته أولادها رزقهم ومكانهم وحياتهم بلا مبرر ، كما رددت دومًا ، فى غيابه ووجوده .

ولأن الحياة شاقة ، مرهقة ؛ فقد استمر (شوكت) فيها طويلاً واعتاد خلالها الانزواء والصمت ، واكتساب عشرات المهارات الفردية ، التى يكتسبها فى المعتاد أصحاب العقول المبدعة ، إذا ما أحاطت بهم مصاعب القدر .

ولقد تفوق (شوكت) فى دراسته ، على نحو ملحوظ ، أثار حفيظة زوجة عمه؛ لأن أولادها لم يمكنهم تحقيق التفوق ذاته ، ولم تَبْدُ عليهم علامات الذكاء ، مثل ابن عمهم اليتيم ، الذى لا يضحك أبدًا .

وبسرعة أنهى (شوكت) مرحلته الابتدائية ، وحصل على درجات عالية ، تؤهله فى بساطة للالتحاق بالمرحلة الثانوية ، فى ذات الوقت الذى فشل فيه ابن عمه فى دراسته ، وراح يفكر فى عمل بسيط قريب .

وهنا ثارت ثائرة زوجة العم ، وأصرت بشدة على أن يكتفى (شوكت) بالمرحلة الإعدادية ، وألا يكمل دراسته الثانوية ، باعتبار أنه لن يتفوقَ على أسياده ، على حد قولها .

ولكن (شوكت) خرج عن صمته هذه المرة ، وثار فى عنف ، وطالب بحقه فى مواصلة دراسته ، حتى إنه اضطر للعمل من أجل هذا ..

ورفضت زوجة العم هذا العرض فى عنف ، ووضعت الجميع أمام أمرين ، لا ثالث لهما ؛ إما أن يكتفى (شوكت) بالمرحلة الإعدادية ، أو يغادر منزلها إلى الأبد .

وقبل (شوكت) التحدى ..

وخلال ساعة واحدة ، كان (شوكت) قد جمع أشياءه الشخصية فقط ..

ورحل ..

لم يَدْرِ أحد كيف قضى الصبى تلك السنوات القاسية ، وهو الذى لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره بعد ، ولكن المؤكَّد أنه كان يملك إرادة فولاذية ، تفوق سنوات عمره بكثير؛ لأنه واصل دراسته بالفعل ، وحصل على الثانوية العامة ، ثم التحق بكلية التجارة ، وتخرج منها فى عام 1961م ..

والغريب أن عمه لم يحاول السؤال عنه ولو مرة واحدة ، منذ أن غادر منزله ، وربما حتى لحظة كتابة هذه السطور ، وكأنما نسى أمره تمامًا ، ولم يعد يعنيه شأنه بالمرة .

وفى أوائل عام 1962م ، التقط رجل المخابرات (ص) (شوكت) ، وأدرك أنه يمتلك كل المواهب والإمكانيات المتاحة للعمل مع جهاز المخابرات ، الذى ينظم نفسه ، وينشئ أجهزته الخاصة ، ويخطط لزرع عدد من الرجال ، فى قلب أكبر عدو له حينئذٍ ..

فى قلب (إسرائيل) ..

ودون الدخول فى الكثير من التفاصيل ، التى لم يرغب أحد فى الإفصاح عنها حتى الآن ، يكفى أن نعرف أن (شوكت) كان مستعدًا لمهمته الخطيرة تمامًا ، وأنه قد قضى عامًا من التدريب الشاق العنيف المتصل ، قبل أن يسافر إلى (تركيا) ، التى تعلم لغتها وأتقنها تمامًا ، ليصبح هناك (دافيد سولومون) ، ابن التاجر اليهودى (سولومون بن زايون) ، الذى فر من جحيم النازية فى الحرب العالمية الثانية ، وفر مع أسرته إلى (أسطنبول) ، لتقضى زوجته وابنته نحبهما فى الطريق الشاق ، ويصل هو وحده ، مع ابنه (دافيد) ، وقد أرهقهما التعب والألم

والحزن ، ثم لم يلبث الأب أن مات ، مع منتصف الخمسينيات ، تاركًا ابنه وحده ، يسعى لتأمين معيشته ، والبحث عن لقمة عيشه ، فى (أنقرة) و(أزمير) ..

وقضى (شوكت) عامين كاملين فى (تركيا) ، أتقن خلالهما اللغة التركية أكثر وأكثر ، وعمق قصته وأكدها ، فى نفس الوقت الذى رتقت فيه المخابرات المصرية كل ثقب محتمل فى قصة منشئه ، وراجعتها ألف مرة ، حتى أيقنت من أنه من المستحيل كشف حقيقته أبدًا ..

وعندئذٍ .. عندئذٍ فقط ، بدأ (شوكت) رحلته إلى (إسرائيل) ، التى هاجر إليها فى أواخر 1964م ، حاملاً كل مدخرات عمله فى (تركيا) ، وكل الوثائق ، التى اكتسبت خلال العامين المنصرمين كل الرسمية والشرعية .

ووسط عدد من المهاجرين ، وصل (شوكت) ، أو (دافيد سولومون) إلى (إسرائيل) ..

وحتى منتصف 1966م ، لم يكن لدى (شوكت) مهمة ، سوى تثبيت قدميه فى عالمه الجديد ، وتأكيد هويته الإسرائيلية ، واكتساب ثقة كل المحيطين به .

ثم بدأت مرحلة البناء ، وعقد الصداقات والارتباطات ..

وهنا برزت موهبة (شوكت) الحقيقية ..

فخلال عام واحد ، وقبل يونيو 1967م ، كان أحد الشخصيات المعروفة فى (تل أبيب) ، وأحد رجال الأعمال الصغار ، الذين يتوقع لهم الجميع مستقبلاً باهرًا .

ثم حدثت نكسة يونيو 1967م .

وعاش (شوكت) أسوأ لحظات عمره ، وهو يرقص احتفالاً بانتصار الإسرائيليين ، وقلبه يبكى دمًا ، لما أصاب وطنه الأم (مصر) .

ولكن هذا لم يحبطه أو يدمره ، وإنما ضاعف من حماسه أكثر وأكثر ، وفجّر فى أعماقه رغبة أكبر فى الثأر والانتقام ، وفى أن يثبت للإسرائيليين أن (مصر) لا تسقط أبدًا ، مهما طال الزمن ، ومهما تكالبت عليها الخطوب ..

وراح (شوكت) يواصل عمله فى إصرار وتحدٍّ ، ويرتبط بعلاقات أكثر وأكثر ، ويرسل إلى (مصر) المزيد والمزيد من المعلومات ، بالغة الأهمية والخطورة ، ووضعه الاقتصادى يتحسن وينتعش أكثر وأكثر ، فى نفس الوقت الذى أصبح فيه

أحد نجوم المجتمع ، الذين يسعى الجميع لصداقتهم ، والارتباط بهم ، فى كل يوم ؛ مما جعل المخابرات المصرية تطلق عليه لقب (الصقر) ..

ثم فجأة ، وفى قمة نجاحه ، وصلت هذه البرقية القصيرة ..

واشتعلت الدنيا كلها ..

ولكن اجتماع الرجل أثبت ، بما لا يدع مجالاً للشك ، أنه من المستحيل أن يكشف الإسرائيليون شيئًا عن حياته السابقة ، فلماذا اعتقلوه الآن ؟!

ووصلت المعلومات من (إسرائيل) ، حاملة كل ما يرغبون فى معرفته ..

لقد تم إلقاء القبض على (شوكت) ؛ بسبب ارتباطه ببعض التجار ، الذين ثبت عملهم كجواسيس للمخابرات السورية ، مما أحاطه بالكثير من الشكوك ، التى استدعت اعتقاله ، واستجوابه ، كما أنهم ينوون إخضاعه لاختبار جهاز كشف الكذب ، مع بداية الأسبوع التالى ، بعد أن ترهقه الاستجوابات ، ولا يعود باستطاعته خداع الجهاز ، بالسيطرة على أعصابه وهدوئه .

وكانت مشكلة عويصة للغاية ، أمام رجال المخابرات المصرية ،

فعلى الرغم من أن (شوكت) قد تلقى تدريبًا على مواجهة جهاز كشف الكذب منذ بضع سنوات ، إلا أن إرهاقه وتوتره قد يهزمان أعصابه ، ويكشفان أمره أمام الإسرائيليين .

وهذا لا يعنى فقدان عميل بالغ البراعة والخطورة فحسب ، بل يعنى وجود فجوة رهيبة فى نطاق المعلومات أيضًا ، لفترة لا يعلم إلا الله (سبحانه وتعالى) مداها ، وإمكانية رتقها وتعويضها ، فى تلك الفترة الحرجة .

ثم إن اجتياز (شوكت) لهذه الأزمة ، سيعنى عودته إلى حياته ، واتصالاته ، ومعارفه ، واستمرار تدفق المعلومات على نحو متصل وطبيعى .

ولقد راجع الرجال هذا الأمر طويلاً ، وبحثوه من كل الأوجه ، وفَنَّدُوه من كل الجوانب ، وناقشوا كل الاحتمالات .

فلكى يثق الإسرائيليون فى براءة (شوكت) ؛ لابد من القيام بعدد من الأمور ، أولها : التأكد من عدم وجود أية ثغرة ، فى قصة تغطيته كلها ، يمكن للإسرائيليين النفاذ إلى الحقيقة من خلالها ، وثانيها : وهو الأكثر أهمية ، معاونته على اجتياز اختبار جهاز كشف الكذب بنجاح .

وهذه هى المُهِمّة الأكثر صعوبة ، وخاصة مع ضيق الوقت ، وخطورة الأمر ، ونوع المكان ، الذى سيجرى فيه الاختبار .

وللوهلة الأولى ، بدت تلك المهمة مستحيلة تمامًا ..

ولكن هذه هى حياة رجال المخابرات ، الذين يؤمنون دومًا بقاعدة ذهبية ، اشتهر بها (نابليون بونابرت) ، القائد الفرنسى الشهير ..

ففى قاموسهم ، لم يكن هناك وجود لكلمة (مستحيل) .

ولأن المهمة عسيرة ومعقدة ، وتحتاج إلى عقل من نوع خاص ؛ فقد أسند المخابرات المُهِمَّة لواحد من أفضل رجالها ، فى ذلك الحين (أ . ص) .

وأول ما فعله (أ . ص) ، عندما بدأ مهمته بعد أربع ساعات فحسب ، من وصول تلك البرقية الشفرية ، هو أنه جمع ملفات كل الخبراء والفنيين ، فى جهاز كشف الكذب الإسرائيلى ، وراح يطالعها مع فريقه ، ويدرسون كل حرف فيها ، ويطالعون كل معلومة ، مهما بدت تافهة أو بسيطة ؛ لإيمانهم التام بأن ثغرة صغيرة ، قد تكفى لعبور فيل كامل ، لو تم كشفها فى الوقت المناسب .

ولقد استغرقت عملية البحث هذه وقتًا طويلاً للغاية ، قبل أن يهتف (أ . ص) فجأة ، على طريقة (أرشيميدس) ، وهو يشير إلى معلومة حديثة ، جاءت فى أحد الملفات :

ـ وجدتها ..

ولثلاث ساعات أخرى ، راح الرجال يناقشون فكرته البسيطة ، التى بدت سخيفة فى البداية ، ثم سرعان ما أدرك الرجال قوتها وفاعليتها ، مما جعلهم يبدءون عملهم ، فور انتهاء الاجتماع ، فى الخامسة من صباح اليوم التالى مباشرة .

وفى الحادية عشرة ، بتوقيت (تل أبيب) ، اتجهت (إستر) ، زوجة (إفرايم) ، فنى جهاز كشف الكذب ، فى المخابرات الإسرائيلية ، إلى النادى كعادتها ، لتجالس شلة صديقاتها ، ورحن يتبادلن بعض الأحاديث التافهة ، والدعابات المبتذلة ، والحكايات السخيفة ، قبل أن تظهر (ليليان) ، المجندة الإسرائيلية الشابة ، وتتجه نحوهن مباشرة ، ثم تشير إلى (إستر) ، قائلة :

ـ هل يمكننى التحدث إليك وحدنا لحظات ؟

تبعتها (إستر) إلى منضدة قريبة ، تجلس عندها شابة فاتنة ،

محمرة العينين ، قدمتها لها (إستر) ، قائلة :

ـ صديقتى (كيتى) ، من أيام الدراسة ، وهى تطلب منك خدمة بسيطة .

سألتها (إستر) فى حذر :

ـ أى نوع من الخدمات ؟

لم تكد تلقى سؤالها ، حتى انفجرت (كيتى) باكية ، وسالت دموعها على وجهها فى غزارة ، وهى تروى قصة صديقها ، رجل الأعمال (دافيد سولومون) ، الذى تم اعتقاله ظلمًا ، وكيف أنها تبكى طوال الوقت ، وتتمنى رؤيته ، ولو لحظة واحدة ، لتبلغه حبها وتحياتها ، و...

وبدت دَهْشَةً حَذِرَةً على وجه (إستر) ، وهى تسأل :

ـ وما شأنى أنا بكل هذا ؟!

واصلت (كيتى) بكاءها ، فى حين مالت (ليليان) على (إستر) ، قائلة :

ـ كل ما نريده هو أن تقنعى زوجك بتقديم خدمة لصديقتى (كيتى) ؛ لأن صديقها معتقل عندهم هناك فى المخابرات الإسرائيلية ..

هتفت (إستر) :

ـ مستحيل !.. (إفرايم) يرفض تمامًا أى تدخل فى عمله ، ولن يقبل القيام بهذه المهمة قط ، ثم إنه لا يستطيع اصطحابها لزيارة صديقها ، إلا بموافقة رؤسائه.

قالت (كيتى) ، بدموع تدعو للرثاء :

ـ ليس من الضرورى أن ألتقى به أو أراه ، يكفى أن ينقل زوجك رسالتى إليه فحسب ، ليدرك كم أحبه .. أرجوكِ .

هزَّت (إستر) رأسها فى قوة هاتفة :

ـ قلت : مستحيل !.. لن يوافق (إفرايم) على هذا أبدًا .

قالت (ليليان) فى هدوء :

ـ كل زوجة لديها ألف وسيلة ، لإقناع زوجها بالقيام بما تريده ، لو أرادت هذا .. استخدمى معه إحدى وسائلك .

ثم مالت على أذنها ، مضيفة فى صرامة :

ـ بعض ما تستخدمينه مع صديقك الدكتور (دان) .

اتسعت عينا (إستر) ، وارتجف جسدها فى عنف ، وهى تحدق

فى وجه (ليليان) ، وقد فهمت رسالتها ، واستوعبت مغزاها ، وأدركت ما ينبغى أن تفعله ؛ حتى لا تفضح (ليليان) علاقتها بالدكتور (دان) ، المتزوج من امرأة شرسة ذات نفوذ .

ومنذ تلك اللحظة ، لم ينعم (إفرايم) بلحظة هدوء واحدة ، وزوجته تواصل الحديث ليلاً ونهاراً عن (كيتى) المسكينة ، ودموعها ، وحزنها ..

ورسالتها ..

ولقد غضب الفنى الإسرائيلى فى البداية ، وثار ، وهدَّد ، وتوعدَّ ، ولكن مع أوَّل مرة رفضت فيها (إستر) السماح له بلمسها ، استسلم تمامًا ، ووافق على توصيل الرسالة الشفهية ، بعد أن راجعها فى ذهنه ألف مرة ، وتأكَّد من أنها لا تحوى أية كلمات مشتبه فيها .

ولأنه فنى جهاز كشف الكذب ، ولا يمكنه أن يخبر أحدًا من زملائه بالأمر ، كان من الطبيعى ألا يمكنه توصيل الرسالة إلا فى لحظة بعينها ..

وهو يعد (شوكت) لجلسة الاختبار ..

اختبار كشف الكذب ..

صحيح أن (شوكت) يتميز بأعصاب قوية ، إلا أنه فى تلك اللحظات وهم يوصلون جسده بأسلاك جهاز كشف الكذب ، كان يشعر بشىء من التوتر فى أعماقه ، ويلقى على نفسه سؤالاً مقلقًا :

ـ ترى هل سيمكنك خداع جهاز كشف الكذب هذا ، كما نجحت فى خداعه ، فى تدريبات المخابرات المصرية ؟ وبينما يدور السؤال فى رأسه ، انحنى عليه (إفرايم) ، فى لحظة غفل عنه فيها الآخرون ، وهمس فى توتر :

ـ (كيتى) تبلغك تحياتها ، وتؤكِّد أنها تحبك ، وأن (الصقر) فى رعايتها دائمًا ..

وانتفضت كل ذرة فى كيان (شوكت) ، عندما سمع العبارة ..

فاسم (كيتى) هو الذى كانت توقع به كل البرقيات المشفرة ، التى تصل إليه من (أوروبا) ، حاملة تعليمات المخابرات المصرية ، أما (الصقر) فهو لقبه السرى الخاص ، ومن المستحيل أن يعرف (إفرايم) هذا ، إلا لو كانت المخابرات المصرية معه هناك ..

فى قلب جهاز المخابرات الإسرائيلى ..

ومن الطبيعى أن يبث هذا فى كيانه كل الثقة ، والهدوء ، والارتياح ، وهو يقدم على اختبار جهاز كشف الكذب ..

وفى صباح اليوم التالى ، تلقى (شوكت) عشرات الاعتذارات ، من مسئولى الحكومة ، والمخابرات الإسرائيلية ، بعد أن اجتاز بنجاح اختبار كشف الكذب ، وتم الإفراج عنه مباشرة .

ولقد التزم (شوكت) بحياته التقليدية ، دون أية محاولة لجمع المعلومات ، أو الاتصال بالمخابرات المصرية ، أيًا كانت الأسباب ، طوال الأشهر الثلاثة التالية .

وبعد أن وصلته برقية خاصة ، من المخابرات المصرية ، لتشير إلى أن فترة مراقبته قد انتهت ، بدأ (شوكت) يعود إلى نشاطه رويدًا رويدًا .

ومنذ أول سبتمبر ، وبناءً على طلب جهاز المخابرات نفسه ، تضاعف كَمُّ ما يرسله إلى (القاهرة) من معلومات ، وتزايدت غزارته ، حتى اندلاع حرب أكتوبر 1973م .

وفى هذه المرة ، كان على (شوكت) أن يبكى مع الإسرائيليين على الهزيمة ، وقلبه يرقص طربًا ، وفرحًا بانتصار (مصر) ..

وفى السابع من نوفمبر ، وبناءً على برقية شفرية ، سافر

(شوكت) إلى (روما) ؛ ليلتقى هناك برجل المخابرات المصرى (أ.ص) ، لأمر مهم وعاجل ، كما أشارت البرقية ..

وعندما التقيا ، وربما لأول مرة فى حياتهما ، صافح كل منهما الآخر فى قوة وحرارة ، و(أ. ص) يبتسم ابتسامة كبيرة ، قائلاً :

ـ مرحبًا أيها (الصقر) .. مرحبًا يا بطل .. (مصر) تقدم لك خالص شكرها ، على كل ما قدمته لها ، طوال السنوات الماضية .

قال (شوكت) فى حرارة :

ـ رقبتى فداء لوطنى (مصر) .

اتسعت ابتسامة (أ. ص) ، وهو يقول :

ـ لقد أردنا أن نقدم لك هدية خاصة ، ولكننا أدركنا أنك قد صرت ثريًا ، إلى درجة لا يمكن أن تنبهر معها بأية هدية ؛ لذا فقد فكرنا فى شىء خاص جدًا .

قالها ، واستدار إلى باب جانبى ، خرج منه رجل طويل القامة ، ارتفع حاجباه فى تأثر ، وارتجفت شفتاه فى انفعال ، وهو يقول :

ـ كيف حالك أيها الكتكوت التركى ؟!

لم يكد (شوكت) يسمع ذلك الاسم ، الذى افتقده منذ زمن

طويل ، حتى حدّق فى ذلك الطويل لحظة فى ذهول ، قبل أن يندفع نحوه بكل قوته ، صارخًا بانفعال الدنيا كلها :

ـ (إبراهيم) .

وأمام عينى (أ . ص) ، وابتسامته الواسعة الدافئة ، تعانق الشقيقان ، بعد أن فرّقت بينهما الأيام لعشرات السنين ، وحرمت كلاً منهما من حب وحنان الآخر ..

وبصعوبة ، كتم (أ.ص) دموع تأثره ، وهو يشعر بسعادة جمّة ، لأن (مصر) قد قدمت أفضل هدية لرجلها ، الذى بذل من أجلها الكثير ، وهو يراقب عدوها ، طوال سنوات عديدة ، بعينين تعشقان تراب الوطن ..

بعينى (صقر) ..

مصرى .

* * *

الثعلب

توقفت سيارة سوداء صغيرة ، مصرية الصنع ، داخل حديقة بسيطة ، تُحيط بفيلا متواضعة ، فى حى (منشية البكرى) ، فى ذلك الصباح ، فى عام 1958م ، وغادرها رجل أسمر ، بصحبة شاب طويل القامة ، ممشوق القوام ، تزين وجهه لحية قصيرة ، منحته مظهرًا يتناسب مع طبيعته الفتية ، ويُضيف بضع سنوات إلى عمره ، الذى تجاوز العشرين بأشهر معدودات ، واتجه الرجل والشاب إلى مكتب أنيق ، فى مدخل الفيلا ، حيث استقبلهما رجل وسيم ، ابتسم وهو يُصافح الأسمر فى حرارة ، قائلاً :

ـ صباح الخير يا (صلاح) بك .. نحن فى انتظارك منذ اتصالك الهاتفى .. تفضل .

أشار (صلاح) بك إلى الشاب ذى اللحية ، وقال فى نبرة هادئة ، حملت شيئًا من الحزم :

ـ انتظرنى هنا ، ولا تُغادر المكان قط .

لم يكن هناك داع ـ عمليًا ـ لمثل هذا القول ، فالشاب يعمل ويُدرك ، منذ وطئت قدماه المكان ، أن دخوله ليس أبدًا كالخروج منه ، فعلى الرغم من بساطته ، كان المكان مُحاطًا بحراسة قوية ، ورقابة غير عادية ..

ولم يدر الشاب أين يجلس بالضبط ، ولكنه كان يعلم ، منذ لحظات فقط ، أن (صلاح) بك هذا هو مدير المخابرات العامة المصرية (صلاح نصر) ، الذى لجأ إليه بعد عودته من (إيطاليا) مباشرة ، لينبئه بأنه يحمل فى صدره أسرارًا عسكرية وأمنية بالغة الخطورة ، وتفاصيل محاولة من (الموساد) لتجنيده ، للعمل كجاسوس فى (مصر) ، ولكنه رفض تمامًا الإفصاح عما لديه ، إلا أمام شخص واحد فقط ، كان من المستحيل عمليًا أن يلتقى به بالبساطة التى توقعها ..

وقبل أن يغرق الشاب فى أفكاره وتساؤلاته ، برز (صلاح نصر) فى حجرة مجاورة لمكتب الرجل الوسيم ، وقال له :

ـ تعالى يا (سمير) .. هنا ستدلى بكل ما لديك ، ونهض (سمير) ، وعبر الباب خلف مدير المخابرات العامة ، واتسعت عيناه فى ذهول وانبهار ، عندما وجد نفسه وجهًا لوجه ، أمام الرجل الذى طلب مقابلته ، والذى سيروى له كل ما لديه ..

أمام الرئيس (جمال عبد الناصر) شخصيًا ..

* * *

نشأ (سمير فؤاد الإسكندرانى) فى حى (الغورية) ، وقضى فيه طفولته وصباه ، وعاش مع والده الحاج (فؤاد) سهرات

وأمسيات الأدب والفن والغناء ، فوق سطح منزله هناك ، وامتزج نموه بأشعار (بيرم التونسى) ، وألحان الشيخ (زكريا أحمد) ، وغناء والده بصوته العذب ، وأحاديث السياسة والحرب والاقتصاد ..

ولكن دوام الحال من المحال .. لقد انتقلت الأسرة من (الغورية) إلى شارع (عبد العزيز) ، ليتغير هذا العالم كله ، وتنقلب الحياة رأسًا على عقب ، فالطباع المصرية الأصيلة اختفت وتوارت ، لتحل محلها عائلات وتقاليد إيطالية ويونانية وإنجليزية ، وتحول عم (سيد الصعيدى) البقال البسيط إلى (جورج باباكرياكو) البقال اليونانى المتغطرس الفاخر ، وعم (عبد الفضيل) أصبح الخواجة (أرتين) ، ولم تعد هناك جارتهم الست (نبوية) ، بل أصبحت سنيورا (ماريا) ، وابنتها الفاتنة (يولندا) ..

و(يولندا) هذه بالذات ، كان لها أبلغ الأثر فى حياة (سمير) ، فقد وقع فى حبها ، وعشق من أجلها كل ما هو إيطالى ، وقضى بصحبتها أمسياته الجديدة ، فوق سطح منزل شارع (عبد العزيز) وامتزج بعصبة أمم مصغرة ، من الشبان الإيطاليين واليونانيين واليهود ..

بل ومن أجلها ، قرر أن يتعلم اللغة الإيطالية ، ويتقنها ، حتى يبثها حبه ولواذع قلبه بلغتها الأم ..

وتفوق (سمير) فى دروس الإيطالية ونجح فى الحصول على منحة دراسية فى مدينة (بيروجيا) الإيطالية ، لدراسة الأدب واللغة فى جامعتها الشهيرة ..

وسافر (سمير) قبل موعد الرحلة بثلاثة أسابيع ، ليزور صديقة والده الدكتور (ماريا هايدر) ، الأستاذة بجامعة (فيينا) ، التى دعته لقضاء السهرة فى مرقص صغير ، راح يراقصها فيه بكل مرح وبراعة ، وضحكاتهما تملأ المكان ، حتى ارتطمت قدمه عفوًا براقص آخر ، التفت إليه فى حدة يسأله عن جنسيته ، وعندما أجابه بأنه مصرى ، ارتسم الغضب على وجه ذلك الراقص ، ولوّح بقبضته فى وجهه ، صائحًا فى مقت شديد :

ـ وأنا إسرائيلى ، ويومًا ما سنحتل مصرك كلها ، وعندئذ سأبحث عنك أنت بالذات ، وسط الخراب والحطام ، وأقتلك مرتين ، و ...

وقبل أن يتم عبارته ، كانت قبضة (سمير) تحطم فكّه ، وتحوّل المكان كله إلى ساحة قتال ..

وفى (بيروجيا) ، استقر به المقام عند سنيورا (كاجينى) ، التى عاملته كابنها ، وأكرمت وفادته ، وقضى فى منزلها منحته

الصيفية ، وعاد إلى القاهرة ، وكله شوق ولهفة ، للقاء حبيبة القلب (يولندا) ، وسكب عبارات الغزل الإيطالية فى أذنيها ..

ولكن كانت فى انتظاره مفاجأة مؤلمة ..

لقد رحلت (يولندا) مع (أورلاندو) ، صديقها القديم ، ليتزوجا فى (أوربا) ونسيت أمره هو تمامًا ..

وكانت الصدمة قاسية عليه ، ولكنها لم تحطمه ، وإنّما دفعته للاستزاده فى دراسته للغة الإيطالية ، حتى حصل على منحة دراسية ثانية ، فى جامعة (بيروجيا) ، التى سافر إليها فى الصيف التالى ، ليُقيم أيضًا عند سنيورا (كاجينى) ..

وذات يوم ، وهو يلعب البلياردو فى الجامعة ، التقى بشاب ذكى ، يُجيد العربية بطلاقة مُدهشة ، ويتحدّث الفرنسية والإيطالية والإنجليزية فى براعة ، إلى جانب إجادته لبعض ألعاب الحواة ، التى بهرت طلاب جامعة (بيروجيا) ، وأدهشت (سمير) للغاية ..

وقدم الشاب نفسه باسم (سليم) ، وسرعان ما توطّدت أواصر الصداقة بينه وبين (سمير) ، وأخبره أنه يعقد بعض الصفقات التجارية ، التى تتطلب سرعة التحرك وسريته ، مما يبرر اختفاءه كثيرًا عن (بيروجيا) ، ثم ظهوره المباغت فى

فترات غير منتظمة ، وهو يصطحب ـ فى معظم الأحيان ـ فتيات فاتنات ، وينفق عليهن فى سخاء واضح ..

وعلى الرغم من انبهار (سمير) بذلك الشاب فى البداية ، إلا أن شيئًا ما بعث الكثير من الحذر فى أعماقه ، فراح يتعامل معه فى بساطة ظاهرية ، وتحفز خفى ، نجح فى التعامل بهما فى مهارة ، وكأنه ثعلب ذكى ، يُجيد المراوغة والخداع ..

وذات يوم ، أخبر أحدهم (سمير) بأن هذا الشاب ليس عربيًا ، وأنه يحمل جواز سفر أمريكى ، مما ضاعف من شكوك (سمير) وحذره ، فقرر أن يُراوغ (سليم) أكثر وأكثر ، حتى يعرف ما يُخفيه ، خلف شخصيته المنمقة الجذابة ، حتى كان يوم ، قال له فيه (سليم) :

ـ تدهشنى طبيعتك جدًا يا (سمير) ، فأنت أقرب إلى الطراز الغربى ، منك إلى الطراز العربى .. كيف نشأت بالضبط ؟

وهنا وجدها (سمير) فرصة سانحة ، لمعرفة نوايا (سليم) هذا ، فاستغل معرفته الجيدة بطبائع المجتمع الأوربى واليهودى ، التى اكتسبها من أمسيات سطح منزل شارع (عبد العزيز) وابتكر قصة سريعة ، اختلقها خياله بدقّة وسرعة مدهشتين ، ليدعى أن جده الأكبر كان يهوديًا ، وأسلم ليتزوّج جدته ، ولكن

أحدًا لم ينس أصله اليهودى ، مما دفع والده إلى الهجرة للقاهرة ، حيث عرف أمه ، ذات الأصل اليونانى ، وتزوّجها ، وأنه أكثر ميلاً لجذوره اليهودية ، منه لإقامته المصرية ..

وسقط (سليم) فى فخ الثعلب ، واندفع يقول فى حماس :

ـ كنت أتوقع هذا .. أنا أيضًا لست مصريًا يا (سمير) .. أنا يهودى .

وابتسم الثعلب الكامن فى أعماق بطلنا فى سخرية ، عندما أدرك أن لعبته قد أفلحت ، ودفعت (سليم) للكشف عن هويته ..

ولكن اللعبة لم تكن تقتصر على هذا ، فبسرعة قدّم (سليم) صديقه إلى رجل آخر ، يحمل اسم (جوناثان شميت) ، ثم اختفى تمامًا بعد أن انتهت مهمته ، باختيار العنصر الصالح للتجنيد ، وجاء دور (جوناثان) لدراسة الهدف وتحديد مدى صدقه وجدّيته ..

وأدرك (سمير) أنه قد تورّط فى أمر بالغ الخطورة ، ولكنه لم يتراجع ، وإنّما مضى يقنع (جوناثان) ، الذى لم يكن سوى أحد كبار ضباط (الموساد) الإسرائيلى ، بكراهيته للنظام ، ورغبته فى العمل ضده ، حتى عرض عليه (جوناثان) العمل لصالح ما أسماه بمنظمة البحر الأبيض المتوسط ، لمحاربة

الشيوعية والاستعمار ، مقابل راتب شهرى ثابت ، ومكافآت متغيرة ، وفقًا لمجهوده وقيمة الخدمات التى يمكنه تقديمها ، فوافق (سمير) على الفور ، وبدأ تدريباته على الحبر السرى ، والتمييز بين الرتب العسكرية ، ورسم الكبارى والمواقع العسكرية ، وتحديد سُمك الخرسانة ، ثم طلب (جوناثان) من (سمير) التطوّع فى الجيش ، عند عودته إلى (مصر) ، وأعطاه مبلغًا كبيرًا من المال ، ومجلة صغيرة للإعلان عن ناد ليلى فى (روما) ، مطبوعة فيه صورته ، وهو يغنى فى بعض السهرات ، كتبرير لحصوله على المال ..

وعاد (سمير) إلى (بيروجيا) ليستقبل شقيقه الوحيد (سامى) ، الذى حضر ليقضى معه بعض الوقت ، قبل سفره إلى (النمسا) ، وقضى (سمير) فترة إجازة شقيقه كلها فى توتر شديد ، ثم لم يلبث أن حسم أمره ، فأيقظه فى آخر لياليه فى (بيروجيا) ، وقبل سفره إلى (النمسا) ، وروى له القصة كلها ، ثم طالبه بالكتمان الشديد ..

وأُصيب (سامى) بالهلع ، لِما رواه له شقيقه ، وطلب منه الحرص الزائد ، والتوجّه فور عودته إلى (مصر) ، إلى المخابرات العامة ، ليروى لها كل ما لديه ..

وكان هذا ما قرره (سمير) بالفعل ، وما استقر رأيه عليه ،

ولكنه فى الوقت نفسه ، كان يصر على ألا يُخاطر بما لديه من معلومات ، وبألا يبلغ به سوى شخص واحد فى (مصر) ..

الرئيس (جمال عبد الناصر) نفسه ..

وفور عودته إلى (القاهرة) ، وعن طريق أحد أصدقاء والده ، تم اتصاله بالمخابرات العامة ، وبمديرها (صلاح نصر) ، الذى بذل قصارى جهده ، لينتزع ما لديه من معلومات ، ولكن (سمير) أصرّ فى عناد شديد على ألا يبلغ ما لديه إلا للرئيس (جمال) شخصيًا ..

وكان اللقاء ..

* * *

استمع الرئيس (جمال) فى اهتمام شديد ، إلى القصة التى رواها (سمير) ، وشاهد مع مدير المخابرات تلك الحقيبة ، التى أعطاها (جوناثان) له بجيوبها السرية ، والعملات الصعبة ، والحبر السرى وغيره من أدوات التجسس ، التى تطلّع إليها الرئيس كلها ، ثم رفع عينيه إلى (سمير) ، وقال :

ـ أعتقد أن دورك لم ينته بعد يا (سمير) .. أليس كذلك ؟

أجابه الشاب فى كل حماس وحرارة :

- أنا رهن إشارتك يا سيادة الرئيس ، ودمى فداء لمصر .

وكان هذا إيذانًا ببدء فصل جديد من المعركة ..

الفصل الأكثر خطورة ..

لقد بدأ (سمير) يعمل لحساب المخابرات المصرية ، وتحت إشراف رجالها ، الذين وضعوا الأمر برمته على مائدة البحث ، وراحوا يقلبونه على كل الوجوه ، ويدربون الشاب على وسائل التعامل ، وأسلوب التلاعب بخبراء (الموساد) ..

وكان الشاب ثعلبًا حقيقيًا ، استوعب الأمر كله فى سرعة وإتقان ، وبرزت فيه مواهبه الشخصية ، وقدرته المدهشة على التحكم فى انفعالاته ، وبراعته فى التعامل مع العدو ، فراح يُرسل معلومات سرية عن مواقع عسكرية ومراكز قيادية ، ومعلومات عن برج (القاهرة) ، الذى كان محطة رادارية هامة ، ومواقع أخرى لها فاعليتها الاستراتيجية ، دون أن يتجاوز قدراته الحقيقية ، أو يُبدى حنكة غير عادية ، يمكنها أن تُثير شكوك العدو ..

فذات يوم ، طلب (جوناثان) من (سمير) تجنيد أحد أقاربه من العسكريين ، وكان هذا القريب رجلاً ناضجًا ، يفوق الشاب عمرًا وشخصية ، ولم يكن من المنطقى أن ينجح (سمير) فى

تجنيده ، لذا فقد اعتذر مبديًا أسبابه ، ومعلنًا عدم استطاعته هذا ، مما جعل (جوناثان) يطمئن لصدقه ، فلو استجاب لمطلب عسير كهذا ، لراود العدو الشك فى مصداقيته وإخلاصه ، وقطع علاقته به مباشرة ..

ولكن جهاز المخابرات المصرى كان يقظًا ..

و(سمير) كان ذكيًا حريصًا وكتومًا ، وربما كانت هذه الصفة الأخيرة سببًا فى العديد من المشكلات ، التى واجهها خلال مهمته هذه ، فعلى الرغم من أن والده كان يعلم بأمر ذهابه إلى المخابرات ، فور عودته من (إيطاليا) ، إلا أنهم أفهموه هناك أنها مُجرّد شبهات بلا أساس ، وأن ابنه بالغ كثيرًا فى أمر لا يستحق ، وطلبوا من (سمير) أن يُخفى عن والده تمامًا أمر عمله معهم ، حتى يُحاط الأمر بأكبر قدر ممكن من السرية ، ولكن والده لم يتقبل غيابه الطويل ، ولا عودته ذات ليلة متأخرًا ، فثار فى وجهه ، وطرده من المنزل ، والشاب يتمزق حزنًا ، ولا يستطيع تبرير موقفه أمام والده ، الذى يعتبره طيلة عمره مثله الأعلى ..

ولكن يا لعجائب الأقدار !!.. لو لم يطرد الحاج (فؤاد) ولده فى تلك الليلة ، لفشلت العملية كلها ، وربح (الموساد) اللعبة ، فسبب التأخير هو أن (سمير) كان يعد خطابًا خاصًا للعدو ،

بمعاونة ضابط اتصال من المخابرات المصرية ، ورسم فيه بعض المواقع العسكرية ، ولكنه أخطأ فى بعض الرموز العسكرية الهندسية ، فأصلحها له ضابط الاتصال فى عفوية ، بفضل خبرته ودراساته العسكرية القديمة ، مما اضطر (سمير) إلى إعادة صياغة الخطاب مرة أخرى برموزه الصحيحة ، وحمله معه ليرسله إلى (جوناثان) بالطرق المألوفة ، ولكنه وصل إلى منزله متأخرًا ، فطرده والده ، واضطر للمبيت عند زميل له ، من أصل ريفى ، وأصابته نوبة (إنفلونزا) ، بسبب انتقاله من وسط المدينة إلى (إمبابة) ، فى الليل البارد ، فسقط طريح الفراش طوال الأسبوع ، ولم يُرسل الخطاب ..

وفى الوقت نفسه ، انتبه ضابط الاتصال إلى أنه من غير الطبيعى أن يرسم (سمير) الرموز العسكرية الهندسية الصحيحة ، وهو لم يتعلمها على يد (جوناثان) وفريقه ، وأنه من المفروض أن يُرسل الرسوم غير الصحيحة ، فانطلق يبحث عنه ، ويدعو الله ألا يكون قد أرسل الخطاب ، وإلا أدرك الإسرائيليون أن هناك من يُرشده ، وفشلت العملية كلها ..

وعثر الضابط على (سمير) ، وحمد الله (سبحانه وتعالى) على أنه لم يُرسل الخطاب ، فأخذه منه ، وجعله يكتبه مرة أخرى كما كان فى البداية ، وبدون تصحيح ، وأرسله إلى (جوناثان) ..

وطوال الوقت ، كان (سمير) يشكو فى خطاباته إلى (جوناثان) من احتياجه الشديد للمال ، ويهدد بالتوقف عن العمل ، لو لم يعملوا على إخراجه من ضائقته المالية ، وفى الوقت نفسه كان يُرسل لهم عشرات المعلومات والصور ، التى سال لها لعابهم ، وجعلتهم يتأكدون من أنه عميل عظيم الأهمية ، يستحيل التضحية به ، لأى سبب من الأسباب ، فطلبوا منه استئجار صندوق بريد ، وأخبروه أنهم سيدبرون أمر تزويده بالنقود المطلوبة ..

ووصل ثلاثة آلاف دولار إلى صندوق البريد ، داخل عدة مظاريف ، جاءت كلها من داخل (مصر) ، لتعلن وجود شبكة ضخمة من عملاء (إسرائيل) ، تتحرك فى حرية داخل البلاد ، وتستنفد أسرارها وأمنها ..

وبدأت خطة منظمة للإيقاع بالشبكة كلها ، ولكن الإسرائيليين استدعوا (سمير) ، وطلبوا منه السفر بسرعة إلى (روما) ، وهناك أخضعوه لاستجواب عسير ، انتهى إلى مضاعفة ثقتهم فيه ، وعودته إلى (مصر) بأوامر وتعليمات وطلبات جديدة ، فاستأجر شقة فى شارع (قصر العينى) ، وأرسل يُطالب (جوناثان) بالمزيد من الأموال ، لتغطية النفقات ومصاريف تأسيس الشقة ، وأعلن خوفه من إرسال الأفلام التى يلتقطها

للأهداف الحيوية ، خشية أن تقع فى أيدى الجمارك ورجال الرقابة ، فأرسل إليه (جوناثان) رقم صندوق بريد فى (الإسكندرية) ، وطلب منه إرسال طرود الأفلام إليه ، وسيتولى صاحبه إرسالها إلى (جوناثان) نفسه ..

وبدأت خيوط الشبكة تتكشف شيئًا فشيئًا ، وعيون رجال المخابرات المصرية تتسع أكثر وأكثر ، فى دهشة وعدم تصديق ..

لقد كانت أضخم شبكة تجسس عرفها التاريخ ، منذ جواسيس قيصر روسيا ، فى بدايات القرن ، ومعظمها من الأجانب المقيمين فى (مصر) ، والذين يعملون بمختلف المهن ، ويحملون جنسيات مختلفة ، فمن مصمم ديكور يونانى إلى موظف فندق إيطالى ، إلى دبلوماسى ألمانى ، وجارسون ومدرس ، وممرضة ..

وأدركت المخابرات المصرية أنها أمام صيد هائل ، يستحق كل الجهد المبذول ، وقررت أن تعد خطتها بكل دقة وذكاء ، وتستعين بقدرات (سمير) الثعلبية ، لسحق الشبكة كلها دفعة واحدة ، فى أول عمل من نوعه ، فى عالم المخابرات .

وبخطة ذكيّة وأنيقة ، تحتاج إلى مقال كامل لشرحها ، استطاع (سمير) إقناع المخابرات الإسرائيلية بإرسال واحد من أخطر ضباطها إليه فى (القاهرة) ، وهو (مويس جود سوارد) ،

الذى وصل متخفيًا ، ولكن المخابرات المصرية راحت تتبع خطواته فى دقّة مُدهشة ، حتى توصلت إلى محل إقامته ، وإلى اتصالاته السرية برجلين ، وهما (رايموند باوخ) الدبلوماسى بإحدى السفارات الأوربية ، والذى ينحدر من أم يهودية ، ويتولى عملية إرسال الأفلام إلى الخارج ، مستخدمًا الحقيبة الدبلوماسية بشكل شخصى ..

وبضربة مباغتة ، ألقت المخابرات المصرية القبض على (مويس) ، وتحفظت عليه ، دون أن تنتشر الخبر ، أو تسمح للآخرين بمعرفته ، وتمت السيطرة عليه ليرسل خطاباته بنفس الانتظام إلى (الموساد) ، حتى يتم كشف الشبكة كلها ، والإيقاع بكل عناصرها ..

وكسرب من الذباب ، انطلق فى وجهه مبيد حشرى قوى ، راح عملاء الشبكة يتساقطون واحدًا بعد الآخر ، والحقائق تتكشف أكثر وأكثر ، ودهشة الجميع تتزايد وتتزايد ..

ثم كانت لحظة الإعلان عن العملية كلها ، وجاء دور الإسرائيليين لتتسع عيونهم فى ذهول ، وهم يكتشفون أن الثعلب المصرى الشاب (سمير الإسكندرانى) قد ظلّ يعبث ويخدعهم طوال عام ونصف العام ، وأنه سحق كبرياءهم بضربة ذكيّة متقنة ، مع جهاز المخابرات المصرى ، الذى دمّر أكبر وأقوى شبكاتهم

تمامًا ، وفكروا فى الانتقام من الثعلب بتصفية شقيقه (سامى) ، ولكنهم فوجئوا بأن المخابرات المصرية قد أرسلت أحد أفضل رجالها لإعادته من (النمسا) ، قبل كشف الشبكة ..

وكانت الفضيحة الإسرائيلية عالمية ، وكان النصر المصرى ساحقًا مُدويًا ، واستمع (سمير) إلى التفاصيل وهو يبتسم ، ويتناول الطعام بدعوة شخصية من الرجل الذى منحه كل حبه وثقته ، وعلى مائدة تضم الرجل وأسرته ، فى منزلهم البسيط ..

لقد دعاه الرئيس (جمال عبد الناصر) ، ليكافئه على نجاحه فى تلك اللعبة ، التى أثبت أنه ليس فنانًا عاديًا ، أو مواطنًا بسيطًا ، بل هو يستحق ، وعن جدارة ، ذلك اللقب ، الذى أطلقوه عليه فى جهازى المخابرات المصرى والإسرائيلى ، عندما تسبب نجاحه فى استقالة مدير المخابرات الإسرائيلية الجنرال (هرطابى) ..

لقب الثعلب ..

الثعلب المصرى ..

* * *

الحرب صورة

صيف 1973م .. اقتربت ساعة الحسم ، وبلغت درجة الاستعداد للمعركة القادمة حدًا مخيفًا ، وتحت ستار من السرية المطلقة ، اقتضى تصعيدًا حادًا فى خطة الخداع الكبرى ، التى اشتركت فيها كل أجهزة الدولة ، لإيهام العدو ومَن وراءه ، بأن (مصر) بعيدة كل البُعد عن التفكير فى شن الحرب ، لاسترداد الأرض السليبة ، فى تلك الفترة من الزمن .

وعلى رأس كل الأجهزة التى ساهمت فى خطة الخداع ، التى تعد واحدة من أكبر وأضخم وأبرع عمليات التمويه الاستراتيجية عبر التاريخ ، كان جهاز المخابرات العامة .

فالرجال هناك كانوا يَصِلُون الليل بالنهار ؛ لدراسة كل التفاصيل ، الكبيرة منها والصغيرة ، وحتى الدقيقة؛ لإحكام الخطة ، وغرس فكرة الخنوع والاستسلام فى ذهن العدو ، الذى لا يألوا جهدًا بدوره ، فى دراسة أدق ما يصله من معلومات ، لحسم هذه النقطة بالذات ، والتى سيتوقف عليها تاريخ ومصير المنطقة لسنوات طوال ، لا يعلم مداها إلا الله (عز وجل) .

ولأن الرجال يعلمون أن المُهمَّة ليست بالسهلة أو اليسيرة ، بل هى بالغةَ التعقيد ، إلى نحو يقارب المستحيل ؛ فقد ركَّزوا

جهودهم على الإحاطة بكل التفاصيل ، وخاصة تلك التى تتعلق بأسلوب العدو فى فحص ودراسة ما يصله من معلومات ..

وفى أساليب جمعه للمعلومات أيضًا ..

ولأن القاعدة تؤكّد أن من عرف لغة عدو اتقى شره ، فقد جمع رجال المخابرات المصرية ، كل ما أمكنهم ، طوال السنوات السابقة ، لمعرفة أسلوب تفكير العدو ودراساته ، ثم راحوا يواجهون كل ما يفعله بضربات خداعية مضادة ، وصلت إلى حد التعامل مع أدق أدق التفاصيل وأبسطها .

ومن الأمور المعروفة فى عالم المخابرات ، والتى كان يتم الاعتماد عليها بشدة ، فى ذلك الزمن ، دراسة كل ما ينشر فى صحف العدو ، حتى أخبار الفن والإعلانات المبوبة ، وصفحات الوفيات .. والاهتمام بهذا الجانب المباشر لجمع المعلومات ، يعود إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية ، عندما فوجئ (أدولف هتلر) بكتاب مطروح فى الأسواق ، من تأليف صحفى سويسرى ، يشرح بالتفصيل كل أسلحة الجيش الألمانى ، وأسماء قادة الألوية ، وقادة الأفرع ، وحتى هيئة أركان حرب (هتلر) نفسه ..

وجُنّ جنون الديكتاتور الألمانى ، وخلفه القيادة العسكرية كلها ، وصدرت الأوامر بإحضار ذلك الصحفى السويسرى إلى (ألمانيا) بأى ثمن ..

ولأن الأوامر الديكتاتورية واجبة التنفيذ ، تحت أية ظروف أو أحوال ؛ فقد تم اختطاف الصحفى السويسرى ، وإحضاره إلى (ألمانيا) ؛ ليتم التحقيق معه ، بشأن تلك الأسرار العسكرية ، وكيفية حصوله عليها .

وكانت مفاجأة مذهلة ..

فالصحفى السويسرى لم يكن جاسوسًا أو عينًا لأى جهة ، بل إنه قد جمع كل ما حصل عليه من معلومات عسكرية مخيفة ، عن طريق صفحات الوفيات بالصحف الألمانية ..

فقط صفحات الوفيات ..

لقد لاحظ أن كل نعى ينشر فى الصحف ، لوفاة أحد العسكريين ، يتضمن معلومات قيمة ، دون أن يدرى أحد ، فهذا (فريدريك أوشين) قائد السرب الثالث فى (برلين) ، وذلك الهر (فون كلايست) شقيق الكولونيل (مانهايم) ، نائب قائدة اللواء الرابع فى (فرنكفورت) ، وهناك نعى نشره اللواء المقاتل السابع والأربعون ؛ لتعزية قائده (أرنست كلايخ) .. وهكذا ..

وبجمع كل تلك البيانات ، وتفنيدها ، وربط بعضها ببعض ، وجد الصحفى السويسرى نفسه أمام رصد كامل للجيش الألمانى ، بكل تفاصيله ومواقعه .

وهنا أدركت القيادة الألمانية مدى خطورة المعلومات البسيطة فى الصحف ..

وأدركها العالم كله بعدها ..

وفى كل أنحاء العالم تقريبًا ، تم منع نشر أية بيانات عسكرية ، أو معلومات سياسية ، دون دراستها وتحليلها ، والتأكد من عدم استفادة أية جهة منها أولاً .

ومنذ ذلك الحين راحت كل أجهزة المخابرات فى العالم ، تطالع الصحف اليومية للدول الأخرى ..

وتدرس كل سطر منها .

وفى كل جهاز مخابرات ، نشأ قسم خاص بالإعلام الأجنبى ..

ولدينا فى (مصر) قسم لهذا ..

وكذلك لدى العدو ..

وكما يدرس رجالنا كل سطر ، ينشر فى صحف العدو ، فإنهم يعلمون أن العدو يدرس أيضًا كل سطر ينشر فى صحفنا ، التى يجمعها رجاله من طائراتنا ، عبر شبكة من عمال النظافة ، تنتشر فى كل مطارات العالم تقريبًا .

لهذا ؛ كان عليهم أن يستغلوا ما ينشر فى صحفهم هم إلى أقصى حد ، لتوصيل ما يرغبون من انطباعات ومعلومات إلى العدو .

أو بمعنى أدق ، كان عليهم أن ينشئوا قسمًا للإعلام المضاد ، مهمته أن يَدُسَّ ، وبمنتهى الحنكة ، والبراعة ، والذكاء كل ما يمكن أن يقنع العدو ، من خلال دراسته لإعلامنا ، بأننا نعيش حالة استرخاء كاملة ، ولا نفكر مجرد التفكير ، فى شن حرب من أى نوع .

مر عامان وبدأت مرحلة جديدة فى حرب الخداع الكبرى ..

وفى ذات الوقت ، الذى راح العدو يجمع فيه معلومات الصحف ، متصورًا أن رجاله العباقرة قادرون على سبر أغوارها ، ومعرفة الكثير والكثير منها ، كان رجالنا يقدمون له ، فى طبق العسل ، الكثير من السم ، الكافى لإرباك أفكاره ، وتوجيه أنظاره إلى آخر مكان ، يمكن أن يرى منه ولو طرفًا من الحقيقة ..

وكلما اقتربت ساعة الحسم ، كانت حرب الإعلام هذه تزداد دقة وشراسة ، والجميع يبذل جهدًا أكبر بكثير ، لخداع العدو ، وإعماء عيونه عن الضربة القادمة ..

وراح الرجال يعدون لكل شىء عدته ..

ولكل خبر مغزاه وأبعاده ..

ومن هنا كان إعلان وزارة الحربية آنذاك ، الذى يدعو الضباط للتقدم بطلبات السفر ، لأداء عمرة رمضـان ، وخبر استعداد قائد القوات الجوية لزيارة (ليبيـا) ، فـى الخـامس مـن أكتوبـر ، وغيرها من الأخبار المتناثرة ، التى تم إعدادها وتوجيهها بمهارة وعبقرية فذتين ..

ثم وصلت تلك المعلومات الجديدة ..

معلومة من قلب الجهاز الإعلامى للعدو ، من خلال واحدة مـن أقوى عميلاتنا هنـاك ، تؤكد أن الإسرائيليين قـد استعانوا بخبير نفسى ؛ لدراسـة كل مـا ينشر من صور ، لرئيس الجمهوريـة (أنور السادات) ، ووزير الدفاع المصرى ، وقادة الجيش ، لمعرفة ما إذا كانت انفعالاتهم توحى باستعدادهم لشن حرب ما أم لا .

وكان هذا يعنى تغييرًا فى نظام الرصد وجمع المعلومات ..

وتغييرًا حتميًا مضادًا ، لأسلوب رجالنا ..

وعلى الفور ، تم عقد اجتمـاع عـاجل ؛ لدراسـة التطـورات الجديدة ، وفيه قال رئيس وحدة الإعلام المضاد :

ـ من الواضـح أن الإسرائيليين ما زالوا قلقين يا سادة ، وهذا يعنى أن خطتنا لم تبلغ منتهاها وهدفها الأخير بعد .

قال أحد الرجال فى اهتمام :

ـ ويعنى أن علينا تطوير أسلوبنا أيضًا .

أشار رئيسه بسبَّابته ، قائلاً :

ـ بالضـبط .

ثم ابتسم ، مستطردًا :

ـ الإسرائيليون لجئوا إلى هذا الأسلوب ، كوسيلة لتطوير حرب المعلومات لديهم ، وأفضل ما نتمتـع بـه نحن هو أنهم يجهلون تمامًا أننا نعلم هذا ، مما يعنى أن غرورهم سيدفعهم إلى تصديق كل ما يخبرهم به محللهم النفسى ، بشأن رئيسنا وقادتنا .

واتسعت ابتسامته ، وهو يميل نحو الرجال ، مضيفًا :

ـ وهذا يعنى أننا نمتلك نقطة تفوق .

وبعد اجتماع طال حتى لحظات الفجر الأولى ، وضع الرجال النقاط فوق الحروف ، وحددوا الخطوات اللازمة ؛ لمواجهة الموقف ..

فى البداية ، كان عليهم معرفة شخصية ذلك الخبير النفسى ، الذى تستعين به المخابرات الإسرائيلية ، وطبيعة دراسته ، والشهادات التى حصل عليها ، والمدرسة النفسية التى ينتمى إليها .

وقبل أن ينتصف نهار اليوم نفسه ، كانت عميلة المخابرات المصرية ، فى جهاز الإعلام الإسرائيلى ، قد بدأت ؛ بناءً على برقية شفرية عاجلة ، بجمع كل المعلومات المطلوبة ..

ومع الحصول على البيانات الرئيسية للخبير النفسى الإسرائيلى ، بدأ عدد من عملاء المخابرات فى الانتشار ، فى بقاع الأرض المختلفة ، لجمع بقية التفاصيل ..

وفى اليوم السادس بالتحديد ، كانت أمام الرجال صورة كاملة للخبير النفسى الإسرائيلى ، بأدق أدق تفاصيل حياته ..

وفى حزم ، قال قائد المجموعة :

ـ أعتقد أن ما نحتاج إليه الآن هو خبير نفسى مصرى .

وحتى ما بعد منتصف الليل بساعتين كاملتين ، راح الرجال يراجعون أسماء كل الخبراء النفسيين ، الذين يمكن الاعتماد عليهم ، مع توافر الثقة التامة بوطنيتهم وأخلاقياتهم ، واستعدادهم التام لبذل كل نفيس ، فى سبيل الوطن ..

ثم وقع الاختيار على الدكتور (م .ش) الخبير النفسى ..

وفى الصباح المبكر ، وعندما غادر الدكتور (م .ش) منزله ، فى طريقه إلى عمله ، اعترض شاب هادئ وسيم طريقه ، بابتسامة بسيطة ودودة ، وهو يقول فى بساطة :

ـ دكتور (م) ، إننا بحاجة إليك .

ارتبك الرجل ، وتراجع خطوة فى قلق حذر ، وهو يتساءل :

ـ أنتم؟ ومن أنتم بالضبط ؟

اعتدل الشاب ، وهو يجيب فى حزم :

ـ المخابرات يا دكتور (م) ، المخابرات العامة المصرية .

اتسعت عينا الرجل عن آخرهما ، من فرط المفاجأة ، واستعاد ذهنه تلك الشائعات ، والأفكار الخاطئة الهدّامة ، التى ارتبطت فى زمن ما ، باسم المخابرات العامة ، وشعر بقلبه يخفق فى عنف متوتر ، حتى أضاف الشاب فى حزم أكبر:

ـ (مصر) بحاجة إليك يا دكتور .

وكأنما نطق الشاب بالكلمة السحرية ، فى عبارته ، الأخيرة هذه ، فقد انعقد حاجبا الدكتور (م . ش) ، واعتدلت قامته ، وتبخّرت كل مخاوفه وتوتراته دفعة واحدة ، وحمل صوته كل الحزم ، والحسم ، والاستعداد ، وهو يجيب :

ـ وأنا رهن إشارتها .

وبسيارته الخاصة ، تبع الدكتور (م .ش) سيارة الشاب ، حتى مبنى المخابرات العامة المصرية ، حيث التقى بالسيد (ع) ، قائد

المجموعة ، الذى شرح له الموقف ـ باختصار شديد ؛ بحيث لا يكشف أية حقائق زائدة ـ قبل أن يعتدل ، قائلاً :

ـ ما نطلبه منك فعليًا ، هو أن تدرس أولاً كل ما يتعلق بالخبير النفسى الإسرائيلى ؛ لكى تقرر كيف يمكننا خداعه ، عن طريق أسلوبه نفسه .

انعقد حاجبا الدكتور (م .ش) ، وداعب لحيته القصيرة قليلاً ، قبل أن يقول فى قلق :

ـ هذا ليس بالأمر السهل .

بدا التوتر على وجوههم لحظة ، ولكنه استدرك فى حزم :

ـ ولكنه ليس مستحيلاً .

وبحماس أدهش الجميع ، وعقل لا يكل أو يمل ، انهمك الدكتور (م . ش) فى فحص أوراق الخبير النفسى الإسرائيلى ، ومراجعة ميوله ، وشهاداته ، والمدرسة النفسية التى ينتمى إليها ، وما يستتبع هذا من أساليبه فى فحص وتحليل الصور ، وردود الفعل النفسية لأصحابها ..

ولقد احتاج منه هذا إلى أسبوع كامل ..

أسبوع كان يقضى خلاله ما يزيد على ثمانى عشرة ساعة ،

وسط الأوراق ، والصور ، والملفات .. ولقد أرسلت عملية المخابرات المصرية مجموعة من الصور ، وتقارير الخبير النفسى الإسرائيلى عنها ، مما ساعد كثيرًا فى فهم أسلوبه ، ونسق تفكيره ، ونظام تحليله .

وفى النهاية ، وضع الدكتور (م .ش) دراسة كاملة حول الموقف ، واجتمع بالسيد (ع) ، قائد المجموعة ، وقال فى حزم :

ـ إننا نحتاج إلى صورة ، تضم الرئيس (السادات) ، ووزير الدفاع ، وعددًا من قادة الجيش .

وبعد أن شرح ما لديه ، انتقلت المُهِمَّة إلى جهاز المخابرات الذى قام بالاتصال بالرئيس مباشرةً ، وشرح له الموقف كله ، وبكل التفاصيل .

ولقد استوعب الرئيس (السادات) الأمر ، واقتنع به تمامًا ، ثم اجتمع بقادة الجيش ، ووزير الدفاع ، وراح يضع معهم خطة تلك الصورة المطلوبة .

ثم تم استدعاء الدكتور (م .ش) ..

وفى مقر رئاسة الجمهورية ، اجتماع الخبير النفسى المصرى مع الرئيس ، والوزير ، والقادة ، وشرح لهم المطلوب منهم بالتفصيل الدقيق .

وفى أول مناسبة ، ظهر الرئيس ، ووزير الدفاع ، والقادة العسكريون معًا ، وقد بدا عليهم الهدوء والاسترخاء ، وشفت حركاتهم عن البساطة واللامبالاة ، شأنهم فى ذلك شأن قادة تفصلهم عن القتال سنوات وسنوات .. والتقط الصحفيون الصورة .

وكالمعتاد ، تم نشرها فى صدر كل الصفحات القومية ، فى صباح اليوم التالى .

كان هذا فى الثلاثين من سبتمبر 1973م ..

وفى اليوم نفسه ، كانت الصور كلها أمام الخبير النفسى الإسرائيلى ، ورئيسه يقول فى حزم صارم :

ـ أريدك أن تدرس هذه الصور جيدًا ؛ فهى أول مجموعة من الصور ، تضم الرئيس المصرى ، ووزير الدفاع ، وقائد الطيران ، ومعظم قادة الجيش ، منذ فترة طويلة ، وأريد تقريرًا دقيقًا مفصلاً عنها ، فى أسرع وقت ممكن ، يحمل جواب السؤال الأكثر خطورة ، منذ حرب يونيو 1967م .. هل يفكر المصريون فى شن حرب ثأرية الآن ؟ أم ماذا ؟

التقط الخبير الإسرائيلى مجموعة الصور ، وهو يضع منظاره على عينيه ، قائلاً فى ثقة ، اقتربت من حد الغرور :

ـ هذا ليس بالأمر العسير .

وبنفس الثقة ، راح الخبير الإسرائيلى يدرس مجموعة الصور ، ويفحص الوجوه ، والحركة ونظرات العيون ، وكل ما يمكن أن يفيد ما يبحث عنه ..

وفى مساء الثلاثاء ، الثانى من أكتوبر 1973م ، طلب الخبير النفسى مقابلة رئيسه ، وما إن دلف إلى مكتبه ، حتى وضع أمامه تقريرًا من نسختين ، وربَّت عليه بكفه ، بمنتهى الثقة والحماس ، قائلاً :

ـ النتائج كلها سلبية .

هتف رئيسه فى اهتمام بالغ :

ـ أأنت واثق ؟

أومأ الخبير الإسرائيلى برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ دون أدنى شك ، فطبقًا لهذه الصور ، لا توجد أدنى نية ، لدى الرئيس المصرى ، ووزيره ، وقادة جيشه ، لشن أية حروب على خط الجبهة ، بل لا يبدو أن فكرة الحرب حتى تروق لهم .

تراجع رئيسه ، وهو يسأله بانفعال :

ـ هل كتبت هذا فى تقريرك ؟

ابتسم الخبير الإسرائيلى فى ثقة أكبر ، قائلاً :

ـ بالطبع .. هل سبق أن أخطأت تقدير الأمور ..

اعتدل رئيسه ، وهو يقول فى حزم :

ـ مطلقًا .

وقبل مضى ساعة ، كان يرسل صورة من التقرير إلى كل الجهات المعنية ..

رئاسة الوزراء .. وزارة الدفاع .. وكذلك الرئيس الإسرائيلى نفسه ..

ثم نام الرجل قرير العين ، هادئ البال ..

بل نام النظام العسكرى الإسرائيلى كله ، مطمئنًا إلى أن المصريين يخشون المواجهة المباشرة ، مع الجيش الإسرائيلى ، الذى تؤكد كل الدعايات الصهيونية أنه جيش خارق لا يقهر ..

ثم استيقظ الجميع ، ظهر السادس من أكتوبر ..

استيقظ العالم كله ، مع هدير النسور المصرية ، التى تعبر خط قناة (السويس) ، على طول الجبهة ، وتدك مطارات وحصون العدو فى (سيناء) ، وتسحق خط (بارليف) ، الذى قيل أنه أقوى خط دفاعى عرفه تاريخ الحروب ..

وأصابت الصدمة الجميع فى عنف ..

وبخاصة ذلك الخبير النفسى الإسرائيلى ، الذى انهار تمامًا فى مكتبه ، وهو يصرخ :

ـ مستحيل !.. مستحيل أن أكون قد أخطأت .

ولكنه لم يدرك أبدًا ، وربما حتى لحظة كتابة هذه السطور ، أنه كان ضحية حرب إعلامية عبقرية مضادة ، وأسير فخ تم إعداده بمهارة منقطعة النظير ..

فخ صنعه رجال لا يؤمنون بالمستحيل ..

رجال يعلمون أن الحرب خدعة ..

وصورة ..

* * *

الخطـر الأحمـر

فى الخامس والعشرين من سبتمبر 1973م ، بدأ العد التنازلى بالفعل ، استعدادًا لساعة الصفر ، فى السادس من أكتوبر التالى ، ولحظة المواجهة الكبرى ، التى تستعد لها كل أجهزة الدولة ، منذ عدة سنوات .

أقوى خطة خداع عسكرى بلغت مرحلتها الأخيرة ، لإقناع العدو بأن فكرة الحرب لم ترد لحظة واحدة ببال القيادة المصرية السياسية ، أو العسكرية .. الجميع تأهب وتحفز ، وراح يمضى فى عمله بكل الحماس ، والقوة ، والإصرار ، والقلوب كلها تخفق بالحزم والأمل ، و .. وفجأة وصلت تلك المعلومة المخيفة إلى جهاز المخابرات العامة المصرية .. أحد الجنرالات السوفييت ، هو فى حقيقة أمره عميل للمخابرات الإسرائيلية !

معلومة بدت أشبه بقنبلة مدوية ، وسط صحراء من الصمت والتكتم ، والعمل المثمر الطويل .

فعلى الرغم من أن الرئيس (السادات) قد اتخذ قراره الحاسم بالفعل ، منذ عدة أشهر ، بطرد وإنهاء خدمة كل الخبراء السوفييت فى (مصر) .. فإن الجيش لا يزال يعتمد على الأسلحة والذخائر الروسية ، كما أن الضرورات السياسية ، والعسكرية أيضًا ، كانت

تحتم أن يتم إبلاغ السوفييت بموعد الهجوم المصرى الوشيك قبل اندلاعه بعدة ساعات على الأقل .. ووجود جاسوس إسرائيلى وسط السوفييت ، يعنى خطر تسرب الخبر إلى الإسرائيليين الذين سيهرعون لرفع حالة الاستعداد إلى أقصاها حتمًا ؛ مما يعرض عملية العبور لخطر داهم لا يعلم مداه سوى الخالق عز وجل .

وفى الوقت نفسه ، لم يكن رجال المخابرات المصرية يمتلكون الأدلة الكافية ، لإقناع القيادة السوفيتية بالأمر ، فى الوقت المناسب ..

ولأن الأمر أخطر من أن يناقش بواسطة المخابرات العامة وحدها ؛ كان من المحتم عرضه على أكبر قيادة سياسية وعسكرية فى البلاد ..

على رئيس الجمهورية شخصيًا ..

وبهدوئه المعتاد ، وبينما ينفخ دخان غليونه الشهير ، استمع الرئيس السادات إلى المعلومة الخطيرة ، دون أن يقاطع مدير المخابرات بحرف واحد ، وما إن انتهى هذا الأخير من حديثه ، حتى هز الرئيس رأسه ، وأكد أن الأمر خطير ومخيف .. ففى حالة عدم قدرتنا على تأكيد عمل ذلك الجنرال السوفيتى لحساب الإسرائيليين ، بأدلة قوية موثقة ، سنكون مضطرين إما إلى

التغاضى عن إبلاغ السوفييت بموعد الهجوم ، بكل ما يمكن أن يجره هذا من مشكلات سياسية وعسكرية مستقبلية ، خاصة مع اندلاع القتال ، واحتمالات احتياجنا لقطع غيار أو ذخائر سوفيتية ، وإما إلى تأجيل ساعة الصفر حتى يتم إثبات عمالة الجنرال السوفيتى ؛ مما سيضيع توقيتًا مدروسًا ، توصل إليه الخبراء بعد جهد شاق طويل ..

وبعد ثلاث دقائق كاملة ، ظل الرئيس صامتًا ، ينفث دخان غليونه ، وسط تفكير عميق ، قبل أن يقول فى صرامة حازمة :

ـ لابد من حل ثالث ، حل لا يضطرنا إلى أى من الحلين السابقين .

ثم مال نحو مدير المخابرات مضيفًا :

ـ حل يبعد ذلك الجنرال السوفيتى عن عمله ، حتى ساعة الصفر .

والتقط مدير المخابرات طرف الخيط !

وفى اجتماعه مع رجاله ومعاونيه ، بعد ساعة واحدة ، أبلغهم ما طرحه السيد الرئيس ، ثم طلب منهم التحرك فى حدوده ، وفى نهاية الاجتماع أسند المهمة كلها إلى واحد من أبرع وأكفأ وأخبث ثعالب المخابرات المصرية ..

إلى (أ . ص) ..

وبعدها لم يغمض لرجل المخابرات المحنك جفن ، طوال ساعات عشر ، قضاها يفكر بلا توقف ، ويدرس ملفات جنرالات السوفييت صفحة صفحة ، وجملة جملة ، وحرفًا حرفًا ، خاصة ملف الجنرال العميل الذى سنطلق عليه هنا اسم (سيرجى) ، وهو بالطبع ليس اسمه الحقيقى ..

ومع نسمات الفجر الأولى ، وقرّ فى نفس .. (أ.ص) أمر واحد ..

الحل يكمن فى مزيج أيضًا من السياسة والعسكرية ..

وبعد حلاقة سريعة ، وقدح قهوة مركز ، وبعض التنظيم فى الأوراق والملفات طلب (أ.ص) مقابلة رئيسه ، وطرح أمامه فكرته كاملة .

ومن الواضح أنها كانت كالمعتاد ، خطة بسيطة وعبقرية للغاية ، حتى إن مدير المخابرات قد حملها بنفسه ، بعد ساعة واحدة فقط ليعرضها على السيد رئيس الجمهورية ، الذى طالعها فى عناية شديدة ، وهو ينفث دخان غليونه فى بطء وصمت ، قبل أن يرفع عينيه إلى المدير ، قائلاً :

ـ غدًا أول أيام رمضان .. كل عام وأنتم بخير .

ابتسم المدير فى هدوء ، قائلاً :

- وسيادتكم بخير يا فخامة الرئيس .

تنهد الرئيس فى عمق ، وتراجع فى مقعده ، وغمغم ، وكأنه يحدث نفسه :

- أظنها بشارة خير .

ثم عاد يدير عينيه إلى المدير فى حزم ، وهو يغلق ملف الخطة ، قائلاً :

- على بركة الله .

وكانت عبارته هى إشارة البدء !

وفى اليوم التالى مباشرة ، وعن طريق القنوات الدبلوماسية المصرية ، تلقت القيادة السوفيتية خطابًا رسميًا يقول فيه المصريون أنهم يعانون مشكلة عويصة فى سلاح الطيران تحتاج إلى خبراء على أعلى مستوى ، ويطالبون السوفييت بإرسال لجنة عليا ، يرأسها جنرال سوفيتى لمناقشة المشكلة مباشرة ، مع القيادة العسكرية المصرية .. ولقد أدهش الخطاب السوفييت بالطبع !

كيف يطرد المصريون الخبراء السوفييت ، ثم يعودون ، لطلب لجنة منهم لمعالجة مشكلة لم يفصحوا عنها فى خطابهم ؟!

ولكن الدهشة لم تمنع السوفييت من أن ينفخوا أوداجهم ، ويبتسمون فى زهو شامت وهو يعلنون موافقتهم على المطالب المصرية ، التى تؤكد حدوث خطأ لا يغتفر ، فى طرد كل الخبراء السوفييت فيما سبق ..

والواقع أن هذا الخطاب كان ضربة معلم بحق .. فعلاوة على أن الجنرال العميل كان بالتأكيد أفضل خيار سوفيتى لرياسة اللجنة المرسلة إلى (مصر) ، كان الخطاب نفسه يوحى ، بأسلوب غير مباشر بأن سلاح الطيران المصرى ليس كفئًا ، فى الوقت الحالى ، لشن أى هجمات حاسمة ، على الجانب الإسرائيلى .

وفى الوقت نفسه ، ولتأكيد الأمر ، وتعميق الفكرة ، أشيع أمر المشكلة التى يعانيها سلاح الطيران المصرى ، على نحو يوحى بأنه معلومة سرية ، تسربت دون وعى .

ولأن السوفييت كانوا يتلهفون لسماع أمر المشكلة ، التى تثبت للمصريين أنهم قد أخطئوا بطرد خبرائهم ، فقد استقبلوا الأمر بارتياح ، وصدقوه على الفور ، وصدقه بالتالى جنرالهم ، الذى يعمل لحساب الإسرائيليين ..

وبسرعة ، وقبل مرور ثلاثة أيام تم تشكيل اللجنة المطلوبة ،

برياسة الجنرال (بريماكوف) ، وقام الملحق العسكرى للسفارة السوفيتية بعرض أسماء أعضاء اللجنة على القيادة المصرية ، التى اعترضت على اسم (بريماكوف) بسبب احتكاك حدث بينه وبين بعض قادة الطيران المصريين ، منذ فترة طويلة .

والبراعة الحقيقية تكمن فى رفض (بريماكوف) دون ترشيح (سيرجى) كبديل ، ولكن خبراء المخابرات المصرية ، الذين استشارهم (أ.ص) ، قبل أن يضع خطته ، كانوا قد أكدوا أنه لا يصلح لرئاسة لجنة كهذه سوى رجلين فقط ، من وسط كل الجنرالات السوفييت إما الجنرال (بريماكوف) ، أو الجنرال (سيرجى) .. وهذان الاسمان بالطبع ليسا أسميهما الحقيقيين .

ولم يمض يوم واحد ، حتى أعلن الملحق العسكرى السوفيتى اسم رئيس اللجنة العاجلة الجديد ..

وتنفس الجميع الصعداء ، فى حين ابتسم (أ.ص) فى ظفر واضح واثق ، وهو يقرأ اسم الجنرال (سيرجى) !

وفى الثانى من أكتوبر 1973م ، وصلت اللجنة إلى مطار (القاهرة) ، فى ملابس مدنية ، ودون احتياطات أمن معلنة ؛ حفاظًا على سرية الأمر ، كما أكد رجال الأمن المصريون ، لنظرائهم السوفييت ..

وفى مساء اليوم نفسه ، التقى (أ.ص) بالجنرال (سيرجى)

شخصيًا ، وقدَّم نفسه باعتباره أحد خبراء الطيران المصريين ، ولأنه طيار سابق ، فقد تمكن من إقناع الجنرال السوفيتى بهويته الزائفة ، من خلال بعض الأحاديث والمصطلحات الخاصة السريعة .

ولقد كان الجنرال السوفيتى شديد اللهفة على بدء مهمته ، للاطلاع على طبيعة المشكلة العويصة ، التى تواجه سلاح الطيران المصرى ، لينقل تفاصيلها بالطبع لمن ينتظرونه على حذر فى (تل أبيب) !

ولكن القيادة المصرية بدت هادئة ، متراخية توحى بالإهمال واللامبالاة ، وهى تؤجل عرض الأمر ليومين متتالين وكأنما لا أحد فى (مصر) كلها يسعى لحرب أو قتال ، أو لأدنى استفادة من سلاح الطيران المصرى فى الوقت الحالى .

ومن المؤكد دون أدنى شك أن السوفيتى قد نقل هذه الصورة المقصودة جدًا ، إلى من يعمل لحسابهم فى (إسرائيل) .. وكان هذا أحد أهداف الخطة العبقرية ..

وفى اليوم الرابع من أكتوبر 1973م ، أعن (أ.ص) للجنرال (سيرجى) ، بابتسامة هادئة كبيرة ، أن القيادة المصرية مستعدة لبدء الاجتماعات بشأن المشكلة الوَهمية ، التى تواجه سلاح الطيران المصرى .

وفى نفس اللحظة ، كان الرئيس السادات يرسل مندوبًا خاصًا إلى الاتحاد السوفيتى لإبلاغ القيادة السوفيتية بموعد شن الهجوم المرتقب ، فى السادس من أكتوبر ، أى بعد يومين فقط.

وفى نفس اللحظة التى وصل فيها المندوب المصرى إلى (موسكو) ، كان بعض رجال الطيران المصرى يلتقون سرًا باللجنة السوفيتية ، وهم يعلمون جيدًا ما ينبغى طرحه أو قوله ، للإيحاء بوجود مشكلة ما فى السلاح الجوى بالفعل .

ولكن الأمر لم يكن سهلاً بالتأكيد ؛ إذ كان من الضرورى إيجاد مشكلة قوية ، يمكن أن تقنع الخبراء السوفيت ، وتبرر طلب إرسال لجنة عاجلة .

ولقد عكف خبراء الطيران المصريون على دراسة الموقف بمنتهى الدقة ، حتى افتعلوا على الورق مشكلة وهمية منطقية ، فى الطائرات السوفيتية الصنع ، حتى إن الخبراء صدقوا إمكانية حدوثها ، وأبدوا دهشتهم من ظهورها فى تلك الطائرات بهذه السرعة !

ولكن (أ.ص) لم يكن يشعر بأن كل هذا يكفى ؛ لأنه لا يزال هناك احتمال قائم ، بأن يتم إعلام (سيرجى) عبر الملحق العسكرى السوفيتى بموعد حرب أكتوبر قبل لحظة الصفر ، باعتباره أحد جنرالات السوفييت حتى لو كان خارج بلاده ..

لذا ؛ فقد كانت خطته تتضمن استبعاد الجنرال (سيرجى) من الساحة كلها ، منذ إعلام السوفييت ، وحتى لحظة الصفر .

وفى أثناء حفل العشاء اليومى ، طلب الجنرال (سيرجى) كأسًا من الفودكا وأفرغها فى جوفه دفعة واحدة كعادته ، فإذا بوجهه يحتقن ، مع ابتسامته الكبيرة العريضة ، وهو يتحدث مع (أ.ص) فى حماس محاولاً انتزاع بعض المعلومات منه ، حول نيات القيادة المصرية ، و ..

وفجأة احتقن وجه الرجل أكثر وزاغت عيناه ، وتراجع فى مقعده ، وهو يلهث على نحو غير طبيعى ، وأمسك ساعده اليسرى فى ألم واضح ، وهو يصيح :

ـ ما .. ماذا يحدث لى ؟!

وبسرعة مدهشة ، ظهر الطبيب المصرى واندفع يفحص الجنرال (سيرجى) ويحل أزرار عنق قميصه ، وهو يسأل زملاءه عن حالة قلبه وصدره .

وخلال دقيقة واحدة ، وصلت سيارة إسعاف مجهزة ، تم نقل الجنرال (سيرجى) إليها ، مع بعض رفاقه ـ الذين أصابهم الذعر بشأنه ـ إلى مستشفى رعاية الحالات الحرجة فورًا ، وتم وضعه

على فراش طبى مجهز ، وتوصيل الأجهزة وأنابيب الفحص والتغذية إلى جسده بأقصى سرعة ممكنة ..

وفى نفس اللحظة ، وصل مندوب إلى السفارة السوفيتية ، ليعلم الملحق العسكرى أن الجنرال السوفيتى قد أصابته نوبة قلبية مباغتة ، وهو يتناول عشاءه ..

ولقد كان (أ.ص) على حق تمامًا فى خطته ، فقد استقبل الملحق العسكرى السوفيتى الخبر فى هلع ، وأكد ضرورة مقابلة الجنرال (سيرجى) لأنه يحمل له رسالة دبلوماسية عاجلة ، من القيادة فى (موسكو) ..

لم يحاول أحد منع الملحق العسكرى من الذهاب إلى مستشفى المعادى لرؤية الجنرال ، الذى بدا غائبًا عن الوعى ، ومحاطًا بقدر مدهش من العناية والرعاية ، وأكد له الأطباء أن حالته تتحسن ، وأنه سيعود إلى وعيه خلال ساعات قليلة .

ولسبب ما ، أو ربما كقاعدة عامة ، أصر الملحق العسكرى على استدعاء طبيب قلب شهير من (موسكو) ، لمتابعة حالة

الجنرال ، ما دام نقله من المستشفى يعرض حياته كلها لخطر الموت كما أكد كل الأطباء المصريين المعالجين ..

ولقد وافق الجميع بالطبع على حضور طبيب السوفيتى ، الذى حُدِّدَ لوصوله ظهر يوم السادس من أكتوبر .

وبالطبع تأجل نظر المشكلة الوهمية لحين تعافى الجنرال (سيرجى) .

وفى القيادة الإسرائيلية ، استقبل الجميع الموقف بضيق شديد بعد أن انقطعت الأخبار التى كان يرسلها الجنرال ؛ بسبب النوبة القلبية المباغتة (الزائفة) التى صنعها العقار المدهش ، الذى تمت إضافته إلى كأس الفودكا اليومى للجنرال ..

وكن الانطباع العام كان قد استقر فى وجدان الإسرائيليين ، وواكب هواهم وميولهم ، وهم يرتكنون إلى وجود مشكلة فى سلاح الطيران المصرى ، ليوقنوا أن الحرب غير واردة على الإطلاق ، فى الوقت الحالى على الأقل !

وهذا ما أكدته تقاريرهم الرسمية ، للقيادة السياسية فى (تل أبيب) ، فى صباح السادس من أكتوبر 1973م .

وفى الثانية ظهرًا من ذات اليوم ، أثبت سلاح الطيران المصرى للعالم أجمع أنه لا يعانى أدنى مشكلة ، وطائراته كلها تعبر قناة السويس فى لحظة واحدة ، وهديرها يصم الآذان ، لتقصف طائرات ومطارات ومعسكرات ومواقع العدو ، وتنسف استحكاماته المتقنة فى خط (بارليف) ، وتمهد الطريق لعبور أخطر وأصعب مانع مائى عرفه التاريخ ، وتحطيم أقوى خط دفاعى على طول الزمان ، ويتم رفع العلم المصرى على الضفة الشرقية لقناة (السويس) وبدء الخطوة الأولى لتحرير واستعادة (سيناء) .

وعندما استعاد الجنرال (سيرجى) وعيه ، صناعيًا أيضًا ، فى مساء السادس من أكتوبر كانت بانتظاره أكثر من مفاجأة !

كان فى انتظاره خبر اندلاع الحرب فى الثانية ظهرًا ..

وخبر ضربة النصر المذهلة التى قام بها سلاح الطيران المصرى ، والتى تم تخطيطها ، وإعدادها ، وتنفيذها ببراعة وعبقرية مذهلتين ، أدهشتا العدو والصديق .

وخبر عدم وصول طبيب القلب السوفيتى الشهير ، بسبب إغلاق المطارات مع بدء الحرب !

وكان فى انتظاره أيضًا الملحق العسكرى السوفيتى ، الذى يحمل خطابًا جديدًا ـ غير ذلك الخطاب الذى كان يحمله ، عند بدء النوبة القلبية المصطنعة ـ خطابًا أرسلته القيادة السوفيتية ، بعد أن حصل المصريون على الأدلة المطلوبة ، وأبلغوها بها ، لتأكيد خيانة الجنرال وعمله لحساب الإسرائيليين ..

ولأن السوفيت لا يتهاونون أو يتسامحون فى مثل هذه الأمور ؛ فقد كان قرارها حاسمًا ، حازمًا ، صارمًا ، وسريعًا ..

إلقاء القبض على الجنرال السوفيتى ، فى سرية تامة ، والتحفظ عليه بمعرفة جهات الأمن المصرية ، لحين ترحليه لمحاكمته فى (موسكو) .

وبينما كان الرئيس (السادات) يلقى خطبته الشهيرة ، فى مجلس الشعب المصرى ، ويوزع الأوسمة والرتب والنياشين ، على قادة الجيش المصرى المنتصر ، كان الجنرال (سيرجى)

الذى ثبتت إدانته مقيدًا بالسلاسل الحديدية فى زنزانة حقيرة فى (سيبريا) ، فى انتظار تنفيذ الحكم بإعدامه بتهمة الخيانة ..

وكعادة السوفييت فى سرية تامة ، ودون إعلان !

أما فى (مصر) فقد انشغل (أ.ص) فى متابعة أخبار النصر ، وهو مطمئن إلى أن الخطر الذى كان يسعى خلفه قد انتهى أمره تمامًا ..

الخطر الأحمر !

* * *

السر ..

انتصف عام 1973م ، أو كاد ، وكل (مصر) تحيا فى توتر كامل ، فبعد شعور مبهم بأن القيادة العسكرية قد استمرت فى حالة اللاسلم واللاحرب ، وارتاحت لاستقرار الأوضاع فى الجبهة ، بعد بناء حائط الصواريخ ، وإيقاف حرب الاستنزاف ، وقبول مبادرة (روجرز) ، وانشغال الرئيس (السادات) بقضية الاستقرار على مقعد الحكم ، وتأكيد وجوده ، بعد سنوات طوال ، لم يكن المصريون يتصورون خلالها أن شخصًا سوى الزعيم الراحل (جمال عبد الناصر) يمكن أن يحتل منصب الرئيس ، ليقود الشعب كله إلى الانتصار على العدو ، الذى أذاقنا هزيمة مريرة فى عام 1967م ، راح يتباهى بها طوال الوقت ، ويعلن فى كل مناسبة وبلا مناسبة ، أنه يمتلك جيشًا أسطوريًا ، لا يقهر أبدًا ..

ومن ناحية أخرى ، بدت كل القيادات السياسية والعسكرية هادئة مسترخية بالفعل ، وكأنما تؤكد ما يدور بأذهان الشعب ، وعمقه أكثر وأكثر ، مع كل أحاديثها وتصريحاتها ، التى اتسمت بالمسالمة ، والابتعاد تمامًا عن النبرة الصارمة أو الساخنة ، أو حتى عن مناقشة القضايا الحاسمة ، على الصعيد العسكرى .

ولكن تحت القناع الهادئ كانت هناك صورة مختلفة تمامًا .

صورة لبحر متلاطم ، فى النشاط والحيوية ، وبركان ثائر تحت السطح ، تغلى حممه وتفور ، استعدادًا للانفجار العارم عندما تحين اللحظة المناسبة .

وهناك فى كوبرى القبة وداخل مبنى المخابرات العامة المصرية ، كان النشاط قد بلغ ذروته ، والتوتر تصاعد إلى قمته ، مع بدء العد التنازلى الذى لا يدركه سوى فئة محدودة ، فى أعلى القيادات ، استعدادًا للمواجهة الكبرى ، والحرب الشاملة المنتظرة ..

وكانت أمام الرجال عشرات المشكلات والقضايا ، التى تحتاج إلى تحركات قوية متصلة ، وحلول عاجلة مبتكرة ، حتى يمكن تحقيق كل الأهداف المطلوبة للمواجهة .

كان عليهم أن يقنعوا العدو بأن (مصر) لا تفكر ، مجرد التفكير ، فى شن أية حروب ، لا فى الوقت الحالى ، أو حتى فى المستقبل القريب وأن يخفوا كل أسرارهم عنه .

ويكشفوا كل ما يمكنهم من أسراره ، فى الوقت نفسه .

وتحقيق هذه الأهداف كان يحتاج إلى كل الجهد ..

وكل الوقت ..

وكان أخطرها وأهمها ، من وجهة نظر الجميع ، هو خطة الخداع الرئيسية ..

لابد من اقتناع الإسرائيليين بما اقتنع به الشعب المصرى كله ، بحالة الركود ، والسكون ، واستمرار اللاسلم واللاحرب ، وخوف القيادة السياسية والعسكرية من المواجهة المباشرة ، بأية صورة من الصور ..

وفى سبيل هذا ، صنع الرجال عشرات المحاور والخيوط .

كل شىء تمت دراسته بمنتهى الدقة والعناية ..

كميات المواد التموينية ، ومعدات استيرادها ..

المخزون السلعى والاستراتيجى ..

تحركات وإجازات ضباط الجيش وجنوده ..

وحتى ابتسامة الرئيس والوزراء وقادة الجيش ، وصورهم فى المناسبات الرسمية ، تمت دراستها ، بحيث توحى بالهدوء والاسترخاء ، حتى يتصور العدو أن الترهل قد أصاب القادة ، ولم تعد فكرة الحرب واردة فى الأذهان !

ولكن العدو أيضًا كان يعمل بنفس الهمة والنشاط لكشف الحقائق ، وتحديد المواقف والأهداف ..

وكانت له عيونه ، خارج (مصر) وداخلها ..

ومن بين تلك العيون كان (خالد) ..

شاب فى الثلاثين من عمره ، من أسرة متوسطة ، مثل كل أو معظم الأسر المصرية فى ذلك الحين ، والده مدير بإحدى المصالح الحكومية ، وأمه ربة بيت بسيطة ، ودخل الأسرة يكفى بالكاد لحياة كريمة ، دون فائض أو مدخرات ، أو حاجة لمد الأيدى للآخرين .

ولأن والده مصرى أصيل شريف ؛ اعتاد ألا ينفق على أبنائه إلا من حلال ، فقد ارتضى تلك الحياة ، وبذل كل جهده لتنشئة أولاده الأربعة على الإيمان ، والكفاح ، والقناعة ، والشرف .

ومن المؤكد أنه قد أفلح فى هذا مع ابنتيه ، وطفله الصغير (آخر العنقود) ..

ولكنه فشل تمامًا مع الابن الأكبر (خالد) ..

فمنذ حداثته ، كان (خالد) متمردًا على هذه الحياة المتواضعة ، وطامحاً للعيش فى رغد وثراء ، مثل أولاد خاله التاجر بحى (الموسكى) ، والذين يقيمون فى المنزل المقابل لهم تمامًا ..

وعبثًا حاول والده إقناعه بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد جعل الناس فوق بعض درجات وأنه أعلم بالسرائر وخفايا النفوس ، وبأن المال يكون أحيانًا مدخلاً إلى الفساد والفشل والضياع ، وليس العكس .

ولكن (خالد) صم أذنيه تمامًا عن كل نصائح والده ، وظل يحلم بالثراء ورغد العيش ، بأى وسيلة ممكنة ، شريفة أو غير شريفة .

ولكن الرياح لا تأتى يومًا بما تشتهى السفن ..

لقد حاول ، وحاول وحاول ، وسلك كل السبل ، ولكن رزقه ظل محدودًا ، يكفيه بالكاد للحد الأدنى من الرفاهية ؛ مما لا يشبع رغباته وطموحاته ، أو يحقق أحلامه ، وأماله ، وتطلعاته الطبقية .

حتى لاحت فرصة السفر إلى (إيطاليا) ..

وعلى الرغم من توسلات أبيه ، ودموع أمه ، وحزن أشقائه ، تعلق (خالد) بأمل السفر ، واستخراج الجواز ، وحصل على التصريح اللازم ، واستقل أول طائرة متجهة إلى (روما) ، مع صديق طموحاته وتطلعاته (عمر) .

وفى (روما) ، لم يكن الحال أفضل مما كان عليه فى (مصر) ..

العمل شاق مرهق للغاية ، والأجور قليلة ضعيفة إلى حد مستفز .

على الأقل فى (مصر) كان يجد فراشًا ينام عليه فى آخر الليل ، دون أن ينفق من أجله نصف ما عمل به طوال النهار ..

وهكذا سارت الأحوال من سيئ إلى أسوأ ..

حتى كانت تلك الليلة ..

انتهى من عمله الشاق مع (عمر) ، فى وكالة للشحن والنقل ، ثم خرجا معًا لقضاء السهرة فى بار صغير ، فى الحى الشعبى الذى يقيمان فيه .

وهناك التقيا بالسيد (عدنان) ..

رجل شرقى الملامح ، شامى اللهجة ، بدأ بحلته الفاخرة ، والسيجار الضخم بين أصابعه ، متناقضًا تمامًا مع ذلك البار المتواضع الصغير ، الذى اكتظ بالعمال والموظفين المرهقين الذين يكتفون بخمر ردىء رخيص وراقصة تجاوزت شرخ الشباب لتخطو أول خطواتها نحو بئر الشيخوخة .

وبسرعة وبوسيلة لم يدركها (خالد) أو (عمر) ، وجدا نفسيهما ضيفين على مائدة السيد (عدنان) ، الذى بدا سعيدًا للغاية

لكونهما عربيين مصريين ، وراح يدعوهما لتناول كل ما يروق لهما ، من طعام وشراب على حسابه الخاص ، بعد أن اتضح لهما أنه يتردد على ذلك البار بصفة شبه مستديمة ، وبصحبته دومًا أجمل الفتيات ، وأكثرهن حسنًا وفتنة .

وكان من الطبيعى ، والحال هكذا ، أن تتوطد الصداقة بين (خالد) و(عمر) وبين السيد (عنان) السخى .. ولكن هذا الأخير لم يلبث أن خص (خالد) باهتمامه الزائد وصداقته القوية ، وخاصة بعد أن أدرك مدى ما يملأ نفسه من غضب وسخط ونقمة وكراهية ، تجاه الوطن الذى أنجبه ورباه ، وصنع منه شابًا يافعًا قويًا .

وما هو إلا شهر واحد ، حتى توقف السيد (عدنان) عن السهر فى ذلك البار الردىء ، ونقل سهراته إلى آخر أنيق ، فى الشارع الرئيسى ، فى منتصف العاصمة ، ونقل معه (خالد) وحده دون (عمر) ..

وذات ليلة ، سأله فى اهتمام :

ـ قل لى يا خالد ألا تفكر فى الحصول على عمل سهل ، بدخل يبلغ خمسة أضعاف دخلك الحالى على الأقل ؟

هتف به (خالد) فى لهفة :

ـ دلنى عليه ، وسأقبله فورًا بلا تردد .

تراجع (عدنان) وسأله فى حذر :

ـ ألا يشغلك التساؤل عن نوعيته ؟!

هز (خالد) رأسه فى قوة ، وهو يجيب :

ـ إننى مستعد للقتل ، فى سبيل مبلغ كهذا !

وهنا ابتسم (عدنان) ، ورمقه بنظرة خاصة ، وهو يقول :

ـ اطمئن .. الأمر لن يبلغ حد القتل !

ومع بداية كهذه ، كان من الطبيعى أن يتطور الأمر فى سرعة ، ليعلم (خالد) أن السيد (عدنان) هذا ليس عربيًا ، ولكنه إسرائيلى ، وأن المطلوب منه أن يعمل لحساب المخابرات الإسرائيلية فى (مصر) .

ولقد قبل كل الشروط ، دون اعتراض واحد ، واختطف رزمة النقود ، التى أعطاه إياها (عدنان) بكل لهفة الدنيا ، ووجه يحمل ابتسامة كبيرة ..

ابتسامة خائن .

ومن (عدنان) انتقل الأمر إلى ضباط إسرائيلى ، فى جهاز (الموساد) بدأ معه مرحلة تدريب وإعداد ، استعداداً لعودته إلى (مصر) .

وفى أوائل عام 1971م ، عاد (خالد) إلى (مصر) فى حال غير الحال ..

والعجيب أنه لم يذهب لزيارة أسرته مباشرة ، وإنما ذهب أولاً لاستئجار شقة خاصة فى منطقة راقية ، وتأثيثها بأفضل الأثاث ، ووضع داخلها جهاز الراديو الأنيق ، الذى أحضره معه من (روما) !

ثم بدأت مرحلة الصداقات والارتباطات ..

وفى تلك المرحلة فقط ، ذهب لزيارة أسرته ..

ولقد استقبله الجميع بفرحة عارمة ، وتصوروا أنه قد أتى من المطار إليهم مباشرة ، إلا أنه لم يحاول حتى التظاهر بهذا ، وإنما أخبرهم بأمر وصوله ، وتأثيثه شقته ، متعللاً بأنه أراد مفاجأتهم بما وصل إليه ، وبما أصبح عليه حاله .

والواقع أنهم جميعًا قد انبهروا بشقته الجديدة ، وموقعها ، وأثاثها الفاخر ..

فيما عدا والده ..

هو وحده شعر بقلبه ينقبض عندما خطا داخلها لأول مرة ، وأخبر زوجته ، بعد عودتهم إلى منزلهم أنه شديد القلق على ابنه ..

أما ذلك الابن ، فقد راح يعمل بمنتهى الحماس والنشاط ، لتحقيق الهدف من عودته ، فبدأ يجمع المعلومات ، ثم يقوم بإرسالها إلى عنوان حدده له ضابط المخابرات الإسرائيلى فى (باريس) ، ثم تطور الأمر إلى استقبال التعليمات لاسلكيًا ، واستخدام الحبر السرى .

وبعدها سافر (خالد) مرة أخرى إلى (روما) فى نهاية عام 1971م ليحصل على دورة متقدمة ، فى استخدام اللاسلكى ، والتعامل بالشفرة ، وتصوير المستندات بآلة تصوير صغيرة للغاية .

وعاد (خالد) فى الشهر الثالث من عام 1972م ، وقد تطور دوره ، وصار عليه أن يعمل لتجنيد آخرين ، من فئات تم تحديدها بدقة ..

وفى هذه المرحلة تحديدًا ، انكشف أمر (خالد) وأدركت المخابرات العامة أنها تواجه جاسوسًا إسرائيليًا خطيرًا ..

ولكنّ أحدًا لم يحاول إلقاء القبض عليه ، أو كشف أمره ..

ففى مثل هذه الظروف ، يكون وجود أمثاله مفيدًا جدًا ..

وخاصة عندما يصبح تحت السيطرة التامة ..

ومن خلال (خالد) ، ودون أن يدرى هذا الأخير ، راحت المخابرات المصرية ترسل إلى الإسرائيليين كل ما تريد أن تقنعهم به ..

وبأسلوب دقيق مدروس !

كومة من المعلومات الصحيحة بمنتهى الدقة ، وبينها معلومة أو معلومتان ، تكفيان لإفساد خط تحليل الموقف تمامًا .

وفى الوقت نفسه ، تعرف (خالد) بأسلوب بدا تلقائيًا وغير مقصود ، بأحد الضباط العاملين فى القيادة المشتركة للجيش برتبة رائد ، وتوطدت بينهما صداقة عميقة ، كان الجاسوس هو الساعى إليها بالطبع .

وفى شقته الفاخرة ، قضى (خالد) عدة سهرات مع الرائد ، وراحا يتحدثان فى عشرات الأمور ، بحيث يمكنه استدراجه فى الإفضاء بعدد من الأسرار العسكرية على نحو يبدو تلقائيًا تمامًا .

وطوال تسعة أشهر كاملة ، لم يحصل (خالد) على معلومة واحدة خاطئة ، من الرائد (مصطفى) !

كلها معلومات صحيحة وسليمة ودقيقة تمامًا ، على الرغم من أنها تلقى بعشوائية ، وسط عشرات الأحاديث العادية ، حتى إن المخابرات الإسرائيلية قد أبدت ارتياحها الشديد لتلك الصداقة ، وأوصت جاسوسها بالاستمرار فيها بحذر ، ولكنها رفضت تمامًا اقتراح (خالد) بمحاولة تجنيد الرائد (مصطفى) ؛ نظرًا لأن الأمور كانت تسير على ما يرام ، ومحاولة التجنيد قد تفسد كل شىء بلا داعٍ !

وفى سبتمبر 1973م كانت القيادة الإسرائيلية مقتنعة تمامًا بأن (خالد) هذا أحد أفضل جواسيسها فى (مصر)، وأن الرائد (مصطفى) هو أفضل مصدر دقيق للمعلومات العسكرية على الإطلاق، دون أن يدرى ..

أو هكذا كانت تتصور ..

وهنا رأى الرجال أن اللحظة التى طال انتظارهم لها قد حانت ..

وأن الهدف الرئيسى من زرع الرائد (مصطفى)، فى منزل وحياة (خالد) قد حان وقته، وأتى آوانه .

وفى واحدة من سهراتهما فى نهاية سبتمبر 1973م، مال (مصطفى) على أذن (خالد) وقال بلهجة رجل مخمور، لا يدرك ما الذى يتفوه به :

ـ هل تعلم أن القادة كلهم يخشون خوض حرب مع (إسرائيل) ؟!

غمغم (خالد) فى حذر :

كنت أتصور العكس .

هز الرائد (مصطفى) رأسه فى قوة، ثم تلفت حوله، وكأنما يحيط بهما جمع غفير، فى الشقة الخالية إلا منهما، وقال :

ـ هل أُخبِرك سرًا ؟!

سأله (خالد) فى اهتمام أكثر حذرًا :

ـ وما هو ؟!

مال نحوه مرة أخرى، قائلاً :

ـ اليوم طالعت مذكرة سرية، مرسلة من رئيس الجمهورية، إلى وزير الدفاع، يطلب منه فيها دراسة إمكانية قيام القوات المسلحة بعملية محدودة، لتهدئة الرأى العام، فى بدايات فبراير 1974م، بحيث لا تثير غضب الإسرائيليين إلى الحد الذى يدفعهم للثأر بعملية عنيفة ..

برقت عينا (خالد) لسماع هذه المعلومة المذهلة، التى تحسم الكثير والكثير من القلق والتساؤلات الإسرائيلية فى الآونة الأخيرة، فى حين تراجع الرائد (مصطفى) ملوحاً بيده، ومتابعًا :

ـ هل رأيت خوفًا يفوق هذا ؟!

وابتسم (خالد) دون تعليق ..

وفى الليلة نفسها، بثَّ هذه المعلومة بالشفرة إلى (إسرائيل) .

وفى قسم الاعتراض، بالمخابرات العامة المصرية، التقط الرجال رسالته، وعلت وجوههم ابتسامة واثقة، والرائد (مصطفى) يغمغم :

ـ عظيم .. يبدو أن ما احتملته طويلاً سيُؤتِى ثماره الآن !

قالها بوقار وتركيز شديدين ، لا يشبهان قط لهجته المتهالكة ، التى نقل بها السر الزائف إلى الجاسوس ..

وعندما بلغ الخبر الإسرائيليين ، لم يكن لديهم سبب واحد لعدم الاعتقاد فى صحته !

كل الشواهد والدلائل ، التى تم صنعها بدقة مدهشة ، كانت تؤكده تمامًا ..

ثم إن الرائد (مصطفى) لم ينقل إلى (خالد) معلومة واحدة خاطئة قط ..

وهكذا اطمأنت قلوبهم جميعًا ..

وقلب الجاسوس (خالد) أيضًا حتى ظهر السادس من أكتوبر 1973م ففى تلك الساعة ، انقضت النسور المصرية على الجيش الإسرائيلى ..

وطرق صقور المخابرات العامة باب منزل الجاسوس .

ونال الاثنان جزاءهما العادل !

ومع مرارة الهزيمة ، وأمام حبل المشنقة ، كشف الإسرائيليون وجاسوسهم سر الرائد (مصطفى) والجهاز القوى من خلفه ، والشعب الذى لم يعتد أبدًا الاستسلام للهزائم .. السر المصرى .. الحقيقى !

* * *

السقوط

لم تكد الطائرة القادمة من (القاهرة) تستقر على أرض (اليمن) ، ويبدأ ركابها فى مغادرتها حتى عبرت سيارة رسمية سوداء أرض المطار ، وتوقفت قيد أمتار قليلة منها ، وراح ركابها يتابعون حركة هبوط القادمين من (مصر) فى اهتمام ، حتى ظهر شاب مصرى أسمر ، متين البنيان ، هادئ الملامح ، فأشار إليه أحد ركاب السيارة ، وهو يقول :

- ها هو ذا .

وعلى الفور ، اتجه إليه شخص آخر ، وصافحه قائلاً :

- مرحبًا بك فى (اليمن) .

ابتسم الشاب الأسمر ، ورد التحية فى رقة وهدوء ، ثم اصطحبه مستقبله إلى السيارة السوداء التى انطلقت بهما على الفور ، مغادرة أرض المطار ، وعندئذ قال الشاب الأسمر فى هدوء عجيب :

- هل اعترف ؟

هزّ جاره رأسه نفيًا ، وأجاب :

- كلا .. ما زال يصر على الإنكار ، ويدعى أنه مواطن مغربى ، يحمل اسم (أحمد الصباغ) وأنه هنا لأغراض تجارية بحتة ، لا علاقة لها بالتجسس وخلافه ، على الرغم من أننا عثرنا معه على كومة من الصور لبعض المناطق الحيوية ، بالإضافة إلى رسم كروكى لميناء (الحديدة) وبعض المواقع العسكرية المهمة .

أومأ الأسمر برأسه متفهمًا ، ثم أرخى جفنيه ، قائلاً فى تكاسل أدهش جاره اليمنى :

- فَلْيَكُنْ .. سنرى ما يفعله عندما نلتقى .

وظل على حاله هذا ، حتى وصلت السيارة إلى دار التحقيقات فى (صنعاء) واستدعى المحقق ذلك الرجل ، المدعو (أحمد الصباغ) وعندما أتى ، راح يكرر فى إصرار أنه مواطن مغربى ، و ..

وفجأة ، قاطعه الشاب الأسمر فى هدوء :

- عجبًا !.. لقد اتصلنا بالسلطات المغربية ، فأكدت أنه ليس هناك مغربى يعمل فى التجارة ، ويحمل اسم (أحمد الصباغ) .

شحب وجه الرجل بضع لحظات ، ثم أطرق بعينيه أرضًا ،

وقـال :

ـ فَلْيكُنْ ، سأعترف بكل شىء .

عقد الشاب الأسمر حاجبيه ، فى حين قال المحقق اليمنى فى اهتمام :

ـ عظيم .. هات ما لديك .

ازدرد الرجل لعابه ، وصمت لحظات ، وكأنه يستجمع شجاعته ، ثم قال :

ـ الحقيقة أن اسمى هو (يوسف سالم) ، وأنا تاجر مسيحى ، انتحلت صفة تاجر مسلم ، متصورًا أن هذا سيـ ..

قاطعه الشاب الأسمر بغتة :

ـ هراء .

التفت إليه الرجل فى دهشة ، فتابع فى صرامة :

ـ اسمع يا (بـاروخ) ، المراوغة لن تفيدك شيئًا .. نحـن نعرف كل شىء عنك ، ونراقبك منذ زمن طويل ، ومن الأفضل لك أن تعترف .

انتفض جسد الرجل فى عنف ، عندما ذكر الأسـمر اسمه الحقيقى ، وامتقع وجهه فى شدة ، فى حين ارتفع حاجبا المحقق اليمنى فى دهشة ، وهو يقول :

ـ (باروخ) .. ماذا تعنى ؟

أجابه ضابط المخابرات المصرى الشاب (محمـد نسـيم) ، صاحب البشرة السمراء ، والقلب الذى لا يهاب الخطر :

ـ أعنى أن هـذا الرجـل الماثل أمامك ، هو ضابط مخابرات إسرائيلى ، يحمل اسم (باروخ) ..

(باروخ زكى مزراحى) .

انتفض جسد (بـاروخ) مرة أخـرى فـى عنـف ، وانهـارت نظراته أمام النظرة الصارمـة ، المطلـة مـن عينـى المصرى الأسمر ، الذى دفع نحوه ورقة وقلمًا ، وهو يقول :

ـ اعترافك يا (باروخ) .

وفى استسلام تام ، أمسك (باروخ) الورقة والقلم ، وبدأ يخط اعترافه .

وبكل التفاصيل ..

* * *

(باروخ زكى مزراحى) يهودى مصرى ، ولد بـ (القاهرة) عام 1926م ، وكان والده (زكى مزراحى) واحدًا من تجار الدخان ، فى شارع (كلوب بك) ، وكان ثريًا إلى الحد الذى سمح له بإلحاق ابنه (باروخ) بمدرسة (الفرير) ، قبل أن يتوفى عام 1933م ، إثر إرهاق شديد فى العمل ..

وعلى الرغم من وفاة الوالد ، راحت أم (باروخ) تعمل بجد وبلا كلل ، لتوفر لأبنائها حياة قريبة من تلك التى وفرها لهم والدهم ، واشتهرت بين جيرانها بأنها خياطة بارعة تتقاضى أجراً يتناسب مع مهارتها وذوقها الرفيع ، بحيث نجحت فى إلحاق (باروخ) فى سبتمبر 1940م بمدرسة (الفرير) الثانوية ، المعروفة باسم مدرسة القديس (يوسف) ، وحصل منها على شهادة (التوجيهية) ، من القسم الأدبى عام 1944م ، والتحق فى العام نفسه بكلية التجارة جامعة (القاهرة) ، وتخرج فيها عام 1948م ، مع تخصص فى شعبة المحاسبة .

وفى نفس عام تخرجه ، عمل (باروخ) فى شركة (كونزلز) لاستيراد المعلبات والمحركات ، ثم انتقل فى عام 1950م للعمل فى شركة (بخكو) للأدوية والأدوات الجراحية ، وظل يعمل فيها لمدة عشرة أشهر ، انتقل بعدها للعمل كمدرس ، فى مدرسة

الأقباط الكبرى الثانوية ، لتدريس اللغة الفرنسية ، وكان عمله ينتهى فيها فى الرابعة عصرًا ، حيث يعمل حتى المساء فى شركة سمسرة ، تحمل اسم (دانيال نبياه وشركاه) ..

وأصبح (باروخ) موظفًا ثريًا ، بالمعنى المعروف فى تلك الأيام ، يقطن شقة أنيقة ، تحوى كل متطلبات العصر ، ويرتدى أفخر الثياب ، ويتعطر بأغلى العطور ، ويكفل أمه وشقيقته (إيفيت) وشقيقه (ماير) ، وكل شىء يسير معهم على ما يرام .

حتى ظهرت (فورتينيه) ..

كان هذا فى عام 1955م ، عندما التحقت (فورتينيه) الفاتنة الشقراء بنفس المدرسة ، التى يعمل بها (باروخ) ، وأصبحت زميلته فى العمل .

ومنذ اللحظة الأولى ، التى وقع فيها بصره على شعرها الذهبى وابتسامتها الساحرة ، غرق (باروخ) فى غرامها حتى النخاع ، وراح يتقرب منها فى لهفة واضحة ، وهى تسمح له بالاقتراب إلى حدود مدروسة ، ثم تصده وتمنعه عن الاستطراد فى حنكة وصرامة ، تمتزجان برقة وإغراء يفتنانه ، ويخلبان لبه وصوابه .

وذات يوم ، وبعد أن بلغ الشوق مبلغه ، ولم يعد باستطاعته الاحتمال ، هتف بها :

- (فورتينيه) .. هل تقلبيننى زوجًا ؟

كان يتوقع منها الشعور بالمفاجأة ، أو الخجل ، أو حتى إشاحة رقيقة بوجهها ، ولكن ما فعلته كان مدهشًا للغاية .

لقد تطلَّعت إليه لحظة بابتسامة ظافرة ، وتألق الزهو فى عينيها واضحا ، ثم لم تلبث أن حوّلت كل هذا إلى ضحكة مجلجلة ، تموج بالانتصار والخيلاء ، قبل أن تتطلّع إلى عينيه مباشرة ، وتقول فى لهجة عجيبة ، لم يدر ما إذا كانت واثقة أم ساخرة أم متشفية :

- إذن فقد قلتها أخيرًا .

استغرقته الدهشة لحظة ، ولكنها لم تلبث أن توارت خلف لهفته ، وهو يسألها :

- أيعنى هذا أنكِ توافقين ؟

هزَّت رأسها فى أسًى مدروس ، وهى تقول :

- كنت أتمنى هذا يا (باروخ) ، ولكنه مستحيل .

- ولماذا مستحيل ؟

أجابته مشيحة بوجهها الفاتن :

- لأن عائلتنا كلها قررت الهجرة إلى (إسرائيل) .

صدق هذا القول ، وحاول إقناعها بالبقاء فى (مصر) مشيرًا إلى أن كليهما يتمتع بوظيفة ممتازة ، ووضع مالى جيد ، ولكنها تشبثت برأيها ، وحسمت الأمر قائلة :

- الوسيلة الوحيدة هى أن تهاجر أنت أيضًا إلى (إسرائيل) .. إما هذا أو نفترق تمامًا .

وتحت ضغط الهوى والحب ، أقنع (باروخ) أمه بالهجرة إلى (إسرائيل) ، وحملها رغمًا عن إرادتها إلى السفينة ، التى حملتهما إلى ميناء (بيريه) وهما يذرفان الدمع مع غياب أضواء مدينة (الإسكندرية) خلف الأمواج ، فى السادس من فبراير ، عام 1957م ، وبصحبتهما الفاتنة (فورتينيه) وعلى شفتيها ابتسامة ظافرة ، لم يدرك (باروخ) معناها ، حتى عندما التقى بمندوبى الوكالة اليهودية فى (بيريه) ، ولاحظ استقبالهما الحار لصديقته (فورتينيه) ومعرفتهما الواضحة بها ، قبل أن ينتقل الجميع إلى باخرة أخرى حملتهم إلى ميناء (حيفا) ، حيث أرض الميعاد ، التى حلموا بها طويلاً .

وهناك ، فى قلب (إسرائيل) ، راحت الصدمات تتوالى ..

كانت الصدمة الأولى هى أنه سينتقل مع أمه ، للعيش فى مستعمرة (معجان ميخائيل) حيث تعمل أمه فى حياكة الملابس ، ويعمل هو كفلاح أجير ..

والصدمة الثانية هى أن حياته فى (أرض الميعاد) ، لن تساوى ذرة من حياته فى (مصر) ، إذ يكفيه أجره بالكاد ، ليعانى شظف العيش ، ويجد مأوًى متواضعًا ، ويتناول ثلاث وجبات أشد تواضعًا .

أما الصدمة الكبرى ، التى زلزلت كيانه ، وحطمت كل أحلامه ، فهى أن زواجه من (فورتينيه) مستحيل ، لأن القوانين الإسرائيلية تحظر زواج اليهودى من فتاة ليست من أم يهودية ..

ولم تكن هذه نهاية الصدمات ، بل تواصل الأمر بانتقاله إلى (حيفا) ، وعمله هناك كرجل شرطة ، بأجر تافه ضئيل ، واضطراره للعيش فى مسكن مشترك ، مع يهودى شرقى آخر ، ومعاناته من سوء معاملته ، باعتباره أحد يهود (الإشكنزيم) ، من الطبقة الثانية ، وفى النهاية زواج (فورتينيه) من يهودى ثرى ، وانقطاع آخر أمل له فى الزواج منها .

وعلى الرغم من كل هذا ، لم يبق (باروخ) بلا زواج .

لقد التقى ، أثناء عمله فى شرطة الآداب ، بزميلته (مرجريت) ، فوقع فى حبها من أول نظرة ، وغرق فى بحر الهدوء المطل من عينيها الحانيتين ، وسرعان ما تزوجها ، وبدأ حياة أسرية جديدة ، ينفق عليها من الإتاوات والرشاوى ، التى يتقاضاها من قطط الليل ، لغض البصر عن نشاطهن .

وذات يوم ، استدعاه رئيسه ، وقال له فى لهجة آمرة حازمة :

- (باروخ) .. لقد رشحتك لعمل مهم .

ازدرد (باروخ) لعابه ، وحاول أن يسأله عن طبيعة هذا العمل ، إلا أن الكلمات احتبست فى حلقه ، ولم يجد فى نفسه القدرة على النطق ، حتى تابع رئيسه :

- اذهب غدًا إلى مكتب المخابرات ، وقابل رئيسه (حايم أيدولوفيتش) .

ومن هنا كانت البداية .

لقد التقى فى الصباح التالى بمدير مكتب المخابرات المحلى ، البولندى الأصل الذى تفحصه بنظرات سريعة ، ثم أبلغه أنه تم

تعيينه فى جهاز المخابرات الإسرائيلى ، وأسند إليه مهمة مراقبة نشاط بعض الشيوعيين ، فى قلب (إسرائيل) ..

وانغمس (باروخ) فجأة فى هذا العالم .

كـان يغمـر رئيسـه بتقـاريره بالغـة الخطـورة عـن نشـاط الشيوعيين فى (إسرائيل) ويتقاضى مكافآت سخية مقـابل هـذا ، وبرع فى عمله كثيرًا ، حتى استدعاه (حايم) ذات يوم ، وابتسم ابتسامة ، وهو يقول :

- يبدو أنك محظوظ بحق يا (باروخ) .

سأله (باروخ) فى دهشة :

- لماذا تظننى كذلك يا سيدى؟

لوّح (حايم) بيده ، وهو يقول :

- لا تلق الكثير من الأسئلة ، فقط اذهب لمقابلة شخص مهم ، فى قهوة (فيرد) شمال شـارع (ديزنجوف) فى (تل أبيب) ، فى تمام السادسة مساءً ، وهناك ستعرف كل شىء .

وذهب (باروخ) فى الموعد تمامًا ..

وبدأ خطوته الثانية فى عالم المخابرات ..

فى البداية أسندوا إليه بعض أعمـال الترجمـة ، لتقارير واردة من العملاء الأجانب ، ثم استدعاه المدير ذات مرة ، وقال :

- سنرسلك فى مهمة إلى (هولندا) يا (باروخ) حيث افتتحنا مكتبًا تجاريًّا هناك .

سأله (باروخ) فى دهشة :

- وما علاقتنا بالأعمال التجارية يا سيدى ؟

ابتسم المدير ، وقال :

- هذا من الناحية الظاهرية فقط كما تعلم .

وفهم (بـاروخ) مـا يعنيـه الأمر ، وسـافر إلـى (هولنـدا) ، وهنـاك أقـام علاقـات جيدة مع المصريين المقيمين فى العاصمـة الهولنديـة ، ونشـطت علاقتـه بهـم ، وجمـع قـدرًا كبيـرًا مـن المعلومات ، وهو يردد لزملائه عبارته التقليدية :

- صدقونـى .. مستوى الوعى الأمنى عند العرب منخفـض للغـاية ، فمـا إن أبـدأ الحديث مع أحدهم ، حول موضوع ما ، حتى ينطلق مثرثرًا ، ويروى كل ما لديه عنه ، مهما بلغت سـرية الأمر .

وبعد النجاح الساحق لمهمته فى (هولندا) عاد (باروخ) إلى (تل أبيب) ، ولم تمض فترة قصيرة حتى استدعاه مديره مرة أخرى ، وقال فى لهجة تشف عن أهمية الأمر وخطورته :

ـ لقد ضرب المصريون إحدى سفننا ، أمام باب المندب ، وهذا ما دفعنا إلى أن نسند إليك مهمة بالغة الخطورة ، نعلق آمالاً كبيرة على نجاحك فيها ، ولست أكشف سرًا ، عندما أخبرك أن رئيسة الوزراء شخصيًا ، شديدة الاهتمام بما ستحققه فيها .

قال (باروخ) فى حماس :

ـ أنا رهن إشارتك يا سيدى .

تابع المدير :

ـ ستسافر أولاً إلى (عدن) ثم اليمن الشمالية وبعدها إلى دولة الإمارات .. نريدك أن تجمع أكبر قدر من المعلومات عن هذه البلاد ، وتتابع نشاط منظمة التحرير الفلسطينية فيها ، ونريد أن نعرف بالتحديد ، هل يتدرب الفدائيون هناك على ضرب ناقلات البترول الإسرائيلية فى البحر الأحمر؟

وشعر (باروخ) بأهمية المهمة وخطورتها ، وهو يبدأ رحلته ، بجواز سفر مغربى ، يحمل اسم (أحمد الصباغ) وعلى

كتفه ـ كأى سائح عادى ـ آلة تصوير جيدة ، تساعده على التقاط صور الأهداف الحيوية ، وقبل أن يستقل طائرته بأقل من ساعة ، جال بخاطره أمر مقلق ، فسأل رئيسه :

ـ وماذا لو انكشف أمرى ؟

وهنا انفجرت عاصفة من الضحك فى مقر المخابرات ، وربَّت رئيسه (موردخاى) على كتفه ، والدموع تغرق عينيه ، وقال :

ـ أين ؟.. فى (اليمن) ؟!.. لا تقلق بهذا الشأن يا رجل .. الخطة التى نضعها هنا ، فى المخابرات الإسرائيلية ، يستحيل أن يكشف هؤلاء المتخلفون أمرها .

وهكذا غادرهم (باروخ) ، وهو يشعر بالزهو والغرور ؛ لأنه يعمل فى جهاز خطير ودقيق ، مثل المخابرات الإسرائيلية ، وسافر إلى (عدن) ، وأنهى مهمته فيها بنجاح ، ثم إلى اليمن ، حيث أقام فى فندق الأخوة فى (الحديدة) ، وبدأ هناك عمله فى ثقة وبساطة ، فراح يتجوَّل فى الأسواق ، وبالقرب من الميناء ، حاملاً آلة التصوير المعلقة بكتفه ، والتى يلتقط بها عشرات الصور للميناء ، والسفن الراسية فيه ، وإجراءات الأمن من حوله ، ثم يعود إلى حجرته فى الفندق باسم الثغر ، شديد الزهو والهدوء .

ولكن فجأة ، وفى نفس اليوم الذى استعد فيه للسفر إلى (أديس أبابا) ، فوجئ بشابين من رجال الأمن اليمنيين فى حجرته ، يسألانه فى لهجة مهذبة :

- هل يمكننا تفتيش حجرتك ؟

حاول الاعتراض ، وثار ثورة مصطنعة ، وهدد بالاتصال بسفارة المغرب ، ولكنَّ أحدًا لم يعره انتباهًا ، وعثر الشابان على الأفلام ، فصاح هو بهما :

- إنها مجرد صور تذكارية للرحلة .

دسّ أحدهما يده فى جيب (باروخ) ، وأخرج الرسوم الكروكية للميناء والمواقع العسكرية اليمنية ، وهو يقول :

وما هذه ؟.. رسوم تذكارية أيضًا ؟!

وأسقط فى يد (باروخ) ، واستسلم لهما وهما يقودانه إلى مبنى التحقيقات ، ولكنه ظلّ يصر على أنه مغربى الجنسية ، حتى وصل ضابط المخابرات المصرى الأسمر ..

وكان ما كان ..

* * *

لم تكن رحلة الضابط المصرى (محمد نسيم) مع الإسرائيلى (باروخ زكى مزراحى) ، من (اليمن) إلى (القاهرة) سهلة أو هينة ، بل كانت مغامرة عنيفة ، تستحق مجلدًا ضخمًا لسردها ، خاصة مع محاولات (الموساد) المستميتة لاستعادة ضابطهم ، ولكنهما فى النهاية وصلا إلى (القاهرة) ، وتسلمت السلطات (باروخ) وقبل أن يبدأ (إسماعيل مكى) - نائب المدعى العسكرى العام - تحقيقاته معه ، مال نحوه ، قائلاً بابتسامة هادئة :

- بالمناسبة يا (باروخ) ، زوجتك (مرجريت) رزقت بمولودة أمس ، وهى فى حالة جيدة .

وهنا انفجر (باروخ) باكيًا ، وقال :

- سأعترف .. سأعترف بكل شىء .

ولم تكلل حياة (باروخ) بالانتصارات وأكاليل الغار ، كما كان يتوقع ، بل كان سقوطه عنيفًا مدويًا ، زلزل كيان جهاز المخابرات الإسرائيلى ، حكمًا بالسجن المؤبد ، فى زنزانة عادية فى (القاهرة) التى ولد فيها ، والتى شهدت صباه وشبابه ، و ...

وسقوطه .

* * *

الكابـوس

بدت بشائر الربيع واضحة ، فى ذلك اليوم ، الثالث من مارس عام 1973م ، مع تفتح الزهور الصغيرة ، ذات الأوراق الصغيرة ، ذات الأوراق الصفراءِ الجميلة ، التى تراصت فى حوضين كبيرين ، يحيطان بمدخل البناية الأنيقة ، التى يقيم فيها (فاروق الفقى) الشاب الهادئ الرصين ، الذى يحتل منصبًا رنانًا ، له أهميته وهيبته ، وخطورته فى ذلك الحين ، إلى الحد الذى أضفى على (فاروق) بريقًا خاصًا ، جعل بواب البناية يهب واقفًا ، وهو يستقبل قدومه إلى المنزل فى ذلك اليوم ، هاتفًا بحرارة وحماس ، جعلاه أشبه بجندى ملتزم منه ببواب بناية بسيط :

ـ مساء الخير يا (فاروق) بك .

منحه (فاروق) ابتسامة هادئة بسيطة ، وهو يقول :

ـ مساء الخير يا عبده .. هل وصلت أية رسائل ؟

كان السؤال عن الرسائل هو المرادف التقليدى للتحية ، عند (فاروق الفقى) لذا ؛ فقد أجابه البواب بسرعة ، وبلهجة من اعتاد السؤال :

ـ لا ، ليس اليوم يا (فاروق) بك .

بدا مزيج من الضيق والحزن ، فى عين (الفقى) ، وهو يومئ برأسه متفهمًا ، ويتجه فى خطوات سريعة إلى مصعد البناية ، وفى عقله تنطلق أحلام لا حصر لها ، حملت كلها وجه حبيبته ، التى لم يلتق بها منذ فترة طويلة ، والتى تقيم فى (باريس) و ..

« أنت (فاروق الفقى)؟! »

انتزعه السؤال بغتة من حلمه الكبير ، فالتفت يتطلّع إلى صاحبه ، الذى يجاوره فى المصعد ، وقال فى حذر :

ـ نعم ، أنا (فاروق الفقى) .. من أنت ؟ وماذا تريد منى ؟

أجاب الرجل على السؤالين بجواب واحد ، وهو يتطلّع إلي عينى (فاروق) مباشرة ، ويبرز من جيبه بطاقة رسمية ، قائلاً فى صرامة :

ـ (أحمد ماهر) من المخابرات .

ولم يكن (فاروق) بحاجة إلى المزيد .

كانت هذه هى اللحظة ، التى ظلّ يخشاها طويلاً ، والتى رآها عشرات المرات ، فى أبشع كوابيسه وأعنفها .

لذا ؛ فلم تكن هناك أدنى مقاومة ..

وانهار (الفقى) على الفور ، وهو يردد :

- كنت أعلم هذا .. كنت أتوقعه .

كان يتوقع ذهابه مباشرة إلى السجن الحربى ، بعد أن أوقع به رجال المخابرات وكشفوا كل ما ارتكبه فى حق الوطن ، الذى منحه كل ما ينعم به ، من منصب وشهرة ومهابة ، ولكنه فوجئ بهم يصعدون به إلى منزله ، حيث استقبله (حازم منسى) ، رجل المخابرات المصرى ، المسئول عن العملية كلها ، وقال له فى صراحة :

- نحن نعرف كل شىء وكشفنا كل الأدلة .. جهاز الإرسال ، كتاب الشفرة ، الكربون السرى .. كل شىء يا (فاروق) .. ولا يمكننا أن نمنحك أية وعود ، بعد أن خنت وطنك ، وهو فى حالة حرب ، ولكننا نريد منك أن تساعدنا فى الإيقاع بها .

ارتجف صوت (فاروق) ، وهو يسأل :

- بمن ؟

انعقد حاجبا (حازم منسى) ، وهو يجيبه فى صرامة شديدة :

- (هبة) .. (هبة) يا فاروق .

وانهار (فاروق) تمامًا هذه المرة .

* * *

لا أحد من خريجى كلية الآداب ، فى تلك الفترة من أواخر الستينيات ، يمكنه أن ينسى (هبة سليم) ، تلك الفاتنة ، ذات الشخصية القوية ، والطبيعة الصريحة المهاجمة .

كانت دائمًا من المتفوقات فى دراستها ، وخاصة فى دروس اللغة الفرنسية ، حتى إنها صارت صديقة شخصية للبروفيسير (جان بول) ، أستاذ اللغة الفرنسية ، ذلك الشاب الوسيم ، الذى يتقن العربية ، ويتعامل مع طلاب الكلية بروح تختلف عما يتعامل بها معهم أساتذتهم الآخرون .

وكانت (هبة) تحتاج بالفعل إلى صديق ، فهى تحيا وسط أسرة عجيبة ، تزخر بالمتناقضات ، فأبوها لا يبارح سجادة الصلاة إلا نادرًا ، وهو يسجد لله سبحانه وتعالى أو يقرأ القرآن فى خشوع ، فى حين لا تفارق أوراق اللعب يد أمها قط ، فهى إما تمارس اللعب مع صديقاتها ، أو تفتح الأوراق لرصد الحظ ؛ محاولة كشف المستقبل ، الذى لا يعلمه إلا الخالق عز وجل .

وبسبب هذا التناقض العجيب ، لم يكن البيت يخلو قط من الصراعات ، والمشاحنات ، والشجار ، الذى قد يصل فى بعض الأحيان إلى التشابك بالأيدى ، بين الأم والأب ، و(هبة) تتجاهل كل هذا ، وتسرح مع أحلامها الخاصة ..

أحلام الثراء والشهرة والطموح ..

وكانت أحلام (هبة سليم) بلا حدود ، وكثيرًا مع عبرت عنها لصديقاتها ، قائلة :

ـ النقود هى كل شىء فى الحياة .. هى القوة ، والجاه ، وبكل صراحة ..

هى الوطن الوحيد ، الذى أنتمى إليه .

ولم تكن مبالغة فى قولها هذا ، فهى لم تعبد شيئًا سوى المال ، فى حياتها كلها ؛ ربما لأن والدها كان مدرسًا بسيطًا ، لا يزيد دخله عن حفنة من الجنيهات ، فى زمن لم تكن الدروس الخاصة قد عرفت فيه بعد ، وكان دخله المنخفض هذا هو السبب الأعظم للخلافات المستمرة بين أمها وأبيها ، والمشاحنات التى لا تنتهى فى المنزل .

وذات يوم ، تلقت (هبة) دعوة لحفل زفاف إحدى زميلاتها ، فقالت فى سخرية ، وهى تتحدث مع (جان بول) الشخص الوحيد ، الذى اعتادت مصارحته بهمومها :

ـ كنت أريد حضور الحفل بالطبع ، ولكننى أكره أن ترانى صديقاتى بثوب عادى ، حضرت به إلى الكلية ألف مرة .

تأملها (جان بول) بنظرة طويلة ، بعد أن ألقت عبارتها ، ثم مال نحوها ، وقال مبتسمًا :

ـ هل قرأت قصة (سندريلا) ؟

ضحكت (هبة) ، وقالت :

ـ ومن لم يقرأ (سندريلا) ؟!.. إنها تلك الفتاة المسكينة ، التى عجزت عن الذهاب إلى الحفل ، ثم جاءت الساحرة ، ومنحتها ثوبًا أنيقًا ، وحذاءً من الـ ..

قاطعها (جان بول) فجأة ، وبابتسامة أكثر اتساعًا ، وتحمل شيئًا غامضاً ، لم تدركه هى فى حينه :

ـ اعتبرينى الساحرة إذن .. سأهديك ثوبًا للحفل .. ومن منتجات (بيير كاردان) .

كانت لهجته جادة للغاية ، فاعترضت (هبة) على قبول الهدية وشكرته بالفرنسية ، التى أصبحت تجيدها تمامًا ، ولكنها لم تكد ترى الثوب ، بعد أسبوع واحد ، وقبل ليلة واحدة من الحفل ، حتى انهارت مقاومتها تمامًا ، وقبلت الهدية بلا نقاش .

وكانت هذه هى البداية ، فالبروفيسير (جان بول) الشاب الفرنسى الوسيم ، صاحب الابتسامة الساحرة ، جلس إلى مكتبه فى

تلك الليلة تحديدًا ، وراح يكتب تقريرًا مفصلاً عن (هبة سليم) ، أعلن فى نهايته ترشيحه لها ، للعمل فى نفس الجهاز الذى يعمل هو لحسابه .. (الموساد) .

وفى الوقت الذى اجتمع فيه فريق من رجال (الموساد) لدراسة التقرير الذى أرسله عميلهم (جان بول) ، كانت (هبة سليم) تخطو داخل الحفل فى (القاهرة) فتتسع لمرآها العيون ، وتخفق لفتنتها القلوب .

وأحد هذه القلوب ، كان قلب (فاروق الفقى) .

كان أحد أقارب العروس ، وهَوَى قلبُه مع ظهور (هبة) ، وراح يخفق فى قوة ويرفرف إلى قريبته ، وهمس فى أذنها بصوت متهدج :

- قدمينى لهذه الفتاة .. إنها ساحرة .

وتم التعارف بين (هبة) و(فاروق) ، واشتعل الحب فى تلك الليلة ، ولكن من جانب واحد .

هو غرق فى حبها حتى النخاع ، فى حين لم تمنحه هى سوى نظرة مدروسة ، وضحكة عابثة ووعود غير منطوقة ، وعندما غادرت الحفل ، كانت موقنة من أن قلب (فاروق) قد أصبح خاتمًا فى أصبعها بالفعل ، وأنه مستعد لأن يفعل أى شىء من أجلها ..

وعلى الرغم من أنها لم تحمل له شيئًا من الحب ، إلا أنها ظلت تلاعبه كالقط والفأر طوال أسبوع كامل ، فلا هى تمنحه شيئًا ، ولا هى تقطع علاقتها به ، بل تقترب وتتباعد ، وتمنح وتمنع ، على نحو زاد حبه اشتعالاً ، فى حين لم يمثل لها سوى لعبة شيطانية طريفة ، ترضى طموحها وغرورها وأنوثتها .

وفى نهاية الأسبوع ، ألقى (جان بول) قنبلته ، عندما قال لها فجأة :

- (هبة) .. لقد حصلت لك على تذكرة سفر إلى (باريس) ، وإقامة مجانية لمدة أسبوعين ، لدراسة الفرنسية فى (السوربون) .

وكادت (هبة) تجن من الفرحة ، فها هى ذى ستسافر إلى (أوروبا) ، التى تحلم برؤيتها منذ زمن طويل ، وتتمنى لو قضت عمرها كله فيها .

وسافرت (هبة) وانبهرت بكل ما تراه فى (أوروبا) ، من نظافة ونظام وحسن معاملة ، ورقص قلبها طربًا ، عندما حصلت هناك على منحة ، مقدارها عامان كاملان ؛ لدراسة اللغة الفرنسية فى (السوربون) .

وكان هذا أكبر مما تحلم به (هبة) حتى إنها فقدت توازنها تمامًا ، وكادت ترقص فى شوارع (باريس) ، التى راحت تسير

فيها بخطوات سريعة ، وتنتقل من الشارع إلى مترو الأنفاق ، لتقطع به المدينة كلها مرات ومرات .

وفى المترو ، كان اللقاء مع (إيزاك) ، الذى تطلّع إليها لحظات ، قبل أن يبتسم ، ويقول بلغة عربية ، ولهجة مصرية خالصة :

- أنت مصرية .. أليس كذلك ؟

تطلّعت إليه (هبة) بنظرة ضاحكة ، تحمل شيئًا من الدهشة ، وهى تقول :

- كيف عرفت ؟

هزّ كتفيه قائلاً :

- ليس من الصعب على رجل ، قضى نصف حياته فى (مصر) أن يتعرف على المصريين من النظرة الأولى .

قدم نفسه إليها باسمه الحقيقى ، وقال : إنه صحفي ، يعمل فى منظمة خاصة لحفظ السلام العالمى ، واستغرق طويلاً فى حديث حماسى حول متعة العمل بالصحافة وصعوبته . والعائد المرتفع الذى يدره ، وهى تستمع إليه فى انبهار ، وعقلها يخزن كل ما تسمعه منه ، ويستوعبه جيدًا ..

وتوطدت أواصر الصداقة بين (هبة) و(إيزاك) فى قلب (باريس) ، حتى سافرت فى نهاية الأسبوعين ، وعادت إلى (مصر) لتتم إجراءات المنحة ، التى ستعود بها إلى (باريس) ، مدينة الفن والنور والجمال ..

وفى (مصر) استقبلها (فاروق) بلهفة شديدة ، وهو يقول :

- وحشتنى كثيرًا يا (هبة) .. متى نطفئ شوقنا بالزواج ؟

ضحكت وهى تجيبه :

- قريبًا يا (فاروق) .. قريبًا جدًا .

وقضت معه أسبوعًا ، عاش فيه أجمل وأسعد أيامه ، وعلى الرغم من هذا ، فقد عادت فجأة إلى (باريس) ، دون حتى أن تودعه ، أو تبلغه بموعد الرحيل ..

وكانت صدمة عنيفة للرجل ، الذى راح يبكى حبه فى مرارة ، وشوقه ولهفته إليها يتزايدان ، فى حين كانت هى تتنزه مع (إيزاك) فى (باريس) وهذا الأخير يقول :

- المعلومات التى أتيت بها ممتازة يا (هبة) ، وتشف عن موهبة حقيقية فى عالم الصحافة ، و ..

فوجئ بها تقاطعه ضاحكة :

- لا داعى للف والدوران يا مسيو (إيزاك) .. الصحافة لا تطلب معلومات عسكرية واقتصادية ، وتساؤلات عن المطارات السرية والجبهة .. دعنا نتحدث بصراحة ، أنت تعمل لحساب (إسرائيل) .. أليس كذلك ؟!

كانت صدمة هائلة لرجل المخابرات الإسرائيلى ، الذى حدَّق فى وجهها بدهشة ، فاستطردت هى بسرعة :

- اطمئن .. هذا لا يقلقنى أبدًا .. أنا مستعدة تمامًا للعمل معكم ، ولكن قل لى أولاً : كم ستدفعون ؟

وهكذا أثبتت (هبة) أن المال بالفعل هو وطنها الوحيد ، الذى تنتمى إليه ..

ولكن الإسرائيليين شعروا بالقلق ، فلم يكن من السهل عليهم أبدًا استيعاب تلك الصراحة المطلقة ؛ لذا فقد طلبوا من (إيزاك) إحضار (هبة) إلى (تل أبيب) ، ولم تعارض هى قط ، وإنما ذهبت إليهم بنفس ابتسامتها ، تركتهم يخضعونها لكل الاختبارات والفحوص النفسية ، التى أثبتت لهم ، بما لا يدع مجالاً للشك ، أنها ستعمل لحسابهم بكل إخلاص ، طالما يدفعون جيدًا ..

وفى أول زيارة لها إلى (مصر) بعد عملها لحساب (الموساد) ، استقبلها (فاروق) أيضًا بلهفة شديدة ، ودعاها للسهر معه فى

ملهى ليلى أنيق ، وبينما كان يتطلَّع إليها فى انبهار ، فوجئ بها تعرض عليه العمل لحساب منظمة السلام الوهمية ، وتطالبه بمعلومات عن شبكات الصواريخ ، والمطارات السرية ، وتلك الأسرار الأخرى ، التى يعرفها بحكم موقعه ومنصبه ، فشحب وجهه وهو يقول :

- (هبة) .. هل تدركين ما تطلبينه ؟

أجابته فى بساطة :

- نعم .. بعض المعلومات البسيطة ، مقابل مكافآت ضخمة ، ستدفعها لك منظمة حفظ السلام الدولية ، وهذه المكافآت ستساعدنا على أن ..

بترت عبارتها بغتة ، ومالت نحوه كثيرًا حتى أسكره عطرها ، وألهبته أنفاسها الحارة ، وهى تهمس :

- على أن نتزوج .

وفى تلك الليلة ، عاش (فاروق) أسعد لحظات حياته ، وأغرقته (هبة) من عطرها وفتنتها ودفئها ، حتى إنه نسى كل شىء عن عمله وأسراره وخطورته ، ولم يعد يفكر فى شىء سوى (هبة) ، التى قرر الحصول عليها بأى ثمن ..

وسافرت (هبة) هذه المرة ، وهى تحمل ضمير (فاروق) فى حقيبة يدها ، وكلها ثقة فى أنه سيمنحها أكثر مما تطلبه ، ما دام يسعى لأن تمنحه هى نفسها ..

وانغمس (فاروق) فى المستنقع خطوة بخطوة ، فلم يكد يرسل أول قائمة معلومات سرية ، حتى أصبح متورطًا ، وعليه أن يمضى فى خيانته حتى النهاية ..

وعلى الرغم من ثورة الإسرائيليين ؛ لأن (هبة) تسرعت كثيرًا فى عملية تجنيد (فاروق) ، إلا أن خطورة موقعه جعلتهم يبتلعون غضبهم ، ويهضمونه بذلك السيل من الأسرار الحربية والعسكرية الذى يرسله إليهم فى انتظام ..

وفى آخر زيارة لها ، دربت (هبة) (فاروق) على أسلوب المراسلة ، واستخدام الكربون السرى ، والشفرة ، وتركته يغرق طويلاً فى حبها ، ثم رحلت إلى (باريس) ، وفى نيتها ألا تعود إلى (مصر) ثانية أبدًا ..

ولكن لا تأتى الرياح بما تشتهى السفن ..

لقد كشفت المخابرات المصرية أمر (فاروق) ، ووضعته تحت المراقبة ، وراحت تتابع عمله ، وتمنحه فقط ما يمكنها التنازل عنه من أسرار ، فى حين أصبحت (هبة سليم) هى الشغل

الشاغل لرجل المخابرات (حازم منسى) ، الذى كشف أنها صارت أخطر جواسيس (الموساد) على الإطلاق ، فهى قد استقرت فى (باريس) ، وافتتحت متجرًا فخمًا للأزياء وأدوات الزينة ، جذب إليه معظم زوجات سفراء الدول العربية هناك ، حتى إنها صارت ضيفًا دائمًا فى حفلات السفارات والقنصليات ، وأصبحت صديقة لعشرات من الرجال الذين يحملون أدق أسرار الوطن العربى كله ..

ومع خطورتها البالغة ، قررت المخابرات المصرية إنهاء العملية كلها ، قبل حرب أكتوبر 1973م ..

وكانت الخطوة الأولى هى الإيقاع بشريكها (فاروق الفقى) ، والتحفظ عليه فى منزله ، حتى لا يدرك (الموساد) ، ولا تدرك (هبة) نفسها أنه قد هوى...

أما الخطوة التالية ، فكانت (هبة) نفسها ..

كان والدها قد حصل على إعارة للعمل فى (الجزائر) ، وكانت دائمة الاتصال به ، وذات مرة ، عندما أجرت اتصالها المعتاد ، فوجئت بصديق لوالدها يجيبها قائلاً :

- الأستاذ (سليم) ليس هنا .. لقد تم نقله إلى المستشفى لإجراء بعض الفحوص الطبية ، بعد إصابته بوعكة خفيفة .

وشعرت (هبة) بالقلق الشديد على والدها ، ولم ينتابها أدنى شك فى الأمر ، فقد تم إعداد الخطة بمهارة مدهشة ، من المخابرات المصرية ، بالتعاون مع المخابرات الجزائرية ، بحيث تصوَّر الأستاذ (سليم) نفسه ، أنه يعانى من وعكة صحية حقيقية ..

ولأن الأمر كان متقنًا للغاية ، فقد تركت المخابرات الإسرائيلية (هبة) تسافر إلى (الجزائر) ، ولم يقلقوا بشأنها ..

ووصلت (هبة) بالفعل إلى (الجزائر) ، ولكنها لم تقض فيها سوى دقائق معدودة ، فقد اصطحبها (حازم منسى) مباشرة ، من الطائرة القادمة من (باريس) ، إلى أخرى فى طريقها مباشرة إلى (القاهرة) .

وكانت صدمة هائلة لجهاز (الموساد) كله ، ولعميلته (هبة سليم) ، التى فوجئت بأن كل نجاحها هذا ، لم يكن سوى فقاعة هواء ، تحركها المخابرات المصرية فى براعة ، منذ زمن طويل ..

ولقد أدلت (هبة) باعتراف تفصيلى ، فى مبنى المخابرات العامة بالقاهرة ، بعد أن أطلعوها على اعتراف (فاروق) ، الذى لم يشف من انهياره بعد ..

والعجيب أنها كانت أكثر تماسكًا منه ، أو أنها كانت شاردة تسترجع أحلام عمرها كله ، التى انهارت دفعة واحدة ..

وعندما التف حبل المشنقة حول عنقهما ، أدرك (فاروق) و(هبة) أن ما ملأ حياتهما لم يكن حلمًا كبيرًا ما تصوراه دائمًا ..

بل كان كابوسًا ..

أبشع كابوس للخيانة ..

وللنهاية .

* * *

اللحظات الأخيرة ..

قبل حتى أن تشرق شمس السادس من أكتوبر ، عام 1973 ، كانت الاستعدادات تجرى على قدم وساق ، فى كل المواقع ، استعدادًا للضربة الحاسمة ، التى حددت لها القيادة السياسية والعسكرية تمام السادسة مساء ، مع غروب شمس العاشر من رمضان ..

كل الجهات بدأت العد التنازلى ، نحو ساعة الصفر .

كل الأفراد ..

كل الأسلحة ..

وبينما تأهب الكل لإطلاق إشارة البدء والانطلاق بكل الإرادة والصلابة والإيمان ، والرغبة فى النصر والثأر ، واسترداد الأرض السليبة ، وفى نفس الوقت الذى تحركت فيه كل الأسلحة ، وانطلقت فيه قوات الكوماندوز بالفعل ، لتنفيذ مهامها الأساسية ، لإغلاق أنابيب النابالم ، المطلة على مياه القناة ، والهبوط عند الممرات الجبلية ، فى قلب (سيناء) لاحتلالها والسيطرة عليها ، لمنع الإمدادات الإسرائيلية من عبورها ، وصل ذلك الخبر المخيف ..

لقد تسرب خبر استعداد (مصر) و(سوريا) للقتال ..

جاسوس رفيع المستوى ، على درجة كبيرة من المصداقية لدى المخابرات والحكومة الإسرائيلية أبلغ (إسرائيل) بأن الحرب ستندلع على الجبهتين فى تمام السادسة مساء بتوقيت (القاهرة) ..

وجن جنون الإسرائيليين نظرًا للمصداقية الكبيرة ، التى يتعاملون بها مع ذلك الجاسوس ، ولثقتهم الشديدة فى دقة ما يحمله من معلومات ، على الرغم من أن كل مصادرهم وجواسيسهم ، وعملائهم ، فى (مصر) و(سوريا) قد أكدوا بما لا يدع مجالاً للشك أن احتمالات الحرب غير واردة على الإطلاق ..

فى تلك الفترة على الأقل ..

وفى نفس اللحظة التى اجتمع فيها مجلس الوزراء الإسرائيلى ، على نحو طارئ وعاجل ، لدراسة هذه المفاجأة الصاعقة ، التى لم يتوقعها مخلوق واحد ، فى كل أجهزة الأمن الإسرائيلية ، على كل مستوياتها ، كان الخبر يبلغ القيادة المصرية ..

وجهاز المخابرات العامة بالتحديد ..

فوصول المعلومة إلى الإسرائيليين قبيل ساعات فحسب من ساعة الصفر يعنى أن خطة الخداع الكبرى التى قادها ، مع أجهزة الدولة

المختلفة ، لما يزيد عن عام كامل قد نجحت نجاحًا مذهلاً ، وأعمت عيون العدو ، التى تدعى اليقظة والدقة ، عن كل ما يدبر ببراعة مذهلة ، منذ عدة أشهر .

وخلال نصف ساعة فحسب اجتمع الكل فى مجلس الدفاع الوطنى برياسة الرئيس (السادات) شخصيًا ، لدراسة ذلك التطور العنيف ، فى اللحظة الأخيرة ..

وكان من العسير جدًا ، فى ذلك الحين تحديد هوية الجاسوس رفيع المستوى الذى سرب سر ساعة الصفر للإسرائيليين ..

ففى الساعات الأخيرة وعندما تقترب لحظة الحسم من الطبيعى أن تتسع دائرة المطلعين على السر ، نظرًا لانتقال الأوامر من القيادات العليا ، إلى القيادات التى تليها ، والتى يتضاعف عددها ، مع كل دورة تنازلية .

ثم إن السر كان موزعًا بين القيادات الكبرى ، فى (مصر) ، و(سوريا) و(الاتحاد السوفيتى) ودول المواجهة التى لن تشارك بدور مباشر فى القتال ..

أضف إلى هذا أن الوقت لم يكن يكفى للبحث عن السر ..

لذا ، كان من المحتم الاستفادة بكل دقيقة ، بل كل ثانية ، لتحديد موقف اللحظات الأخيرة ، قبل ساعة الصفر .

وعلى مائدة اجتماع مجلس الدفاع الوطنى تم طرح عدة احتمالات للمناقشة ..

فإما أن يتم تأجيل المواجهة إلى موعد تال بعد أن انكشف الموعد الحالى ..

أو محاولة إقناع الإسرائيليين بخطأ ما لديهم من معلومات ..

أو أن يسير كل شىء وفقًا للجدول المعد مسبقًا ، مهما كانت النتائج ..

ومنذ الدقائق الأولى للاجتماع ، تم حذف الاحتمال الأخير ، لما يحمله من نتائج بالغة الخطورة ، وخاصة أن الإسرائيليين سيضاعفون من حالة التأهب والانتباه عند خط (بارليف) ، وبطول قناة السويس وسيرفعون درجة الطوارئ إلى الحد الأقصى ، مما يرفع بالتالى نسبة الخسائر ، فى موجة العبور الأولى ، إلى حد يتساوى معه النصر والهزيمة ..

ثم إن الوقت المتبقى ، حتى ساعة الصفر ، يكفى لبدء استعدادات الطوارئ بالنسبة للجيش الإسرائيلى ، وبدء استدعاء الاحتياط على نحو يصبح معه التوسع فى ساحة المعركة أمرًا أشبه بالانتحار ..

ولكل هذا ، كان المحتم استبعاد الاحتمال الثالث تمامًا ..

أما الاحتمال الأول ، فكان أثر خطورة ..

فبعد خطة صراع طويلة ، استغرقت ما يزيد على عام كامل ، لإقناع العدو باستحالة إقدام القيادة المصرية على إجراء حرب مباشرة ، ثم اكتشافه فجأة أن المعركة على قيد ساعات قليلة ، سيؤدى إلى حذر زائد وانتباه أشد فى المراحل القادمة ، وعدم ثقته حتى فى مصادر معلوماته الرئيسية ، ورفع استعداداته القتالية طوال الوقت ، ما دام قد كشف النوايا الحقيقية للقيادة المصرية ، واستعدادها الفعلى والعملى ، لخوض حرب تحرير شاملة ، على كل الجبهات مما يجعل محاولة خداعه مرة أخرى أمرًا أشبه بالمستحيل ..

وهذا يعنى ضياع فرصة نادرة ، ربما لا يجود الزمان بمثلها قط ..

و(مصر) ، والشعوب العربية كلها لن يمكنها احتمال حالة اللاسلم واللاحرب هذه لفترة أطول ..

هذا أكثر من مستحيل !..

يتبقى إذن الاحتمال الثانى ..

محاولة إقناع الإسرائيليين بخطأ ما لديهم من معلومات ..

ولقد أعلن مدير المخابرات شكه فى نجاح هذا ، خلال الساعات القليلة المتبقية ، منذ أول لحظة طرح فيها هذا الاحتمال ، على مائدة البحث ..

الوقت قصير للغاية ، ومن الواضح أن الإسرائيليين قد حصلوا على المعلومة من مصدر شديد الأهمية ، وافر الثقة ، حتى إنهم قد صدقوا ما أبلغهم به ، على الرغم من تعارضه مع كل ما لديه من معلومات من عشرات المصادر المختلفة .

وهذا يجعل من المستحيل إقناعهم بخطأ معلوماتهم ..

من المستحيل تمامًا ..

ولكن الرجل اقترح ، فى الوقت ذاته ، أن يحدث تعديل بسيط فى الأمر ..

أن تسعى المخابرات لإقناع الإسرائيليين بأنها قد كشفت أمر ذلك الجاسوس ، الذى أبلغهم بموعد الحرب وأن القيادة السياسية قد اتخذت ـ بناء على هذا ـ قرارًا بتأجيل المواجهة إلى أجل غير مسمى .

ولقد لاقى هذا الاقتراح استحسان وقبول الجميع ، خاصة أنه من المعروف أن خطة استدعاء الاحتياط تجشم (إسرائيل) الكثير من الجهد والمال ، مما قد يدعوهم إلى التريث قليلاً ، إذا ما تبين لهم أن (مصر) قد اختارت تأجيل المواجهة ..

ولكن الرئيس السادات رأى أن هذا وحده لن يكفى ، إلا لإضاعة بعض الوقت ، وأنه من غير الممكن الركون إلى هذا الإجراء وحده ، لأن الإسرائيليين قد يبطئون بسببه فى رفع درجة الاستعداد إلى أقصاها ، ولكنهم حتمًا لن يتركوا الأمور على ما هى عليه ، مما سيضاعف من خطورة المواجهة الحاسمة .

وهنا جاء اقتراح عبقرى ..

فعندما تعلم (إسرائيل) أننا قد كشفنا أمر الجاسوس رفيع المستوى ، الذى سرب موعد ساعة الصفر ، ومع خطة الإيحاء بالتأجيل ، التى ستقوم بها المخابرات العامة ، لن يكون أمام الإسرائيليين سوء اتخاذ إجراء من اثنين ..

أما أن ترفض الاقتناع بفكرة التأجيل ، وتواصل تحركاتها لدرء الخطر ، ومنع محاولة عبور قناة (السويس) ..

أو تقنع برغبة المصريين فى تأجيل المواجهة ، فتهدأ قليلاً ، فى عملية رفع حالة الطوارئ واستدعاء الاحتياط خاصة أن اليوم يوافق عيد الغفران ، أحد أهم الأعياد اليهودية عبر العام ..

أى إنه ، وفى كل الأحوال ، لن تتوقع (إسرائيل) هجومًا مصريًا سوريًا قبل السادسة مساءً ..

وستضع جدولها وخطتها كلها ، بناء على هذا الاحتمال ، خاصة أنه من المنطقى ، فى كل الحروب والمواجهات المباشرة ، إلا يحدث الاقتحام الشامل ، إلا مع آخر ضوء للشمس ، أو أول خيوط الفجر ..

وهذا يعنى أن (إسرائيل) لن تتوقع أبدًا هجومًا مبكرًا ..

وكان الاقتراح عبقريًا بحق .. وبكل المقاييس ..

وفى الوقت الذى انصرف فيه مدير المخابرات العامة ، عائدًا إلى رجاله ، لتنفيذ الخطة المتفق عليها ، كان الرئيس (السادات) مع قادة جيشه ، وأركان حربه يعيدون دراسة الموقف كله ، لتحديد موعد الهجوم المبكر ..

وفى المخابرات العامة ، وفور وصول المدير ، اجتمع فريق من الرجال ، على أعلى مستوى فى حجرة الاجتماعات الرئيسية ، لمواجهة هذا التحدى الجديد ..

والمدهش أن المفاجأة على الرغم من عنفها ، بالنسبة لكل المسئولين كانت أحد الاحتمالات النادرة ، التى وضعتها المخابرات العامة المصرية وهى تعد خطة الخداع الكبرى منذ البداية .

أن ينكشف الأمر فى اللحظات الأخيرة ..

فلأن طبيعة عمل المخابرات تعتمد على عدم ترك أية ثغرة ، أو إغفال أى احتمال ، مهما بلغت صعوبته أو استحالته ، فقد وضع الرجال هذا الاحتمال المخيف فى حساباتهم واستعدوا لمواجهته على نحو ما ..

ففى قلب إسرائيل ، كان لديهم أيضًا جاسوس رفيع المستوى يعمل فى مكان بالغ الحساسية والخطورة ، بالنسبة للقيادة العسكرية الإسرائيلية ..

ومنذ ما يقرب من ثلاثة أشهر ، تمكنت أجهزة الاعتراض اللاسلكى الإسرائيلية من التقاط إحدى الرسائل التى يبثها ذلك الجاسوس ، من (تل أبيب) وإن لم تستطع تحديد مصدرها بدقة ، إلا أن هذا لم يمنع المخابرات الإسرائيلية ، من أن تضرب حصارًا أمنيًّا حول المنطقة التى صدر منها البث ، فى انتظار بث آخر ، لتحديد الموقع بدقة أكثر ..

ولقد درس الإسرائيليون الرسالة اللاسلكية بمنتهى الدقة ، حتى تمكنوا من كشف شفرة التراسل ، التى يستخدمها ذلك الجاسوس ، وراحوا ينتظرون ما سيرد إليه من معلومات من

القاهرة ، لكشف كل أسرار الاتصالات بينه وبين المخابرات العامة المصرية .

ولقد أدركت المخابرات المصرية من خلال عميل آخر ، أن الإسرائيليين قد كشفوا تلك الشفرة فتوقفت عن استخدامها تمامًا .. وأبلغت جاسوسها رفيع المستوى ، عن طريق برقية سرية خاصة ، بضرورة الانتقال إلى الشفرة الاحتياطية وبألا تستغرق عملية البث ما يزيد على الثلاثين ثانية ، بأى حال من الأحوال ، حتى ولو تم إرسال الرسالة الواحدة على أربع أو خمس مرات حتى لا تجد أجهزة الاعتراض والكشف الوقت المناسب لتحديد موقعه ، أو كشف هويته .

ومنذ ذلك الحين يستخدم الجاسوس الشفرة الجديدة ، فى رسائل قصيرة مبهمة ، يتم تجميعها بنظام خاص شديد التعقيد ، فى المخابرات العامة لمعرفة فحوى الرسالة ، والحصول على ما تحويه من معلومات .

ولقد قرر الرجال استخدام ذلك الجاسوس رفيع المستوى لتوصيل معلومة تأجيل ساعة الصفر ، إلى القيادة الإسرائيلية .

وفى العاشرة والنصف صباحًا ، تم إرسال رسالة قصيرة جدًا

إلى الجاسوس فى (تل أبيب) ..

رسالة بالشفرة الجديدة ، تطلب منه العودة لاستخدام الشفرة القديمة ، ولكن بنظام الرسائل القصيرة .

وفى العاشرة وخمس وأربعين دقيقة ، تم إرسال رسالة أخرى باستخدام شفرة التراسل القديمة ، تطلب من الجاسوس تأكيد ما بلغ (مصر) من معلومات ، حول انكشاف أمر هجوم مصرى ، وشيك فى السادسة من مساء اليوم ..

وأرسل الجاسوس رسالة قصيرة للغاية ، يؤكد فيها هذه المعلومة ..

وكان من الطبيعى أن تلتقط أجهزة الاعتراض اللاسلكية الرسالة القصيرة ، التى تم تسجيلها بالكامل ، وإرسالها فورًا إلى قسم الشفرة ، وإن عجزت الأجهزة عن تحديد موقع إرسالها بدقة ..

وفى تمام الحادية عشرة كانت الرسالتان أمام رئيسة الوزراء الإسرائيلية قبل أن ينفض الاجتماع الطارئ ..

وكان معناهما واضح للغاية ..

لقد أدركت (مصر) أن موعد الهجوم قد انكشف للقيادة الإسرائيلية ..

ولقد أحدث هذا رد فعل عنيفًا للغاية فى اجتماع مجلس الوزراء الإسرائيلى ، فمع اللعب بأوراق مكشوفة يصبح الأمر أكثر صعوبة ومشقة ، ويصبح من الضرورى على كل طرف أن يستنتج ويمنتهى السرعة ردود أفعال الطرف الآخر .

ولقد انقسم مجلس الوزراء الإسرائيلى إلى قسمين ، إزاء هذه المعلومة الخطيرة وحول التوقعات الخاصة برد فعل المصريين ، بعد أن انكشف أمرهم ، فى هذه اللحظات الأخيرة والحاسمة ..

البعض ، ومنهم وزير الدفاع الإسرائيلى ، كانوا يصرون على أن المصريين سيمضون فى خطتهم ، حتى بعد انكشاف أمرهم ، لأن التراجع سيصبح مستحيلاً ، بعد كل ما تم اتخاذه من إجراءات ..

أما البعض الآخر ، وعلى رأسهم رئيسة الوزراء الإسرائيلية نفسها ، فقد رأوا أنه من المستحيل أن يقدم المصريون على حماقة كهذه ، بعد أن أدركوا أن جيش (إسرائيل) الأسطورى قد

كشف أمرهم ، واستعد ليذيقهم هزيمة جديدة ، منكرة .. واحتدم الخلاف بين المجموعتين وراح يلتهم الدقيقة تلو الأخرى .

ثم وصلت مجموعة أخرى من الرسائل المتبادلة لاسلكيًا ، بين المخابرات المصرية وجاسوسها الذى مازال مجهول الهوية فى قلب تل أبيب ..

وعلى الرغم من أن الرسائل لم تحمل تصريحًا واضحًا ، إلا أن الأسلوب الواضح بين السطور ، والذى دسه خبراء المخابرات المصرية ، ببراعة منقطعة النظير ، كان يوضح بما لا يدع مجالاً للشك أن المصريين غاضبون للغاية من انكشاف أمرهم ، لأن هذا يضطرهم إلى تأجيل المواجهة ، إلى أجل غير مسمى .

بل إن معظم الرسائل ، التى فك الإسرائيليون شفرتها ، والمرسلة من المخابرات المصرية إلى عمليها ، كنت تسأل عما إذا كان من المحتمل أن يسعى الإسرائيليون إلى الانتقام ، وتوجيه ضربة انتقامية للقوات المصرية .

وهكذا ارتسمت أمام مجلس الوزراء الإسرائيلى صورة جديدة ، ووهمية ، ولكنها تناسب الغرور والغطرسة الإسرائيلية

والثقة المفرطة فى قدرات الجيش الإسرائيلى ، الذى تؤكد وسائل الإعلام ، فى كل دقيقة أنه جيش أسطورى لا يقهر ..

الصورة التى خلفتها الرسائل توحى بقيادة مصرية مذعورة ، لم تكد تدرك أن أمرها قد انكشف ، حتى راحت تتخبط فى هلع .

وعلى الرغم من هذا ، فقد أصر وزير الدفاع الإسرائيلى على المضى فى إجراءات استدعاء الاحتياط ، ورفع درجة الطوارئ إلى الحد الأقصى ، على الرغم من تنبيه رئيسة الوزراء له بأن هذا يستنزف الكثير من ميزانية إسرائيل فى الوقت الذى تعانى فيه أزمة اقتصادية طاحنة .

ولكن الوزير واصل إصراره على مطالبه ، بمنتهى الصلابة والعناد ..

الشىء الذى لم يدركه الكل ، وهم يناقشون هذه النقطة بمنتهى العنف ، هو أنهم يضيعون وقتًا ثمينًا للغاية ..

وأن هذا بالضبط ما تنشده القيادة المصرية وما تستهدفه خطة مخابراتها العريقة .. ولقد اتخذ مجلس الوزراء الإسرائيلى قراره ، فى الواحدة وسبع عشرة دقيقة بتوقيت القاهرة وبدأ وزير الدفاع الإسرائيلى إجراءاته ، فى تمام الواحدة والنصف ،

متصورًا أن أمامه أربع ساعات ونصف ساعة للاستعداد للمواجهة ، لو قرر المصريون المضى فى خطتهم ، على الرغم من انكشاف أمرهم .

لذا فقد كانت المفاجأة ساحقة صاعقة ، عندما تم تعديل الخطة المصرية لتعبر طائراتنا قناة السويس ، على طول خط المواجهة ، وتدك حصون ومطارات العدو فى تمام الثانية ظهرًا لينطلق الجنود المصريون بعدها كالأسود ، يعبرون قناة (السويس) فى وضح النهار ، ويهزمون أقوى خط دفاعى عسكرى عرفه التاريخ .

وكان هذا إيذانًا بانتصار المصريين فى مواجهتهم الحقيقية الأولى مع العدو الإسرائيلى بعد أن انتصروا بالفعل فى معركة أخرى حاسمة .

معركة اللحظات الأخيرة .

* * *

الهدف الأعمى ..

« الأمريكيون أرسلوا محطة إنذار مبكر للإسرائيليين .. »

لم تكد تلك المعلومة تقال ، فى حجرة الاجتماعات الرئيسية ، فى مبنى المخابرات العامة المصرية ، فى أوائل أغسطس 1973م ، حتى اتسعت عيون الكل عن آخرها ، واحتبست الكلمات فى الحلوق ، فران على الحجرة صمت مهيب ثقيل ، والملامح تنطق بما لم تفصح به الألسن ..

ففى ذلك الوقت ، وبعد أن اقترب موعد لحظة الحسم ، التى طال انتظارها ، كانت معلومة كهذه تكفى ، ليكون لها وقع الصاعقة ..

أو أشد هولاً ..

فمحطات الإنذار المبكر ، التى لم تتجاوز مراحلها التجريبية بعد ، كانت قادرة على كشف تحركات القوات الجوية من مسافة هائلة ، تكفى ليدرك العدو الإسرائيلى ، فى وقت مبكر ، أن (مصر) تشن هجومًا شاملاً ..

وهذا أمر بالغ الأهمية والخطورة فى تلك الفترة ..

والواقع أن أحدًا من الرجال لم يتصور قط ، ولو للحظة واحدة ، أن يكون هذا سبب الاجتماع العاجل ، الذى تم الإعلان عنه منذ ربع الساعة فحسب ، لذا فقد اضطربوا بضع لحظات .. لم يجد أحدهم خلالها ما يقول ، قبل أن يتابع رئيسهم ، محطمًا حاجز الصمت السميك :

ـ المحطة يتم تركيبها الآن ، فى أحد المطارات العسكرية فى (سيناء) ، وهى محصنة تمامًا ، ومحاطة بنظم أمن يستحيل اختراقها ، وسيبدأ تشغيلها فى الأول من سبتمبر ، وستستمر تجارب التشغيل شهرين كاملين قبل أن يبدأ تشغيلها بكامل طاقتها ، فى الأول من نوفمبر .

سأله أحدهم فى اهتمام :

ـ وما الذى تمثله مرحلة التجارب هذه ؟!

أجابه رئيسه بسرعة ، وكأنما كان فى انتظار السؤال :

ـ نفس ما يمثله تشغيلها .. ففى كل الأحوال يمكنها رصد الطلعات الجوية ، وتحديد معناها ومغزاها ، وإبلاغ القيادات الإسرائيلية فورًا ، لاتخاذ كل الاحتياطات ووسائل المقاومة اللازمة .

وتوقف بضع لحظات ، ليدير عينيه فى وجوههم ، قبل أن يتابع :

ـ والمطلوب منا أن نفسد عمل هذه المحطة بأى ثمن ، خلال مرحلة لم يتم تحديدها بعد ، ولكنها تقع فى نطاق شهرى تجارب التشغيل .

انهالت الأسئلة من الرجال فى محاولة لمعرفة كل التفاصيل المتعلقة بالأمر ، وراح رئيسهم يجيب بكل ما لديه من معلومات ..

(أ.ص) وحده لاذ بالصمت التام ، وهو ينصت جيدًا لكل ما يقال ، وعقله يعمل بأقصى طاقته كالمعتاد ..

كان يؤمن تمامًا بأنه ما من نطاق أمنى محكم تمامًا ..

هناك حتمًا ثغرة ما ، فى مكان ما ..

ثغرة لم ينتبه إليها أحد ..

وكل ما عليه هو أن يدرس الأمر ، بمنتهى الدقة ، وبكل المعلومات والتفاصيل المتاحة ، حتى يعثر على هذه الثغرة ، ويسعى لاختراقها ، و ...

ـ « لا توجد سوى وسيلة واحدة .. »

قطع قوله أحاديثهم وأسئلتهم بغتة ، فعاد الصمت يخيم على حجرة الاجتماعات ، والعيون كلها تتجه إليه فى تساؤل جعله ينهض من مقعده ، ويتحرك فى المكان، كعادته كلما بدأ التفكير فى خطة ما ، وهو يقول :

ـ بناء على كل المعلومات المتاحة ، يبدو من الواضح أن اختراق نظم أمن تلك المحطة التجريبية أمر مستحيل ، ولكن الأكثر استحالة هو أن نسمح لها بالعمل عندما تحين ساعة الصفر ، لذا فمن المحتم أن نجد وسيلة لتعطيلها فى اللحظة الحاسمة ، حتى لا تفسد خطة العبور المنتظر كلها .

سأله رئيسه فى قلق :

ـ هل فكر فى عملية عسكرية ؟!

هز (أ.ص) رأسه فى حزم ، مجيبًا :

ـ مطلقًا .. العملية العسكرية فى حد ذاتها ستثير انتباه الإسرائيليين وستدفعهم إلى التأهب لمواجهة الخطوة التالية .

ثم توقف بغتة ، ليتابع فى اهتمام ، وعلى نحو يوحى بأنه يحدث نفسه :

ـ ينبغى أن يتم تعطيل المحطة على نحو يبدو طبيعيًا تمامًا ، ولا يثير لدى الإسرائيليين أدنى شك أو قلق .

سأله أحد زملائه فى اهتمام :

ـ وكيف يمكن أن نفعل هذا ؟!

أجابه (أ.ص) وعقله يعيد دراسة الأمر مرة أخرى :

ـ بضربة من الداخل .

هتف أحدهم معترضًا :

ـ تتحدث كما لو أن هذا الأمر سهل !.. كلنا نعلم أن الإسرائيليين حذرون للغاية ، ومن المؤكد أنهم سينتقون كل العاملين فى تلك المحطة بدقة تامة ، وربما لا يسمحون لهم بإجراء أى اتصالات خارجية أيضًا .

أشار (أ.ص) بسبابته ، قائلاً :

ـ ولكن هناك مراحل تجريبية .

سأله آخر :

– وما الفارق ؟!

لوح بيده ، مجيبًا فى حزم :

– الفارق أن مراحل التجريب تحتاج إلى خبراء ، وفنيين ، ورجال آخرين ، ليسوا ضمن طاقم التشغيل الرئيسى .

قال رئيسه ، بلهجة يغلب عليها الحذر :

– هؤلاء أيضًا سيتم اختيارهم بمنتهى الدقة .

ابتسم (أ.ص) ابتسامة غامضة ، وهو يجيب :

– ولكنهم سيظلون مجرد علماء وخبراء وفنيين ، وليس بينهم من يحمل فى أعماقه روح العسكرية الحقة .

وأدار وجهه فى وجوه الجميع بدوره ، قبل أن يضيف فى حزم :

– وهذا يعنى أن علينا أن نتحرك فورًا .. وبأقصى سرعة ممكنة .

قالها ، ثم عاد إلى مقعده ، وطرح الأمر كله على مائدة البحث .

وكانت خطته بسيطة وعبقرية كالمعتاد ..

خطة اعتمد فيها على أسلوبه المتميز ، فى تقمص شخصية الخصم ، والتفكير بعقله وأسلوبه ، لاستنتاج خطواته وتحركاته القادمة ..

ولقد استمر الاجتماع بعدها لثلاث ساعات أخرى ، ناقش فيها الرجال كل التفاصيل ، ثم أقروا الخطة فى النهاية ، وتم إسناد العملية كلها إلى صاحبها ..

إلى (أ.ص) نفسه ..

وكعادته بدأ رجل المخابرات المحنك بجمع المعلومات .. كل المعلومات المتوافرة والممكنة ، عن محطة الإنذار المبكر ، وكل العلماء الذين اشتركوا فى تصميمها ووضع تفاصيل عملها الأساسية ..

يومان كاملان ، لم يذق فيهما هو ، أو أى شخص من فريق العمل التابع له لحظة واحدة من النوم ..

ولكن كل هذا الجهد لم يذهب هباء .. فى النهاية ، أصبح لديه ملف دقيق ، لكل ما ينبغى معرفته حول الأمر ..

وبعد أربع ساعات من النوم العميق ، لتصفية الذهن وإراحة العقل والجسد المجهد ، بدأ (أ.ص) فى تنفيذ خطته فورًا ..

كان يدرك أن الإسرائيليين سينتقون بمنتهى الدقة كل العلماء الذين سيتولون مسألة الإشراف على تجارب التشغيل ، وأنهم كعادتهم سيميلون إلى اختيار العلماء يهودى الديانة ، باعتبار أنهم ـ كما يفترض ـ سيكونون أكثر انتماء وولاء لإسرائيل ، مهما تكن جنسياتهم ..

ومن بين هؤلاء علماء الطاقة بالتحديد ..

وطبقًا لما قرر الخبراء ، فى جهاز المخابرات المصرى ، كان هناك ثلاثة فحسب من علماء الطاقة الأمريكيين تنطبق عليهم كل المواصفات التى يمكن أن تغرى خبراء (إسرائيل) ..

البروفيسير (دريك هانز) ، والبروفيسير (مارك هايدن) ، والدكتور (دافيد هلسن) ، وكان عليه أن يختار واحدًا منهم فحسب ، لتنفيذ خطته ..

وبعد دراسة طويلة ، اشترك فيها اثنان من الخبراء النفسيين وأحد علماء الطاقة من أساتذة هندسة (الإسكندرية) وقع الاختيار على الأول ..

البروفيسير (دريك هانز) ..

وهنا .. بدأت تحركات جهاز المخابرات العامة المصرية ، فى اتجاهين متوازين ، فى آن واحد ..

ففى صباح اليوم التالى ، بتوقيت (ميتشجن) ، بالولايات المتحدة الأمريكية ، وبينما كان البروفيسور (مارك هايدن) يبتاع بعض الأشياء البسيطة ، فى أحد المتاجر سلسلة (كروجر) ، احتك به شاب أنيق يحلى سترته بدبوس ذهبى على شكل فراشة صغيرة ..

ومع الاحتكاك ، شعر البروفيسير (مارك) بوخزة فى يده ، ثم فوجئ بقطرة دم ، تثب من موضع الوخزة ..

وهنا توقف الشاب ، وراح يعتذر بشدة عما سببه دبوسه الذهبى ثم أصر على تطهير الجرح بنفسه ، باستخدام منديل معطر ، أخرجه من جيبه ، وفض غلافه الواقى ، ثم مسح به موضع الوخزة باهتمام شديد ، وهو يواصل اعتذاراته ، ثم لم يلبث أن منح بطاقته للبروفيسير (مارك) ، حتى يمكنه مقاضاته لو أراد ..

وانتهى الأمر كله فى دقيقة واحدة ، انصرف بعدها الاثنان ،

كل إلى سبيله ، واستقل البروفيسير سيارته ، وذهب إلى مقر عمله ، وألم الوخزة يتلاشى تدريجيًا ..

ولكن بعد ساعتين فحسب ، ارتفعت حرارة الرجل ، وبدأ جسده يرتعش على نحو عجيب ، ثم لم يلبث أن شعر بدوار شديد ، وكاد يفقد الوعى ، لولا أن قام رفاقه بنقله إلى المستشفى القريب ، الذى أعلن إصابته بنوع من الحمى الفيروسية ، التى تحتاج ما بين أربعة إلى خمسة أسابيع من العلاج ، والراحة التامة فى الفراش ..

فى نفس اللحظة ، التى حدث فيها هذا ، كان الدكتور (دافيد هلسن) يستقبل زائرًا أصر على مقابلته ، لاستشارته فى أمر مهم جدًا ..

والواقع أن الرجل قد شعر بحيرة بالغة ، إذ إن الزائر الشرقى الملامح ، قد أخذ يتحدث معه لربع الساعة ، فى فناء الجامعة ، دون أن يستشيره فى أى شىء ثم لم يلبث أن انصرف ، وهو يبتسم ابتسامة كبيرة ويصافحه فى حرارة شديدة وكأنهما صديقان قديمان !

وعلى الرغم من عقليته العبقرية ، فإن الدكتور (دافيد) لم

يخطر بباله للحظة واحدة ، أن كل المطلوب كان ظهوره مع ذلك الشرقى الملامح ، فى مكان عام ، إذ كان هذا كافيًا لبذر بذور الشك فى قلب مراقبيه من الإسرائيليين الذين استبعدوه بالطبع من الترشيح ، خشية أن تكون له أى اتصالات مع المصريين أو السوريين ، خاصة أن ذلك الشرقى الملامح ، كان معروفًا لديهم بميوله المعادية للصهيونية .

وهكذا ، وببساطة وعبقرية ، لم يعد أمام الإسرائيليين سوى اختيار واحد ..

البروفيسير (دريك هانز) ..

وعندما تم إبلاغ البروفيسير (دريك) رسميًا بهذا ، وعندما وصلته تذكرة السفر إلى « تل أبيب » كان الرجل واقعًا بالفعل تحت السيطرة الكاملة للمخابرات العامة المصرية !

ويبدو أن الوسيلة التى تم استخدامها للسيطرة على البروفيسير (دريك) كانت عبقرية ومبتكرة للغاية ، لذا فإن أحدًا لم يفصح عن تفاصيلها قط باعتبارها سرًا لا ينبغى الكشف عنه أبدًا ..

المهم أن الرجل عندما وصل إلى (إسرائيل) ، منذ اللحظة

الأولى ، وحتى وصوله إلى (تل أبيب) ، كان الرجل يعلم أنه سيقوم بدور علمى فنى ، فى مكان ما من (إسرائيل) ، ولكنه يجهل التفاصيل كلها ..

إلا ما أبلغته به المخابرات المصرية بالطبع ..

ولقد تم نقله فور وصوله إلى مقر المخابرات الإسرائيلية ، حيث شرح له أحد المسئولين طبيعة مهمته ، ثم أخبره أنه سيقيم مع باقى طاقم العلماء ، فى فيلات صغيرة مجاورة وملحقة بمحطة الإنذار المبكر ، طوال الشهرين اللذين ستستغرقهما تجارب التشغيل ..

ووافق الرجل بلا مناقشة أو اعتراض ، وخاصة مع الأجر الضخم الذى يسيل له اللعاب والذى عرضته المخابرات الإسرائيلية.

وفى الصباح التالى وتحت حراسة مشددة ، تم نقل البروفيسير (دريك) مع خمسة من العلماء الآخرين ، إلى محطة الإنذار المبكر ..

ووصل البروفيسير (دريك هاتز) إلى المحطة ، ومخه يحوى تعليمات واضحة ومحددة ، وصارمة ، تلقاها من رجل المخابرات

المصرى ، الذى نجح فى السيطرة عليه هناك .. فى الولايات المتحدة الأمريكية ..

ولقد كانت التعليمات بسيطة مركزة ، ولم توح إليه قط بأى احتمالات مخيفة ، إذ كان كل المطلوب منه أن يجد مبررًا ، لإيقاف الطاقة والمحطة عن العمل فى خمسة مواعيد مختلفة ، ولمدة نصف ساعة فى كل مرة ..

ولقد استغل الرجل موقعه ، كخبير للطاقة ، خلال المرحلة التجريبية ، وأوقف المحطة بالفعل لمدة نصف ساعة ، فى العاشر من سبتمبر ، دون أن يحدث أى شىء .. مما شجعه على مواصلة تنفيذ الأوامر ، التى تقتضى إيقاف عمل المحطة لفترة مماثلة ، فى الخامس والعشرين من سبتمبر ، والسادس من أكتوبر ، والثالث عشر من أكتوبر ، ونهاية أكتوبر ..

ولقد حار الرجل طويلاً ، فى محاولة فهم سبب ما طلبه منه المصريون ، ولكنه أطاع الأوامر ، التى يبدو أنه لم يكن لديه سبيل لرفضها ، ووجد مبررًا آخر لإيقاف الطاقة ، فى السادسة والربع من مساء الخامس والعشرين من سبتمبر ، ولمدة نصف ساعة أيضًا ..

ولم يحدث أى شىء !

وفى الوقت نفسه ، كانت أحاديث الإسرائيليين داخل المحطة تؤكد كلها أن المصريين قد استسلموا للهزيمة ، ولحالة اللاسلم واللاحرب ، ولم يعد هناك أدنى احتمال لقيام بحرب ثأرية جديدة ..

وشعر البروفيسير (دريك) بالارتياح لهذه الأحاديث ، فقد توافقت مع وجهة نظره ، التى تقول إن المصريين يختبرون طاعته لهم فحسب ، وإنهم لن يلبثوا أن يفصحوا عن مطلبهم الفعلى ، فى المرة القادمة ..

ولأن السادس من أكتوبر كان يوافق عيد (كيبور) فقد كان من السهل عليه أن يجد مبررًا ، لإيقاف الطاقة والمحطة كلها ، بحجة إجراء بعض التجارب نظرًا لأن الكل كان يتمنى بضع دقائق من الراحة والاسترخاء فى ذلك اليوم ، خاصة أن الشواهد كلها كانت توحى بأن المصريين أيضًا فى حالة استرخاء تام على الجبهة ..

وفى (القاهرة) .. كان (أ.ص) يشعر بتوتر بالغ ، مع حركة عقارب الساعة نحو الواحدة والنصف ، فقد كان بحكم منصبه ، واحدًا من القلائل ، الذين يعرفون أمر ساعة الصفر ، ولم تكن

لديه وسيلة واحدة للتيقن من أن خطته تسير على ما يرام ، وأن محطة الإنذار المبكر قد تحولت إلى هدف أعمى ، لا يمكنه كشف الطلعة الجوية الأولى ، التى ستمهد ساحة المعركة للعبور ..

الوسيلة الوحيدة كانت نجاح الضربة والعبور بالفعل ..

لذا فقد ظل (أ.ص) فى حال توتر شديد ، حتى وصلته الأخبار أخيرًا ، فى تمام الثانية والنصف ..

لقد نجحت الضربة الجوية الأولى نجاحًا مبهرًا ، وقواتنا تتدفق الآن كالسيل ، عبر قناة (السويس) .

عندئذ .. وعندئذ فقط .. استرخى (أ.ص) على مقعده ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة ظفر كبيرة ..

فالآن فقط أدرك كم كانت خطته ناجحة ..

الخطة التى أفسدت دور أول محطة إنذار مبكر فى التاريخ وحولتها إلى مجرد هدف لطائراتنا ونسورنا البواسل ..

هدف أعمى !

* * *

ثمن الخيانة

تعالى وقع قدمى ضابط المخابرات المصرى الشاب ، يشق ذلك الصمت المهيب ، المطبق على أروقة مبنى المخابرات العامة ، فى كوبرى القبة ، وهو يتجه فى حزم وثبات إلى مكتب مدير الجهاز ، ثم يدق الباب فى هدوء ، وانتظر حتى سمع صوت مدير المخابرات يدعوه باسمه للدخول ، طبقًا للموعد الذى حدده مسبقًا لمقابلته ، فدفع الباب ، وعبر المسافة التى تفصله عن مكتب المدير فى خطوات واسعة ، والمدير يتابعه بنظراته الثاقبة الفاحصة ، قبل أن يسأله :

ـ هل انتهيت من دراسة القضية ؟

أجابه ضابط المخابرات الشاب :

ـ نعم يا سيادة المدير .. لدينا الآن كل الصور والوثائق والأدلة المطلوبة ، وننتظر أوامرك لإنهاء العملية .

لوح المدير بكفه ، وهو يقول :

ـ وفيم انتظارنا .. هيا .. على بركة الله .

ورفع من فوق مكتبه ملفًا ، ناوله للضابط الشاب ، الذى التقطه بابتسامة واثقة ، وهو يقول فى ارتياح :

ـ تحت أمرك يا سيادة المدير .

وعندما غادر المكتب ، كان يشعر بالسعادة ، لأنه سيضع أخيرًا نهاية لتلك القضية ..

قضية الخائن ..

* * *

(محمد سامى عبد العليم نافع) .. شاب مصرى من مواليد 1922 ، وواحد من الذين تصوروا أن أرض الوطن تضيق بهم ، فى تلك الفترة ، من عام 1956م ، فسافر إلى (ليبيا) ، بحثًا عن عمل ، وراح يجوب شوارع وطرقات (طرابلس) طويلاً دون جدوى ، قبل أن يكتشف أن فرص العمل فى (ليبيا) فى ذلك الحين ، لم تكن بأكثر من مثيلاتها فى (مصر) فأنهكه التعب ، وأصابه اليأس ، وراح يقضى أيامه جالسًا على مقهى (طرابلس) ، مكتفيًا بندب حظه ، وإعلان سخطه على وطنه ..

وذات يوم ، وبينما كان يقضى ساعاته الطويلة على مقهى (طرابلس) ، جلس إلى جواره شاب شرقى الملامح ، وسأله بابتسامة كبيرة :

ـ أنت مصرى .. أليس كذلك ؟

أجابه (سامى) فى ضجر :

ـ بلى .. وماذا عنك ؟

أشار الشاب إلى صدره ، وقال :

ـ أنا لبنانى .. لى أقارب هنا ، آتى لزيارتهم بين الحين والحين .

تنهد (سامى) وقال :

ـ تصورتك مثلى ، تبحث عن عمل .

كانت هذه هى البداية التى ينتظرها ذلك الشاب ، الذى قدم نفسه باسم (سليم) ، أو هى بداية الخيط ، الذى التقطه ليتبادل حديث العمل مع (سامى) ، والذى انتهى بوعده له ، بأن يجد له عملاً فى ميناء (جنوه) فى (إيطاليا) ..

وبعد عدة أيام ، اصطحب (سليم) (سامى) إلى (إيطاليا) ، وفى (روما) منحه عشرة آلاف ليرة إيطالية ، لسد نفقاته وأجرة الفندق ، ثم أخبره بأن زميلاً سيلتقى به فى اليوم التالى ، ليمنحه العمل ..

وهنا انتهت مهمة (سليم) ، الذى لم يكن فى الواقع سوى واحد من عملاء المخابرات الإسرائيلية فى الخارج ، تقتصر مهمته على اصطياد المصريين ، ونقلهم إلى حيث يمكن تجنيدهم لحساب (الموساد) ..

وهنا أيضًا بدأت مهمة ضابط المخابرات الإسرائيلى ، المسئول عن عملية التجنيد ، والذى قدم نفسه باسم (عصام) ، عندما قابل (سامى) فى اليوم التالى ، وراح يطرح عليه عددًا من الأسئلة الدقيقة ، حول اسمه ، وعمره ، وعائلته ، وأصدقائه ، ومعارفه ، وخبراته السابقة ، وبعدها منحه عشرة آلاف ليرة إيطالية أخرى ، وحصل منه على إيصال بالمبلغ هذه المرة ..

وعلى الرغم من أن (سامى) لم يتسلم عملاً ما ، بعد زيارة (عصام) وطوال الأيام العشرة التالية لذلك ، إلا أنه راح ينفق ما لديه من نقود ، ونفدت الليرات الإيطالية عن آخرها ، فبدأ يسأل موظف الاستقبال فى قلق عصبى :

ـ ألم يأت السنيور (عصام) بعد ؟ .. ألم يترك أية رسائل ؟

وقبل أن يبلغ (سامى) حافة الانهيار ، ظهر (عصام) ، وقال فى هدوء :

ـ لقد عثرت لك على عمل ممتاز .

هتف (سامى) فى لهفة .

ـ حقًا ؟!.. وما هو ؟

أجابه وهو يفحص ردود أفعاله جيدًا :

- ستعمل لحساب منظمة دولية .. شيء أشبه بوكالة أنباء ، تجمع المعلومات العسكرية والاقتصادية عن الدول ، وسيكون مقر عملك في (دمشق) ، وستحصل على مائة دولار شهريًا .. ما رأيك ؟

ووافق (سامى) دون تردد ، وهنا قفز بـه (عصام) مباشرة إلى الخطوة التالية ، وأخبره أن التراسل بينهما سيتم باستخدام الأحبار السرية ، بحجة ضمان سرية المعلومات ، خشية المنافسة ، وتم تدريب (سامى) على استخدام الحبر السرى وأدواته ، وسلمه (عصام) الحبر السرى ، ومحلول الإظهار ، وحدد له عنوانًا للتراسل في (روما) ، وهو 20 شارع جرازيولى ، وعنوانًا يتلقى فيه (سامى) الرسائل ، على فندق قصر النيل في دمشق ، وفي النهاية أعطاه ثلاثمائة دولار ، وأخبره أن مرتبه سيتم تحويله شهريًا باسمه ، على بنك دى روما في دمشق ، وبعدها أمسك يده في قوة ، وقال :

- والآن هل تريد معرفة اسم المنظمة ، التى ستعمل لحسابها ؟

قال (سامى) في سرعة :

- بالطبع .

وهنا صارحه (عصام) بأنه يعمل لحساب المخابرات الإسرائيلية ..

ولكن (سامى نافع) لم يتراجع ..

لقد اختار طريقه ..

طريق الخيانة ..

وسافر (سامى) إلى (دمشق) في مهمة محدودة ، ألا وهى جمع كل ما يمكنه من معلومات عن القدرة العسكرية لسلاح الطيران المصرى والسورى ، والمطارات ، والمنشآت ، بالإضافة إلى إجابة كل ما يرد إليه من أسئلة ، على عنوانه في (دمشق) ، بالحبر السرى ..

وفي البداية لم يكن الأمر سهلاً ، وبدت المهمة شاقة وعسيرة بالنسبة لسامى ، حتى التقى في بهو الفندق بعدد من رجال القوات الجوية المصرية ، حضروا إلى (دمشق) في مهمة خاصة ، وأقاموا في الفندق نفسه ..

ومن بين هؤلاء ، كان (مرتضى التهامى) الميكانيكى الجوى ، الذى نجح (سامى) في إقامة صداقة وطيدة معه ، وراح يغدق عليه في سخاء ، ويُقيم له السهرات الحمراء ، ثم يحصل منه على أجوبة لكل أسئلته واستفساراته ، ويرسل ما لديه بالحبر السرى مباشرة إلى ذلك العنوان في (روما) ..

وفي مارس 1958 ، وبمشورة (الموساد) ، قرر (سامى)

مصارحة (مرتضى) ، فانتظر واحدة من اللحظات التى يغيب فيها العقل ، وسط السهرات الحمراء ، وقال لمرتضى مباشرة ، ودون مراوغة :

- هل تحب أن تربح خمسين جنيهًا شهريًا ؟

تطلع إليه (مرتضى) فى دهشة ، وقال :

- ومن يكره هذا ؟

سأله (سامى) فى حزم :

- مهما كان الثمن .

هتف (مرتضى) :

- بالطّبع .. إننى مستعد للتعاون مع إبليس نفسه ، مقابل مثل هذا المبلغ .

وهنا أدرك (سامى) أنه أصاب هدفه بمنتهى الدقة والإحكام ، فتراجع فى مقعده فى ارتياح وثقة ، وقال :

- لا .. ليس مع إبليس .. بل مع (الموساد) .

فى البداية لم يفهم (مرتضى) ما تعنيه الكلمة ، فشرح له (سامى) دون مراوغة أن (الموساد) هو جهاز المخابرات الإسرائيلى ..

والعجيب أن (مرتضى التهامى) لم يتردد أو يتراجع ..

هو أيضًا اختار الطريق نفسه ..

طريق الخيانة ..

ومقابل هذا المبلغ ، راح (مرتضى) يمد (سامى) بالمعلومات ، بل لقد سمح له بالتسلل إلى المطار الحربى ، حيث التقط بعض الصور للطائرات والمطارات ، وأرسلها أيضًا إلى (روما) ..

وفى إبريل 1958م ، انتهت مهمة (مرتضى) الرسمية فى (سوريا) ، فعاد إلى (القاهرة) ، وأعطاه (سامى) رقم صندوق البريد 2233 فى (دمشق) ليراسله عليه ، وأرسل إليه (مرتضى) ، فور استئجاره لحجرة مفروشة فى (القاهرة) بعنوانه الجديد ، الذى أبلغه (سامى) بدوره إلى (روما) ..

وفى يوليو 1958م ، وصل (سامى) إلى (القاهرة) ، وزار (مرتضى) ، وهو يحمل معه خطابًا بالحبر السرى من (الموساد) ، يطلبون فيه بعض المعلومات عن القوات الجوية فى مطار (إنشاص) ، وجمع (مرتضى) المعلومات خلال يومين فحسب ، ودربه (سامى) على إرسال خطابات بالحبر السرى إلى مقر (الموساد) مباشرة فى (روما) ..

وهكذا قطع (سامى) شوطًا كبيرًا فى طريق الخيانة ..

لقد تحول من تلميذ إلى مدرب ..

وحانت لحظة القفز إلى الخطوة التالية ..

واستدعت المخابرات الإسرائيلية (سامى نافع) إلى (روما) ، فى يوليو 1959م ، حيث استقبله (عصام) بابتسامة واسعة ، وهو يقول :

ـ مرحبًا .. لقد قمت بعمل جيد للغاية فى دمشق .

سأله (سامى) فى لهفة :

ـ هل يعنى هذا أن أجرى سيرتفع ؟

ضحك (عصام) ، وقال :

ـ أهذا كل ما يعنيك ؟

قال (سامى) فى تبرم :

ـ وماذا سواه ؟

ابتسم (عصام) ابتسامة خبيثة ، أشبه بابتسامة ثعلب ماكر عجوز ، وهو يتفرس ملامح (سامى) جيدًا ، قبل أن يقول :

ـ بل ما يعنيه فى الواقع هو أنك تحتاج إلى تدريبات أكثر تطورًا .

هتف (سامى) فى انزعاج :

ـ وماذا عن الأجر ؟

أجابه (عصام) فى خبث :

ـ سيرتفع بالطبع .

وهنا هدأت نفس (سامى) ، وبدا مبتهجًا ، وهو يقول :

ـ فى هذه الحالة يمكنكم تدريبى على ما يحلو لكم .

فحصه (عصام) بنظراته مرة أخرى ، وقال :

ـ سيتغير أسلوب التراسل بيننا .

سأله فى قلق :

ـ أهو حبر سرى جديد ؟

برقت عينا (عصام) ، وهو يقول :

ـ بل اللاسلكى .. سنتراسل من الآن فصاعدًا بواسطة اللاسلكى ، وطوال الأشهر الثلاثة التالية ، وداخل منزل خاص فى قلب (روما) ، مؤجر بمعرفة المخابرات الإسرائيلية ، قام (عصام) بتدريب (سامى) على الإرسال والاستقبال اللاسلكى ، وعلى استخدام الشفرة ، و(سامى) يشعر بالفخر والزهو ، وبأنه قد صار عميلاً من نوع خاص ومتميز ..

وفى نهاية فترة التدريب ، سلم (عصام) تعليمات التراسل الجديدة ، ومواعيد الإرسال والاستقبال ، وكتاب حل الشفرة ، وموجات الطوارئ ، وجهاز أسطوانات جديدًا ، وتم إخفاء جهاز الإرسال والاستقبال اللاسلكى داخله فى مهارة ، وآلة تصوير ذات عدسة إضافية ، وحاجزًا للضوء ، وإضافات تجعلها صالحة لتصوير المستندات ..

وفى هذه المرة انتقل (سامى) للعمل فى (القاهرة) ، مع أوامر جديدة بجمع كل ما يمكن من معلومات ، عن مطار (ألماظة) الحربى ، وعدد وأسماء الطيارين العاملين فيه ، ونوعية تدريباتهم ، وأنواع الطائرات به ، وتسليحها ، وإعدادها ، وعددها ..

وأيضًا تم رفع مرتبه إلى مائة وخمسين دولارًا ، بالإضافة إلى ستمائة دولار أخرى ، منحه (عصام) إياها كمكافأة ..

وفى أكتوبر 1959م ، وصل الخائن إلى القاهرة ، وبدأ عمله الجديد ، دون أن يُدرك أن هناك من ينتظر حضوره بفارغ الصبر ..

والمقصود هنا ليس (مرتضى التهامى) ، كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان ..

بل جهاز المخابرات ..

المخابرات المصرية ..

جمع (سامى) أمامه كل ما لديه من معلومات حول مطار (ألماظة) ، وراح يفرك كفيه فى لهفة ظافرة ، وهو يدرس ويحسب ما سيحصل عليه من دولارات ، مقابل هذه المعلومات ، وأحضر جهاز الأسطوانات ، وراح يحل أجزاء جهاز الإرسال بكل دقة وروية ، واستعد لإرسال المعلومات ، و...

وفجأة ، ارتفع رنين جرس الباب ، فانتفض جسد (سامى) فى قوة ، وأسرع يُعيد قطع جهاز الإرسال إلى مكانها ، ويخفى الأوراق والمعلومات ، وجرس الباب المتصل يثير أعصابه ، ويُضاعف توتره ثم لم يلبث أن فتح الباب ، وهو يقول فى حدة وعصبية ، فرضها توتره :

ـ من أنت ؟ .. ماذا تريد ؟

تطلع إليه ضابط المخابرات المصرى الشاب فى هدوء ، ثم أزاحه عن طريقه فى حزم ، وهو يقول :

ـ ستعرف بعد قليل .

هوى قلب (سامى) بين ضلوعه ، عندما رأى الرجال ، الذين برزوا من خلف ضابط المخابرات فجأة ، كما لو أنهم قد نبتوا من العدم ، وانتشروا بسرعة فى أرجاء الشقة ، وسأل بصوت مرتجف :

ـ ماذا تريدون منى ؟.. أنا مواطن شريف .

اتجه ضابط المخابرات إلى جهاز الأسطوانات وهو يقول :

ـ مواطن شريف ؟!.. ألا تبدو لك العبارة سخيفة يا (سامى) .. أقصد يا (محمد سامى عبد العليم نافع) ؟

جف لُعاب (سامى) ، وراحت أطرافه ترتجف فى شدة ، والضابط يحل أجزاء جهاز الأسطوانات فى هدوء ، ويقوم بتركيب جهاز الإرسال اللاسلكى ، ثم يتجه إلى درج سرى ، ويفتحه بوسيلة خاصة ، كان (سامى) يتصور أنه الوحيد الذى يعرفها ، ويلتقط منه الصور والمعلومات ، قبل أن يقول :

ـ أما زلت تصر على عبارة (مواطن شريف) هذه .

وانهار (سامى) تمامًا ، ولولا الأيدى التى أمسكت به ، لتهاوى فاقد الوعى ، وهو يقول :

ـ كيف .. كيف عرفتم ؟

أجابه ضابط المخابرات فى هدوء :

ـ الوطن الذى خنته ، دون وازع من ضمير أو شرف ، ليس بالسذاجة التى تصورتها أيها الخائن .. لقد رأينا ما يفعله

(مرتضى التهامى) ، وسجلنا ارتباطك غير الطبيعى به فى (دمشق) ومن هنا بدأنا فى مراقبتكما ، وتسجيل تحركاتكما وتصرفاتكما ، حتى اكتملت لدينا كل الأدلة ، وحانت لحظة إغلاق هذه القضية .

قال فى انهيار :

ـ و(مرتضى) .. هل .. هل ..؟

أجابه ضابط المخابرات ، قبل أن يتم عبارته :

ـ نعم .. لقد ألقينا القبض عليه قبلك .. وبالمناسبة .. لا تندم على أنك لم تجد الوقت الكافى لإرسال تلك المعلومات ، فلم تكن لتفيدهم هناك ، فى (تل أبيب) فكلها معلومات زائفة .. نحن منحناك إياها ..

وانهار (سامى نافع) أكثر :.

كان هذا فى الثانى من فبراير عام 1960 ، عندما ألقى القبض على (سامى) و(مرتضى) ، ولقد تمت محاكمتهما بتهمة التجسس والخيانة ، وعندما صدر حكم المحكمة بإعدام (سامى نافع) شنقًا ، وبالأشغال المؤبدة (لمرتضى مصطفى التهامى) صرخ (سامى) من خلف القضبان فى رعب وانهيار :

- لا .. لا تشنقونى .. أرجوكم .. أريد أن أعيش .. سأفعل أى شىء تطلبونه لأعيش .

ولكن أحدًا لم يلتفت إليه ، أو يهتم به ، أو يلقى إليه بالاً ..

لقد اختار طريقه ، ومضى فيه حتى النهاية ، وصار من المحتم أن يدفع الثمن ..

ثمن الخيانة .

* * *

جاسوس بالتفصيل

لم يكد رجل المخابرات المصرى (ن . ط) يصل إلى مبنى المخابرات ، فى (كوبرى القبة) ، فى ذلك الصباح المبكر ، من يناير 1973م ، حتى أدرك على الفور أن الأمور كلها لا تسير على النمط المعتاد ، وخاصة عندما علم أن مدير الجهاز بنفسه يطلب رؤيته ، فور وصوله إلى المبنى ، مما يوحى ببشائر عملية جديدة ، أو بتطورات غير متوقعة ، فى عملية سارية ، من العمليات التمهيدية للحرب الثأرية ، التى ينتظرها ويتمناها كل مصرى وعربى ، منذ نكسة يونيو 1967م ..

ولأن (ن . ط) رجل مخابرات محترف ، له باع طويل فى الصراع العربى الإسرائيلى ، فقد جمع كل أوراقه وملفات العمليات التى يتابعها ، وذهب بحمله كله إلى مكتب المدير ، استعدادًا لأية معلومات مطلوبة ..

ولكن الأمر لم يكن يرتبط بأية عمليات سابقة ..

لقد استقبله المدير فى اهتمام ، ودعاه للجلوس ، ثم مال نحوه ، قائلاً فى حزم :

- الرئيس يطلب معلومات دقيقة للغاية ، حول خط (بارليف) ، واستعدادات الإسرائيليين لأى هجوم مصرى .

لم يكن ذلك المطلب جديدًا ، فالكل يسعى بكل طاقته ، منذ إنشاء خط (بارليف) ، لجمع كل وأدق المعلومات عنه ، باعتباره أقوى خط دفاعى عرفه التاريخ ، وأصعب مانع عسكرى ، عرفته كل الحروب ، فى كل الأزمان ..

ولكن أسلوب المدير كان يوحى بأن المطلوب أكثر أهمية .. وأكثر خطورة بكثير ، لذا فقد اعتدل (ن . ط) فى مجلسه ، وجلس يستمع إلى المدير فى اهتمام بالغ ، وهو يتابع :

ـ الإسرائيليون أسندوا كل ما يتعلق بتأمين ومتابعة خط (بارليف) ، إلى الجنرال (إيزاك هركابى) ، وهو رجل شديد الحرص والدقة ، يشك فى أصابع كفيه ، ولا يمنح ثقته إلى أى مخلوق ، وهو يدير كل الأمور بنفسه ، ويتخذ كل قراراته دون الرجوع للآخرين ، ثم إنه عزب ، بلا أصدقاء تقريبًا ، لا يدخن ، أو يشرب الخمر ، أو يلعب القمار ، أو يبدى حتى اهتمامًا بالنساء .. اهتمامه الوحيد بعمله وحده ، ويقدم تقاريره إلى وزير الدفاع الإسرائيلى شخصيًا ..

التقى حاجبا (ن . ط) ، وهو يغمغم :

ـ وكيف يمكن انتزاع المعلومات من رجل كهذا ؟

تراجع المدير من مقعده ، وهو يقول بمنتهى الحزم والصرامة :

ـ هذه مهمتك .

جاء دور (ن . ط) ، لينعقد حاجباه فى شدة ، والمدير يتابع :

ـ الرياسة ترى أن المعلومات الدقيقة المطلوبة لا يمكن الحصول عليها ، إلا من الجنرال (هركابى) نفسه ، وعليك أن تنتخب معاونيك ، وتجد معهم وسيلة لبلوغ هذا الغرض .

ثم اعتدل فى مجلسه ، مضيفًا بمنتهى الحزم :

ـ وبأى ثمن .

لم يعد هناك ما يقال بعد هذا ، وبعد أن تلقى (ن . ط) أوامره ، وعرف مهمته ، وانتقلت الكرة إلى ملعبه ، وصار عليه أن يسعى لتنفيذ المطلوب .. وبأى ثمن ..

وطوال الأسبوعين التاليين ، راح (ن . ط) ومجموعته يفحصون ملف الجنرال (هركابى) ، بدقة لا مثيل لها ، وصبر وتأن لا حدود لهما ..

لقد راجعوا كل معلومة ، وكل جملة ، وكل كلمة ..

بل وكل حرف ..

كانوا يجتمعون كل صباح ، ويفحصون كل عادات وأساليب وطبائع الجنرال (هركابى) ، من قهوة الصباح ، التى يتناولها بدون سكر ، إلى روايات الجاسوسية ، التى يطالع صفحاتها يوميًا قبل النوم ..

عرفوا كل شيء عنه .. ذوقه الشخصى .. اهتماماته السياسية .. ميوله الاجتماعية ..

كل شيء ..

ولكنه كان ـ كما وصفه المدير تمامًا ـ رجلاً بلا نقطة ضعف ، يمكن بلوغه من خلالها ..

ولكن (ن . ط) كان يعلم ، بحكم خبرته وتجاربه ، وكل ما تعلمه فى المخابرات العامة ، أنه ما من شخص منيع تمامًا ، لأننا جميعًا بشر ، والكمال لله وحده ..

لكل مخلوق فى الكون نقطة ضعف ، قد تبدو واضحة للأعين ، أو تختفى فى أعماقه ، أو تكمن حتى فيما يتصوَّره علامة قوة وتميز ..

ولكن مع (إيزاك هركابى) ، أعيته الحيلة بالفعل لأسبوعين كاملين ، أصابه الإرهاق خلالهما ، كما أصاب مجموعته ، حتى إن أحدهم قد تثاءب ذات ليلة فى تهالك ، وحاول أن يبتسم ، وهو يقول :

ـ يبدو أننا قد اخترنا المهنة الخطأ يا رفاق .. فلو أننا عملنا فى وظائف مدنية ، أو حتى عسكرية عادية ، لكان أقصى ما يشغل بالنا الآن هو أن نذهب إلى العمل باكرًا بزى نظيف ، وحذاء لامع جديد ..

ضحك زملاؤه فى خفوت مرهق ، وتبادلوا معه بعض التعليمات الطريفة ..

فيما عدا (ن . ط) ..

وجده انعقد حاجباه فى شدة ، واستغرق فى تفكير عميق ، مع دعابة زميله ..

تفكير استغرق كيانه كله ، وشغف به جزء من عقله ..

ثم فجأة ، وكما فعل (أرشميدس) ، وجد نفسه يعتدل فى مجلسه ، ويهتف بكل اللهفة والفرح والحماس :

ـ وجدتها !

استدار إليه الجميع ، واشتعلت فى عيونهم لهفة متسائلة ، فقال بنفس الحماس ، وهو يلوِّح بيديه فى قوة :

ـ وجدت نقطة الضعف ، التى يمكننا التسلل عبرها إلى الجنرال الأسطورى (إيزاك هركابى) .

ولساعة كاملة ، راح (ن . ط) يشرح خطته ، التى انبهر بها الجميع ، ثم راحوا بعدها يناقشونها بكل اهتمام لثلاث ساعات أخرى ، قبل أن يتفق الكل ، ويصدر الأمر ببدء التنفيذ فورًا ..

ولم يمض أسبوع واحد ، على ذلك الاجتماع الحاسم ، حتى

وصلت برقية من (جنوة) فى (إيطاليا) إلى (دافيد سولومون) ، صاحب متجر الملابس الشهير فى (تل أبيب) ، تخبره أن جده لأبيه ، ذلك الترزى الشهير ، قد توفى فجأة ، وترك له ثروته كلها ، وعليه الحضور فوراً لاستلام ميراثه ، وكل متعلقاته ..

يومها ، بكى (دافيد) بشدة ، حتى إنه أثار شفقة وتعاطف كل زبائنه ، وأصحاب المتاجر المحيطة به ، وتلقى منهم العزاء ، قبل أن يحمل حقيبته ، ويسافر إلى (جنوة) ، ليتسلم ميراثه الذى قدره البعض بمليون دولار على الأقل ..

وفى (إيطاليا) ، التقى (دافيد) بمحامى الأسرة ، الذى مال نحوه ، وهمس فى أذنه ، وهما بعد فى المطار:

ـ الرجال ينتظرونك فى الموقع (واى) .. إنها مرحلة تدريب جديدة ..

وعلى الفور ، انطلق (دافيد) إلى ذلك المنزل الآمن ، الذى حدَّده له المحامى ، ولم يكد يبلغه ، حتى استقبله (ن . ط) بنفسه ، وهو يبتسم ابتسامة كبيرة ، قائلاً :

ـ حمداً لله على سلامتك يا (سليمان) .. أتعشَّم ألا تكون قد نسيت اللغة العربية ، بعد السنوات التى قضيتها فى (إسرائيل) ..

تعانقا فى حرارة شديدة ، وبدا (سليمان) جمّ السعادة ، وهو

يلتقى برجال المخابرات المصرية ، بعد سنوات طوال ، اقتصرت فيها تعاملاتهما على الرسائل المكتوبة بالحبر السرى ، أو البث اللاسلكى المشفر ..

كان يتوقَّع بالفعل أن يتلقى دورة تدريبية جديدة ، خاصة وأن آخر تدريباته كانت فى عام 1968م ، بعد أن استقر به المقام فى (تل أبيب) ، وذاب وسط مجتمع المهاجرين اليهود الجدد ، حاملاً تلك الهوية ، التى أبدع رجال المخابرات فى إعدادها وتدريبه عليها ، كيهودى من أم يهودية وأب ينتمى إلى أسرة إيطالية عريقة ..

ومنذ ذلك الحين ، اقتصرت مهمته على غرس جذوره فى أعماق المجتمع الإسرائيلى ، وتعميق وجوده وانتماءاته ، حتى يصير واحداً منهم ، ولا يتطرَّق إليه الشك قط ..

وهذا ما نجح فيه بالفعل ، على الرغم من المعلومات الغزيرة ، التى راح ينقلها إلى (القاهرة) ، طوال العامين السابقين بلا انقطاع ..

ولكن (ن . ط) فاجأه بشدة ، عندما أخبره عن طبيعة تلك الدورة التدريبية المكثفة ، التى سيتلقاها لمدة شهر كامل ، فى (جنوة) الإيطالية ..

فلقد تم استدعاء (سليمان) ، أو (دافيد سولومون) ، من

(تل أبيب) إلى (جنوة) ، حتى يتم تدريبه على التفصيل .. وتفصيل الأزياء العسكرية بالتحديد ..

كان هذا تطورًا طبيعيًا فى تلك الفترة ، لتاجر ملابس ، ورث عن جده ثروته وموهبته وخبرته ، وعاد لإنشاء تجارة جديدة ، تدر المزيد من الربح ، كأى يهودى ..

ولهذا لم يندهش رفاق (دافيد) أو زملاء عمله كثيرًا ، عندما بدأ فى إنشاء الأتيليه الخاص به ، لبدء نشاطه الجديد ..

وفى إبريل 1973م ، بدأت شهرة (دافيد سولومون) فى الانتشار ، فى مجتمع (تل أبيب) ، وصار من الطبيعى أن يسعى إليه كبار وعلية القوم ، لتفصيل ملابسهم وأزيائهم ، التى تبهر الكل ، بدقتها وأناقتها ، وحسن تنفيذها وحياكتها ..

وأمام الكل ، كان (دافيد) هو الذى يؤدى العمل كله بنفسه ، ولكن الواقع أنه كان يستعين بثلاثة من المحترفين ، لتنفيذ العمل فى أسرع وقت ممكن ، تحت إشرافه شخصيًا ، لضمان الجودة المطلوبة ، التى تصنع سمعته وشهرته ..

وفى أوائل يوليو 1973م ، وبتدبير من المخابرات المصرية ، أضيف اسم (دافيد سولومون) إلى قائمة موردى أزياء الجيش الإسرائيلى ، بعد أن أجرى جهاز المخابرات الحربية (أمان) كل التحريات اللازمة بشأنه ..

وفى (القاهرة) ، استرخى (ن . ط) فى مقعده ، عندما بلغه الخبر ، واتسعت ابتسامته الظافرة الواثقة ، وهو يقول :

ـ عظيم .. بقى أن ندفع الجنرال (هركابى) نحوه ..

سأله أحد أفراد مجموعته فى اهتمام :

ـ هل تعتقد أن هذا ممكن ؟!

لوَّح (ن . ط) بكفه ، مجيبًا :

ـ أناقة الجنرال (هركابى) ، واهتمامه البالغ بأزيائه ، هى نقطة الضعف الكبرى فى شخصيته ، وهو حريص دائمًا على أن يكون الأفضل ، فى كل جزئية من جزئيات حياته ، ولن يمكن أن يقاوم ألا يقوم بتفصيل أزيائه أفضل ترزى ، فى (تل أبيب) كلها ..

ثم هزَّ كتفيه ، واتسعت ابتسامته ، وهو يضيف :

ـ ولا تنس أننا سندفعه إلى هذا بأسلوبنا الخاص ..

لم يخبرنا أحد قط ، كيف دفعت المخابرات المصرية (هركابى) نحو (دافيد) ، ولا كيف أغرته بالتعامل مع نصف الإيطالى ، كما أسموه هناك ..

ولكنه فعلها ..

فذات يوم ، فى منتصف أغسطس 1973م ، تلقى (دافيد سولومون) دعوة لزيارة الجنرال (هركابى) فى مكتبه الخاص ، فى وزارة الدفاع ..

وبعد المرور بكل إجراءات الأمن الشاقة ، التى أضاف إليها (هركابى) إضافات جديدة أكثر تعقيدًا ، التقى (دافيد) بالجنرال الأسطورى ، الذى استقبله ببرود شديد ، ولم يدعه إلى الجلوس ، وإنما راح يرمقه بألف نظرة ونظرة ، وكأنما يختبر كل خلجة من خلجاته ، قبل أن يقول فى صرامة شديدة ، بدت وكأنها جزء من تكوينه الشخصى :

- يقولون إنك أفضل ترزى عسكرى ، فى (إسرائيل) كلها .

ابتسم (دافيد) ، وهو يقول :

- الواقع أنهم يبالغون كثيرًا ، و ..

قاطعه الجنرال بزمجرة شرسة ، وهو يقول :

- إننى أكره التواضع .

ثم نهض من خلف مكتبه فى حدة ، متابعًا بنفس الصرامة الشرسة :

- لقد جمعت كل المعلومات اللازمة عنك ، وعرفت أنك مسجل كمورد للأزياء العسكرية هنا ، وأنك الأفضل .

وشدَّ قامته ، وانعقد حاجباه أكثر وأكثر ، مضيفًا بكل صرامة الدنيا :

- وأنا لا أتعامل إلا مع الأفضل .

رقص قلب (دافيد) بين ضلوعه ، وهو يقول بكل الحماس :

- أنا رهن إشارتك يا جنرال .

مطَّ الجنرال شفتيه ، وكأنما لا يرضيه أى شىء فى الدنيا ، وعاد يجلس خلف مكتبه ، قائلاً فى عصبية واضحة :

- أنت تعلم أننى أحد أبطال حرب 1967م ، وأننى قد حصلت على وسام الشجاعة ، بعد إصابتى بشظية فى كتفى الأيسر .. وهذه الإصابة هى السبب فيما تراه ، من عدم تماثل الكتفين ، ومن هبوط مستوى أحدهما عن الآخر .. لقد لجأت إلى أكثر من ترزى عسكرى ، لتفصيل سترة تخفى هذا العيب ، ولكن أحدهم لم يفلح فى هذا قط ، والسؤال هو .. هل يمكن أن تفلح فيما فشل فيه الآخرون ؟!

صمت (دافيد) بضع لحظات ، وهو يتأمل ذلك العيب ، الذى أخبره به (ن . ط) فى (جنوة) وتصاعد فى أعماقه الانبهار ببراعة وقدرات المخابرات المصرية ، قبل أن يبتسم ، قائلاً بكل الثقة والهدوء :

- بالتأكيد يا جنرال .. بالتأكيد .

رمقه الجنرال بنظرة أخرى أكثر صرامة ، قبل أن يقول فى غلظة :

- سنرى ..

وبمنتهى الدقة والاهتمام ، راح (دافيد) يسجل مقاييس سترة الجنرال (هركابى) العسكرية ، ودرجة الميل بين كتفيه ..

والواقع أنه لم يكن بحاجة إلى كل هذا فعليًا ، فقد كان لديه تصميم السترة المناسبة ، لإخفاء ذلك العيب ، منذ تلقى تدريباته المبتكرة فى (جنوة) ..

وفى الأتيليه الخاص به ، وبمعاونة أحد المحترفين الثلاثة هناك ، تم تعديل التصميم الأصلى؛ ليناسب المقاييس الجديدة ، ثم راح الاثنان يعملان على تفصيل سترة الجنرال الجديدة ، وتثبيت أزرارها الذهبية بمنتهى الدقة ..

ولقد انبهر الجنرال تمامًا بتلك السترة الجديدة ، خاصة وأنها قد أخفت عيب الكتفين عن الأعين ، إلى درجة مدهشة ، أثارت إعجاب وزير الدفاع نفسه ، عندما استقبله فى مكتبه ، وابتسم قائلاً :

- هذه السترة تبدو رائعة عليك يا (هركابى) .. لقد جعلتك أكثر وسامة ، وأصغر سنًا ..

ومع هذا الإطراء ، كان من الطبيعى أن يطلب الجنرال سترتين أخريين ، استبدل بهما كل ستراته القديمة ، التى عجزت عن إخفاء عيب كتفيه ، أو النقص الوحيد فى تكوينه ، من وجهة نظره ..

وفى (القاهرة) ، بدا (ن . ط) ظافرًا واثقًا ، وهو يقول لمدير الجهاز بابتسامة كبيرة :

- تمت المهمة بنجاح .

وهذه العبارة بالضبط ، هى التى نقلها مدير الجهاز إلى رئيس الجمهورية ..

ومعها نقل شريط التسجيل الأوّل ، الذى يحوى تفاصيل النقاش ، الذى دار بين الجنرال (إيزاك هركابى) ، ووزير الدفاع الإسرائيلى ، والذى نقله ذلك الميكروفون الدقيق للغاية ، المخفى بمهارة مذهلة ، داخل أحد الأزرار الذهبية اللامعة ، للسترات الجديدة للجنرال (هركابى) ..

وفى أواخر سبتمبر 1973م ، تلقى (دافيد سولومون) برقية أخرى من (جنوة) ، تنعى إليه عمته الإيطالية ، التى لم تجد وريثًا سواه ، يرث منزلها الصغير هناك ..

وسافر (دافيد) إلى إيطاليا) وجيرانه يحسدونه على ذلك الحظ ، الذى جعله يرث مرتين فى شهر واحد ..

ولكن (دافيد) لم يمكث فى (إيطاليا) سوى ساعة واحدة استبدل خلافها جواز سفره الإسرائيلى بجواز سفر مصرى ، يحمل اسمه الحقيقى (سليمان عبد الحميد) ، وتولى أحد الخبراء تغيير هيئته ، لتماثل صورته فى جواز السفر ، ثم استقل طائرة (مصر) للطيران ، عائدًا إلى الوطن ..

إلى (مصر) ..

وطوال الأيام التالية ، كان الميكروفون المخفى فى الزر الذهبى ، ينقل كل أحاديث الجنرال (هركابى) ، وكل المناقشات والمعلومات ، الخاصة بخط (بارليف) ، إلى المخابرات العامة المصرية أولاً فأولاً ، التى تعمل على تكوين صورة معلوماتية كاملة ، يتم نقلها إلى مؤسسة الرياسة ، التى تنقلها بدورها إلى وزارة الدفاع ، حيث بدء العد التنازلى للحرب ..

حرب الثأر والتحرير الشاملة ..

واندلعت الحرب بالفعل ، فى السادس من أكتوبر 1973م ، وجن جنون الجنرال (إيزاك هركابى) ، مع اقتحام القوات المصرية لخط (بارليف) ، وسيطرتهم عليه ، وتحركهم بمنتهى السرعة والثقة ،

وكان لديهم كل المعلومات المطلوبة ، ويعرفون طريقهم جيدًا ..

وراح الجنرال يعيد دراسة الموقف ، ويلقى أوامره هنا وهناك .. والميكروفون الدقيق يسجل .. ويسجل .. ويسجل ..

حتى انهار أقوى خط دفاعى عرفه التاريخ ، وانفتح الطريق أمام قواتنا إلى قلب (سيناء) ..

وارتفع العلم المصرى عليها عاليًا مرفرفًا ..

وفى نفس الوقت ، الذى راح فيه الإسرائيليون يدرسون أسباب الهزيمة ، ويتبادلون الاتهامات وعبارات الغضب .. والسباب أيضًا ، كان رئيس الجمهورية المصرى يقدم التهنئة لضباط الجيش وجنوده ، ولمدير ورجال المخابرات العامة أيضًا ..

الرجال الذين أثبتوا أنه ، عندما يتعلق الأمر بالوطن ، فلابد من إلغاء كلمة مهمة من القاموس ..

كلمة (المستحيل) .

* * *

عشرة على عشرة ..

لم تكن عقارب الساعة قد بلغت الثامنة بعد ، فى صباح ذلك اليوم ، من أيام يناير 1973م ، عندما توقفت تلك السيارة الأمريكية الصغيرة ، فى ساحة الانتظار الخارجية المحدودة ، أمام مبنى المخابرات الإسرائيلية فى (تل أبيب) وغادرها ذلك الرجل الطويل القامة ، أصلع الرأس ، الذى يرتسم الاضطراب والتوتر على كل ذرة من كيانه ، وهو يتطلع إلى بوابة المبنى ، وطاقم الحراسة صارم الملامح أمامه ، فى عصبية ملحوظة ، جعلت رئيس الطاقم يراقبه فى حذر ، ويده تتحسس مسدسه المستقر فى غمده ، وهو يحاول دراسة الرجل ، وتحديد هويته ، خاصة عندما تغلب أخيرًا على تردده ، واتجه بعصبيته الملحوظة نحو المبنى ، ليسأل فى خفوت مستفز :

ـ هل .. هل يمكننى مقابلة أحد المسئولين هنا ؟!

اضطر الرجل لتكرار سؤاله مرتين ، قبل أن يرتفع صوته إلى الدرجة الكافية ، لتستقبلها آذان رجال الحراسة ، فرمقه قائدهم بنظرة صارمة ، وهو يمد يديه إليه ، قائلاً :

ـ هويتك من فضلك .

كانت الهوية تشير إلى أن الرجل موظف بسيط ، فى مركز المعلومات العسكرية الإسرائيلى ، يدعى (إبراهام مزراحى) ، وأنه يقيم فى حى متواضع من أحياء (تل أبابيب) ..

وكإجراء طبيعى سأل قائد طاقم الحراسة الرجل عن السبب الذى يرغب من أجله فى مقابلة أحد المسئولين ، إلا أن الرجل اضطرب أكثر ، وغمره العرق على نحو غير طبيعى ، وأصر على ألا ينطق بحرف واحد ، إلا أمام أحد المسئولين .

ولأن هذه الأمور تتبع قواعد خاصة ومعتادة ، فى معظم أجهزة المخابرات العالمية ، فقد قام طاقم الحراسة بتفتيش الرجل جيدًا ، والتأكد من أنه لا يحمل أى أسلحة ، أو أجهزة تنصت ، ثم اصطحبه أحد رجال الحراسة إلى قاعة صغيرة ، فى الطابق الأرضى من مبنى خاص ، وطلب منه الانتظار ..

ولقد طال الانتظار لثلاث وعشرين دقيقة كاملة ، بدا من الواضح للذين يراقبون المكان خفية ، أن أعصاب الرجل قد التهبت خلالها تمامًا ، فقد غادر مقعده أكثر من سبع مرات ، وفرك أصابع كفيه ما يقرب من مائة مرة ، وتلفت حوله عددًا لا حصر له من المرات ، قبل أن يدلف ضابط المخابرات الإسرائيلى (شمعون) إلى القاعة ، قائلاً فى شىء من البرود والصرامة :

ـ سمعت أنك تطلب مقابلة أحد المسئولين هنا .

أومأ (مزراحى) برأسه إيجابًا فى عصبية ، وازدرد لعابه على نحو ملحوظ وهو يجيب بنفس الخفوت المضطرب :

ـ أأنت أحد المسئولين هنا ؟!

جلس (شمعون) خلف المكتب الوحيد بالقاعة ، وكأنما يجيب بالإيجاب ، وألقى الملف الصغير الذى يحمله على سطح المكتب ، وهو يتطلع إلى عينى (مزراحى) مباشرة ، قائلاً :

ـ اسمك (إبراهام داود مزراحى) .. مهاجر مصرى ، منذ عام 1965م ، تعمل فى قسم الحسابات ، بإدارة المعلومات العسكرية .. ليست لك أى أنشطة سياسية أو دينية .. عزب .. لا تدخن ولا تشرب الخمر ، ولكنك تشكو دائمًا من تجاهلك فى الترقيات ، وتدعى أن هذا يعود إلى أنك أحد اليهود الشرقيين (السفرديم) .

ارتبك إبراهام مرزاحى ، وهو يقول :

ـ إننى لم أقصد هذا فى الواقع ، وإنما ..

قاطعه (شمعون) بإشارة صارمة من يده ، وهو يقول :

ـ ليست هذه قضيتنا الآن .

ثم مال نحوه ، مستطردًا بود مباغت :

ـ لماذا طلبت مقابلتى ؟!

اتسعت عينا (مزراحى) ، وكأنما أدهشه هذا التحول المباغت ، ثم لم يلبث أن جلس فى حذر ، وتلفت حوله بخوف غير مفهوم ، وازدرد لعابه على نفس النحو الملحوظ ، قبل أن يميل نحو (شمعون) قائلاً بصوت أشبه بالهمس :

ـ المصريون يحاولون تجنيدى .

اخترق القول كيان (شمعون) كرصاصة مباغتة ، فانتفض جسده انتفاضة مفاجئة محدودة ، وهو يتراجع فى مقعده ، ويحدق فى (مزراحى) بدهشة ..

فمن المؤكد أنه لم يكن يتوقع شيئًا كهذا قط ..

ولا حتى ما يقترب منه ..

لذا ، فقد مرت لحظات من الصمت ، وهو يحدق فى (مزراحى) قبل أن يتنحنح فى قوة ، ليطرد عنه دهشته ، ويعود للاعتدال فى مقعده ، قائلاً :

ـ ما الذى تعنيه بالضبط ؟!

ازدرد (مزراحى) لعابه مرة أخرى ، وأجاب فى اضطراب :

ـ لقد تعرفت على شاب يعمل فى الجيش الإسرائيلى فى أثناء سهرة قضيتها فى ملهى صغير ، وكان شديد الكرم والسخاء

معى ، حتى إننى ارتبطت معه بعلاقة صداقة قوية ، وأدمنت كرمه البالغ ، وأسلوبه العذب ، و .. والنقود التى يقرضنى إياها دون حساب .. ثم .. ثم ..

ازدرد لعابه مرة أخرى ، قبل أن يقول ، فى شىء من الحدة :

ـ ثم اختفى فجأة .

التقى حاجبا (شمعون) فى اهتمام ، وارتكز بذقنه على قبضته المضمومة ، وهو يستمع إلى (مزراحى) فى انتباه تام ، وقد أدرك ، بحكم خبرته ، الجزء التالى من القصة حتى قبل أن يواصل الرجل :

ـ فى البداية ، تصورت أنه فى عمل ما ، ثم طال غيابه ، فجن جنونى ، ورحت أبحث عنه فى استماتة ، وعندما تملكنى اليأس من العثور عليه ، خاصة أننى أجهل اسمه الكامل أو عنوانه .. فوجئت به يظهر بغتة .

لم يقاطعه (شمعون) بحرف واحد ، وأن راح عقله يرتب الأحداث ، التى بدت له واضحة للغاية ، وهو يواصل استماعه بنفس الانتباه ، و(مزراحى) يتابع :

ـ ثم عرض على فكرة العمل معه ، فى منظمة للسلام ، تهتم بالحصول على معلومات عسكرية عن كل دول المواجهة فى المنطقة ، كمحاولة للحيلولة دون اندلاع حرب أخرى ..

مط (شمعون) شفتيه ، مغمغمًا :

ـ أسلوب نمطى للغاية !

لم يبد على (مزراحى) أنه قد فهم ما يعنيه ضابط المخابرات الإسرائيلى ، الذى أشار إليه فى اهتمام ، قائلاً :

ـ أكمل يا رجل .. أكمل.

ازدرد (مزراحى) لعابه للمرة الألف ، قبل أن يجيب :

ـ وعندما طلبت مهلة للتفكير ، أخبرنى لأننى سأحصل على راتب يسيل له اللعاب ، بالإضافة إلى مكافأة عن كل معلومة جيدة .. والواقع أن الرقم الذى ذكره كاد يدير رأسى لولا أن أدركت أن الجهة الوحيدة التى يهمها الحصول على معلومات عسكرية عن (إسرائيل) فى الوقت الحالى هى (مصر) .. أليس كذلك ؟!.. هل كنت على حق يا سيدى ؟!..؟ سيدى .. لقد فعلت الصواب .. أليس كذلك ؟!

أومأ (شمعون) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ بالتأكيد .

ثم نهض من خلف مكتبه ، وناول (مزراحى) رزمة من الأوراق البيضاء ، وهو يقول فى جدية واهتمام :

ـ كل المطلوب منك الآن أن تـدون كل مـا قلتـه الآن فـى هـذه الأوراق ، ثم تحتفظ بكل ما دار بيننا سرًا ، حتى نستدعيك مرة أخرى .. هل تفهم ؟

التقط (مزراحى) الورق والقلم ، وهو يقول فى حزم :

ـ بالتأكيد يا سيدى .. بالتأكيد .

وقبل أن تدق الساعة ، معلنـة منتصف النهار ، كـان هنـاك اجتماع مغلق ، فى إحدى قاعات مبنى المخابرات الإسرائيلية ، لدراسة الموقف كله بكل دقة .

كان من الواضح أن القصـة حقيقيـة تمامًا ، خاصـة أن موقـع (مزراحى) فى الحسابات يتيح له معرفة الكثير عن المصروفات العسكرية ، وأثمان الذخائر ، ومرتبات الجنود والضباط ، ومكافآتهم .. مما قد يعنى الكثير بالنسبة لجهاز المخابرات المصرى ..

ودامت مناقشـة الأمر مـا يقرب من سـاعات خمـس ، اتخـذ الإسرائيليـون بعدهـا قرارًا بإطـلاق كل عيونهم خلـف الأمـر ، لاستكمال كل المعلومات المطلوبة ..

وكإجراء أول طلب (شمعون) من (مزراحى) أن يعلن الشاب موافقته على العمل لحساب تلـك المنظمـة الوهميـة ، حتى يمكن الإيقاع به تمامًا ..

وخـلال أسبوع واحـد ، جـاءت المعلومـات لتؤكـد مـدى صحـة الأمر وخطورته ..

فذلك الشاب (دافيد) شاب عابث مستهتر ، ينفق أكثر ممـا يربح بكثير ، ويسافر خارج (إسرائيل) أربع أو خمـس مرات فـى العام ، كما أنه يمتلك جهاز استقبال راديوى فائق التردد ، ربما يستخدم لاستقبال الرسائل والمعلومات لاسلكيًّا من (مصر) أو (سوريا) ..

وفى البداية ، وضع الرجال اقتراحين ، إمـا أن يتم إلقـاء القبض على (دافيد) مباشرة ، بعد الحصول علـى مـا يـدل علـى عملـه لحساب المصريين ، أو أن يتم تجنيد (مزراحى) للعمل كجاسوس مزدوج ، بحيث يعلم ما الذى يسعى إليـه المصريون ، ويتظـاهر بتسليمهم كل المعلومات الحسابية العسكرية المطلوبة ..

ولقد رجحت كفة الاقتراح الثانى بسرعة ، خاصة أنه فى عـالم المخابرات ، يمكنك أن تعلم كثيرًا عن خصمك ونياتـه ، بمعرفـة ما الذى يسعى هو معرفته عنك ..

وهكذا ، صدر القرار بالإجماع ..

سيعمل (مزراحى) كجاسوس مزدوج ، لتحديد هدف المصريين ، واستخلاص نياتهم العسكرية بالتبعية ..

وبناء على هذا القرار ، بدأت الخطة الإسرائيلية تتخذ مسـارها الجاد ..

وبدأ (مزراحى) يعمل لحساب المصريين من خلال (دافيد) ، الذى ينقل إليه طلبات وأوامر (القاهرة) ، ويحصل على جميع المعلومات ، ليرسلها إلى (القاهرة) بأسرع وسيلة ممكنة ..

كل هذا تحت سمع الإسرائيليين وبصرهم ..

وتوجيهاتهم أيضًا ..

وكان الأمر ناجحًا للغاية ، من وجهة نظر الإسرائيليين.

فقد تطورت طلبات المصريين وأوامرهم على نحو يوحى بأنهم قد ضاعفوا من ثقتهم فى (مزراحى) وفى أهمية ما يحصلون عليه من معلومات ..

وهذا يعنى بالطبع النجاح ..

النجاح التام للجانب الإسرائيلى ، الذى صار أكثر ثقة بدوره فى الجاسوس المزدوج ، خاصة أن تحرياتهم عنه أكدت أنه إسرائيلى مخلص ، ولا غبار عليه البتة ..

وفى أبريل 1973م ، بدأ (مزراحى) شديد التوتر والقلق ، وهو يلتقى بالضابط (شمعون) قائلاً فى اضطراب :

ـ المصريون يريدون مقابلتى فى (روما) .

تألقت عينا (شمعون) ، وهو يهتف :

ـ عظيم .. عظيم ..

صاح (مزراحى) :

ـ ماذا لو أنهم يريدون قتلى هناك بعد أن كشفوا أمرى ؟!

قهقه (شمعون) ضاحكًا ، وهو يقول :

ـ قتلك ؟!.. ألق عن رأسك هذه الأفكار السخيفة يا رجل .. المصريون يريدونك فى (روما) ، لأنهم يرغبون فى تطوير أدائك ، وتلقينك أمرًا جديدًا ، باختصار .. أنها دورة تدريبية يا هذا .. دورة تعنى أنك ناجح إلى أقصى حد ..

ولقد تأكد (شمعون) من أنه ضابط مخابرات محنك ، لا يشق له غبار عندما عاد (مزراحى) من (روما) ، ليخبره أنها كانت دورة تدريبية بالفعل ، لقنه المصريون خلالها كيفية استخدام الحبر السرى ، وإرسال رسائل الشفرة ، مع بعض أساليب الدفاع عن النفس ، والتعامل مع البيئة ..

واجتمع الإسرائيليون مرة أخرى ، لست ساعات كاملة ، لمناقشة الموقف الأخير ، وإعادة تقويم موقف (مزراحى) وفائدته ..

ولقد انتهى الاجتماع بضرورة الاستمرار فى خطة الجاسوسية المزدوجة ، واستغلال عمل (مزراحى) مع المصريين إلى أقصى حد ممكن ..

وقد كان !..

ومع وضع (دافيد) تحت مراقبة مشددة ، استمر (مزراحى) فى العمل معه ، وفى تلقى طلبات وتعليمات وأوامر المصريين ، وإبلاغها للإسرائيليين ثم نقل كل ما يسلمه إياه الإسرائيليون من معلومات إلى الجانب المصرى .

وقد تم اطلاع رئيس الوزراء الإسرائيلى على تلك العملية ، فلم يتمالك نفسه من رغبة مصافحة رئيس المخابرات الإسرائيلى بكل حرارة وحماس ، قائلاً :

ـ ضربة معلم يا رجل .. إنكم تستحقون عشرة على عشرة فى تلك العملية التى سحقهم بها المصريون سحقًا .

وانتفخت أوداج الإسرائيليين ، وقرروا مواصلة عمليتهم الكبرى ، التى اعتبروها أبرع لعبة خداع قاموا بها ، فى صراعهم الدائم مع المصريين .

وطوال الوقت ، كان خبراؤهم يقومون بتحليل طلبات المصريين ، وما يسعون للحصول عليه من معلومات لتحديد نياتهم واتجاهاتهم ، فى تلك المرحلة الحاسمة ..

وفى منتصف سبتمبر 1973م ، قال (مزراحى) للضابط (شمعون) :

ـ المصريون يريدوننى مرة أخرى .. ولكن فى (باريس) ..

ابتسم (شمعون) ابتسامة كبيرة ، ولوح بكفه فى ثقة قائلاً :

ـ مرحى يا رجل .. من الواضح أنك تقوم بدورك جيدًا ، فهاهم أولاء يسعون لتدريبك على مهارات أكثر تطورًا ..

غمغم (مزراحى) بلا حماس :

ـ نعم .. أعتقد هذا .

وفى الثالث والعشرين من سبتمبر 1973م ، سافر (إبراهام مزراحى) إلى (باريس) بمعرفة رجال المخابرات الإسرائيلية ليتلقى دورته التدريبية الجديدة ، على يد المصريين ..

ولقد سعى الإسرائيليون لمراقبة (مزراحى) وحراسته فى (باريس) ، كما فعلوا فى رحلته السابقة إلى (روما) ، وفى الوقت نفسه واصلوا مراقبتهم المكثفة للشاب (دافيد) الذى بدا هادئًا مسترخيًا واثقًا ، على نحو يوحى بأنه لم يخطر بباله لحظة واحدة أنه مراقب ..

وسار كل شىء على ما يرام ، حتى مساء الخميس الرابع من أكتوبر 1973م ..

ففجأة ودون مقدمات اختفى (مزراحى) فى قلب (باريس) ..

وفى الوقت نفسه، تقريبًا، اختفى (دافيد)، فى قلب (تل أبيب).

وكانت مفاجأة مفزعة للإسرائيليين، الذين جن جنونهم، وراحوا ينبشون كل شبر من (باريس) و(تل أبيب) للعثور على الرجلين ..

وفى غمرة انهماكهم، هوى خبر عبور المصريين لقناة السويس، واقتحامهم لخط (بارليف) على رءوسهم كالصاعقة، خاصة أن آخر تحليل للخبراء عن كل ما يطلب المصريون معرفته من خلال (مزراحى)، كان يؤكد أنهم لا يفكرون فى شن أية حروب، فى الوقت الحالى ..

وبينما كان الإسرائيليون يضربون أخماسًا فى أسداس، فى محاولة لفهم ما حدث، كان (أ.ص) رجل المخابرات المصرى العبقرى، يستقبل (دافيد)، و(مزراحى) فى مكتبه، فى مكان يتبع المخابرات المصرية، فى قلب (القاهرة) وهو يبتسم ابتسامة كبيرة، قائلاً:

- مرحبًا بالبطلين .. حمدًا لله على عودتك للوطن يا (إبراهيم)، وأنت يا (وحيد) ..

صافحه (إبراهيم)، وهو يتنهد فى ارتياح، قائلاً:

- أخيرًا .. كم يسعدنى سماع اسمى الحقيقى، بعد السنوات الطوال، التى عشتها فى (تل (أبيب) باسم (إبراهام مزراحى).

وضحك (وحيد) وهو يقول:

- الواقع أنها كانت خطة جريئة للغاية يا سيدى.

- لقد كنت أخشى طوال الوقت أن ينقض الإسرائيليون على في أية لحظة، بتهمة التجسس ..

ابتسم (أ.ص) وهزه رأسه قائلاً:

- لو أنك وضعت نفسك فى موضعهم، وفكرت بأسلوبهم، ودارت الأمور من وجهة نظرهم لوجدت أنه من المستحيل أن يلقوا القبض عليك مباشرة، لتضيع منهم فرصة معرفة نياتنا، عن طريق جاسوس مزدوج.

ثم تحولت ابتسامته إلى ضحكة قصيرة، قبل أن يتابع:

- ولأن الفكرة جديدة للغاية، ولأننا كنا واثقين من قوة الغطاء، الذى صنعناه لزرع (إبراهيم) فى المجتمع الإسرائيلى، فقد تعاملوا بالفعل مع جاسوس مزدوج، ولكنه يعمل لحسابنا، ولحساب الوطن الذى ينتمى إليه بالفعل .. وبوساطته، أمكننا أن نقوم بدور مهم فى خطة الخداع الكبرى، التى أوهمت الإسرائيليين بأننا لا نفكر قط فى شن أية حروب، فى الوقت الحالى ..

هتف وحيد :

ـ خطة عبقرية بالفعل يا سيدى :

ولوح (إبراهيم) بيده قائلاً :

ـ الواقع أن المخابرات المصرية تستحق عنها درجة مرتفعة ..

هتف (وحيد) فى حماس :

ـ بل الدرجة النهائية .. عشرة على عشرة .. يا رجل !..

والتمعت عيون ثلاثتهم فى آن واحد ، ووجوههم تحمل ابتسامة خاصة جدًا ..

ابتسامة نصر .

* * *

عملية « الحج » !

انهمك مدير المخابرات العامة المصرية فى مراجعة عشرات التقارير ، التى وردت إليه من مختلف أنحاء العالم ، وانشغل عقله فى دراستها ، وتحليل محتوياتها ، ومحاولة الربط بين أحداث بعضها والبعض الآخر ، واستنباط ما يعنيه ذلك الترابط ، عندما ارتفع رنين الهاتف الداخلى للإدارة ، فامتدت يده تلتقط السماعة بحركة لا شعورية ، ووضعها على أذنه ، وهو يسأل فى شرود :

ـ من المتحدث ؟

أتاه صوت ضابط شاب ، من الذين التحقوا حديثًا بالإدارة ، وهو يقول فى لهفة واضحة ، والانفعال يغمر نبرات صوته المتوتر :

ـ هل استمعت إلى نشرة الأخبار الأمريكية يا سيدى ؟

أدرك مدير المخابرات بحدسه وخبرته ، أن هذا السؤال ينطوى على خبر مهم ، فأزاح الأوراق والتقارير جانبًا ، وهو يسأل فى اهتمام واضح :

ـ ماذا هناك بالضبط ؟

أجابه الضابط الشاب بنفس الانفعال :

- (إسرائيل) أعلنت عزمها على شراء حفار ، للتنقيب عن البترول فى شواطئ (سيناء) ..

وكان الخبر خطيرًا بحق ..

بل بالغ الأهمية والخطورة ، ففى تلك الفترة ، من عام 1969م ، بعد هزيمة يونيو بعام وبضعة أشهر ، كانت (مصر) تبذل قصارى جهدها ، فى محاولة لانتزاع النصر ، من بين أنياب الهزيمة ، وتسعى لإعادة بناء جيشها ، واستعادة الروح المعنوية المنهارة ، عندما ظهرت مشكلة الحفار .. وكان من الواضح ، مع تلك الضجة الإعلامية الكبرى ، التى أحيط بها الأمر ، أن (إسرائيل) لم تجلب هذا الحفار لتنمية مواردها المالية فحسب ، ولا حتى لتثبيت أقدامها أكثر فى رمال (سيناء) ، وإعلان إحكام سيطرتها عليها ، وإنما كان الغرض الحقيقى غير المعلن هو إثبات أن (مصر) لم تعد تملك فى الأمر ناقة ولا بعير ، وأنها لا تستطيع حتى حماية الموارد التى تحويها أراضيها ، التى سلبها منها العدو ..

ولهذا السبب بالذات ، اجتمع مدير المخابرات العامة المصرية بعدد من رجاله ، وطرح الأمر عليهم ، ثم أنهى حديثه قائلاً :

- وعلى الرغم من الدعاية الهائلة ، التى أحاط بها الإسرائيليون

أمر شرائهم لهذا الحفار ، إلا أنهم نسجوا حوله سياجًا من السرية المطلقة ، وأحاطوه بحراسة مكثفة ، حتى إن بعضهم يدعى أن الوصول إليه مستحيل .

تمتم أحد الرجال :

- لا يوجد مستحيل .

ابتسم مدير المخابرات العامة لهذا القول ، الذى يتفق تمامًا مع مبادئه ، ولكن لم يلبث أن قال فى حزم :

- ولكن تحطيم المستحيل يحتاج إلى جهد هائل ، وعمل متصل ليلاً ونهارًا ، ومخاطر جمة ، وربما احتاج إلى صدام مباشر .

أتاه صوت حاسم يقول :

- نحن لها .

كان المتحدث هو ضابط المخابرات (محمد نسيم) ، الذى اشتهر بين أقرانه بأنه يمتلك قلبًا من فولاذ ، أو أنه كما يحلو للبعض أن يصفه لا يمتلك قلبًا ، فهو يواجه أعتى المواقف وأكثرها عنفًا وخطورة ، وهو رابط الجأش ، ثابت الجنان ، لا يهتز له رمش ، وكان من الطبيعى أن يتم إسناد مرحلة التنفيذ التى تبلغ فيها المخاطر ذروتها ، إلى صاحب القلب الفولاذى والأعصاب الباردة

كالثلج (محمد نسيم) ، مع زميله (باهر عزيز) ، الذى يصفه الجميع بأنه كمبيوتر حى ، من المستحيل أن ينسى كلمة ، أو وجهًا ، أو معلومة ، أو حادثًا ؛ باختصار ، كان ذاكرة موسوعية ، تتمتع بإرادة بشرية واعية .

ولكن العملية لم تكن سهلة بالفعل ، فقد كان كل ما يتعلق بالحفار يندرج تحت بند السرية المطلقة ، ولا أحد يعرف اسم ، أو حجم ، أو مكان ، الشركة التى صنعته ، أو عمق المياه التى يعمل بها ، أو حتى نوع القاطرة التى تسحبه ، أو جنسيتها ..

لم تكن هناك أية معلومات ..

وكان على الرجال أن يبدءوا عملهم من الصفر .. وكان أمامهم حل من اثنين ، إما أن يتم تدمير الحفار قبل أن يعبر باب المندب ، وقبل أن يصل إلى البحر الأحمر وشواطئ (سيناء) ، أو أن تنقض عليه الطائرات المصرية فى البحر الأحمر ، وتضربه مباشرة ، فتشتعل حرب لم يتم الاستعداد لها بعد ..

واختار الرجال الحل الأول ، وصدر قرار رسمى من الرئيس (جمال عبد الناصر) به .. وبدأت استعداداتهم له .

أو قل : بدأت محاولاتهم لالتقاط طرف خيط ، يمكن أن يقودهم إلى الهدف ..

وجاء طرف الخيط على هيئة برقية ، وصلت من أحد المندوبين فى (كندا) ، تقول بالشفرة :

ـ إن الحفار يحمل اسم (كينتج) ، وأنه قد عبر (بورت الفرية) ، و(سان سيمون) فى شمال (كندا) ، ثم انطلق إلى المحيط الأطلنطى ، فى طريقه إلى (أفريقيا) ..

وتنفس الرجال الصعداء ، والتقطوا طرف الخيط فى لهفة ، وبدءوا يتحركون ، ويدرسون ، ويحاولون تحديد أو استنتاج البقعة المناسبة ، من غرب (أفريقيا) ، والتى يمكن أن يصل إليها الحفار ، ليلتقط أنفاسه ، ويتزود بالمؤن والوقود ، قبل أن يواصل رحلته إلى باب المندب والبحر الأحمر ..

وانتشر مندوبو المخابرات المصرية فى كل السواحل والموانئ فى غرب (أوروبا) و(أفريقيا) فى انتظار ظهور الحفار ، فى حين نشط أولئك الذين سجنوا أنفسهم إراديًا ، فى مبنى المخابرات ، فى جمع وترتيب كل المعلومات ، الخاصة بالحفار (كينتج) والشركة المنتجة له ومواصفاته ..

ومع الإرهاق الشديد الذى سيطر عليهم ، سأل أحدهم فى حنق :

ـ أين ذهب هذا الحفار ؟! هل ابتلعته مياه المحيط ، أم إنهم ألبسوه طاقية الإخفاء ؟

أجابه زميل آخر فى صوت خافت مجهد :

- اطمئن .. سيظهر حتمًا فى مكان ما ، وعندئذ نظفر به .

ابتسم الأول فى شىء من العصبية ، وهو يقول : ما الذى تتوقع أن نفعله به ؟

نهض (محمد نسيم) ، وهو يقول :

- تمامًا مثلما فعلنا مع (إيلات) .

كان الاسم يكفى لتذكير الرجل بتلك العملية الانتحارية الناجحة ، التى هزت الأمن الإسرائيلى من الأعماق ، منذ بضعة أشهر ، عندما تسلل عدد من رجال الضفادع البشرية الأبطال ، يحملون فى قلوبهم رغبة أكيدة ، فى استعادة كرامة (مصر) بعد الهزيمة ، وفجروا ثمانية أطنان من المتفجرات فى سفينتين حربيتين ، محملتين بالدبابات والمصفحات والذخيرة ، كانتا تستعدان لمغامرة حربية على الشواطئ المصرية ..

ولقد نطق (نسيم) بهذا ، ثم انطلق على الفور إلى قيادة القوات البحرية فى (الإسكندرية) ، ليحول فكرته هذه إلى واقع ، ويختار فريقًا من الضفادع البشرية ، لنفس الحفار فور ظهوره وتحديد مكانه ..

كانت الخطة تحتاج فى رأيه إلى ستة عشر رجلاً ، إلا أنه لم يظفر ، بعد العديد من الاختبارات واللقاءات ، إلا بثمانية رجال ، من أبطال البحرية المصرية .

بقيادة الرائد (خليفة) ، وكان بعضهم قد ساهم فى عملية (إيلات) ، وعلى الرغم من هذا ، فقد قبلوا التطوع للقيام بهذه العملية ، وكأنهم فى طريقهم إلى نزهة بسيطة ، أو عمل تقليدى معتاد ..

ولكن ، وعلى الرغم من كل هذا ، كانت هناك عقبة كبيرة ، تعترض الموقف كله ..

لقد اختفى الحفار تمامًا ، منذ انطلق فى المحيط الأطلنطى ..

لم يظهر عند أى ساحل فى غرب (أوروبا) أو غرب (أفريقيا) ..

وراح الرجال يتساءلون فى قلق : هل اتخذ الإسرائيليون مسارًا آخر ، بخلاف الطرق البحرية المألوفة ؟!

وأحضر بعضهم الخرائط الملاحية ، وتم استدعاء خبير بحرى ، راجع كل هذه الخرائط بمنتهى الدقة ، ثم أعلن فى ثقة أن الحفار لابد وأن يظهر فى غرب (أوروبا) أو (أفريقيا) ، مهما كان مساره ..

وعاد الرجال ينتظرون فى قلق ..

كان عيد الأضحى يقترب ، ولهذا أطلق الرجال على عمليتهم اسم (الحج) تيمنًا بهذه الفريضة المقدسة ، التى كتبها الله على كل من استطاع إليها سبيلاً ، وراحوا يسعون طوال الوقت ، فى انتظار معلومة أو خبر ، عن موقع وصول الحفار ، ولكن الساعات والأيام راحت تمضى فى بطء ، دون خبر واحد .

فجأة ، وفى السادس عشر من فبراير ، عام 1970م ، وصلت معلومات مباغتة ، بأن الحفار قد وصل إلى (دكار) ، وقفزت القلوب من الصدور ، وراحت تخفق بشدة ، وتم عقد مؤتمر عاجل فى المخابرات العامة ، فى اليوم نفسه ، حيث تقرر سفر (محمد نسيم) ورجال الضفادع البشرية إلى هناك على مرحلتين ..

وفى اليوم التالى 17 فبراير عام 1970 سافر (محمد نسيم) وحده إلى (دكار) ليستكشف الموقف ويدرسه ، ويعمل على تجهيز الموقع للأحداث القادمة .

والواقع أن (محمد نسيم) كان يتمنى والطائرة تنطلق به إلى (دكار) أن تصبح عدد ساعات اليوم أكثر من ثلاثين ساعة ، فقد بدت له الساعات الأربع والعشرون غير كافية ، لإنجاز كل ما ينبغى إنجازه ، فالمفروض أن يجرى اتصالات شديدة السرية والتعقيد ، مع عدد من مندوبى المخابرات فى (دكار) والذين يجهل كل منهم أمر الآخرين تمامًا ، ثم يدرس بدقة موقع

الحفار ، وكيفية الوصول إليه ، وطبيعة المياه ، وعمقها ، والحراسة حول الحفار ، وطبيعتها ، والأساليب المتبعة فيها ، والوقت اللازم للتنفيذ ، والانسحاب ، ونقل المعدات والرجال .

وكانت المسئولية الملقاة على عاتقه هائلة بالفعل ، والطريف أن الحفار قد اختار أول أيام عيد الأضحى 16 فبراير ، ليلقى مرساته عند ميناء (دكار) ، حتى تستحق العملية اسمها بالتحديد ..

اسم (عملية الحج) ..

وفى (دكار) ، أدى (محمد نسيم) عمله بمنتهى الدقة ، وألحق به رجال الضفادع البشرية فى اليوم التالى 18 فبراير ، وراحوا يستمعون إلى ما جمعه من معلومات ، ثم درسوا الموقف مرة أخرى ، قبل أن يقول الرائد (خليفة) :

ـ أعتقد أن المهمة يمكن أن تتحقق ، ومن التركيز على إغراق الحفار ، يكفى أن ننسف ثلاثة من قوائمه ، وهذا سيتلفه ويعيقه تمامًا ، ثم إنه سيميل حتمًا مع النسف ، وهناك احتمال أن يغرق عندئذ أيضًا .

كان يتحدَّث بخبرة رجل ضفادع بشرية محنك ، فاستمع إليه الجميع فى اهتمام ، ثم عادوا يدرسون خطته ، وحسم (نسيم) الأمر بقوله :

ـ فليكن .. على بركة الله .

كانت الأوامر لديهم أن يتم نسف الحفار فى الساعات الأولــى ، من يوم 19 فبراير ، رابع أيام عيد الأضحى ، فاستعد الرجـال جيدًا ، وراجعوا خطتهم أكثر من مـرة ، وتحرّكوا قبـل ضـوء الفجر ، وتجمعوا عند رصيف الميناء ، وتأهلوا للغـوص ، عندمـا قال أحدهم فجأة :

- الحفار .

سألوه فى قلق :

- ماذا عنه ؟

أشار إليه بيده ، مجيبًا فى حنق :

- إنه يغادر الميناء .

وامتزجت عبارته بالصفير الذى أطلقته القاطرة ، التى تجر الحفار ، والتى تعنى أن الرجل على حق تمامًا ..

لقد رحل الحفار من (دكار) ..

وفشلت الخطة هذه المرة ..

وعلى الفور ، تم إبلاغ هذه المعلومـة المحبطة إلى (القـاهرة) ، فأمر مدير المخابرات حينذاك (أمين هويدى) ، بعودة الرجـال على الفور ، لدراسة الموقف مرة أخرى ..

وفى هذه المرة كانت هناك عدة احتمالات ، ينبغى بحثها بمنتهى الدقة ، لتحديد المكان الذى يمكن أن يتجه إليه الحفار هذه المرة ، بحيث يستعد الرجال لنسفه فور ظهوره ..

وكانت الاحتمالات عديدة ، فهناك (كوناكرى) فى (غينيا) ، و(فرى تاون) فـى (سيراليون) ، و(منروفيا) فـى (ليبيريـا) و(أبيدجـان) فى (سـاحل العـاج) ، و(أكـرا) فـى (غانـا) ، و(بورتونوفو) فى (توجـو) ، و(لاجوس) فى (نيجيريـا) ، وأخيرًا (بوانت نوار) فى (الكونغو برازافيل) .

وكان من الضرورى أن يستنتج الرجال الميناء ، الذى سيتجه إليه الحفار ، حتى يمكنهم الوصول قبله ، ومباغتته هذه المـرة ، قبل أن يفر كالمرة السابقة .

وقضى الرجال ثلاثة أيام كاملة ، فى مناقشات ودراسات وجمع معلومـات ، قبل أن يشير أحدهـم إلى الخريطة الضخمـة ، التـى تمثل جدارًا كاملاً فى القاعة ، ويقول فى حسم :

- (أبيدجان) .

لم يكن استنباطًا عشوائيًا ، ولكن نتيجة لبحثهم المضنى ، فقد كانت هناك أيامها علاقة وثيقة ، تربط مـا بين حكومـة (سـاحل العاج) والحكومة الإسرائيلية ، وكـانت (إسرائيل) علـى وشـك افتتاح فندق جديد هنـاك ، مما يعنى أن دخول المصريين سيوضع

تحت رقابة مشددة . أضف إلى هذا أن رواد الفضاء الأمريكيين سيقومون بزيارة للمدينة وهذا يعنى إجراءات أمن مشددة ، وعشرات من رجال المخابرات المركزية الأمريكية ، و ..

واتخذ الرجال قرارهم الحاسم ، وقرروا السفر إلى (أبيدجان) ، ومواجهة الحفار هناك ، مهما كان الثمن ..

وفى هذه المرة ، كان الرجال يشعرون أنهم بسبيلهم إلى القيام بعملية ثأر ، بعد أن أفلت منهم الحفار فى (دكار) ، لذا فقد امتلأت نفوسهم بالحماس ، وسرت فى عروقهم دماء حارة ، جعلتهم يهتفون كلما تصافحوا :

ـ تحيا (مصر) .

وسافر (محمد نسيم) ، وهو يحمل فى الحقيبتين اللتين يحملهما الكمية المطلوبة من المتفجرات ، وقد أخفاها فى عدد من الكتب ، وراح يتحرك فى هدوء وبساطة ، وهو يحمل على شفتيه ابتسامة ساذجة ، لا توحى أبدًا بأنه واحد من أخطر رجال المخابرات ..

وفى (أبيدجان) ، غادر (نسيم) المطار بنفس الهدوء والابتسامة الساذجة ، ولكن العجيب أنه لم يكن يحمل حقيبته ، فقد انتقلتا بشكل ما إلى رجلين آخرين ، كان أحدهما فرنسى الجنسية ، والآخر إيطالى ضخم مفتول العضلات ..

ولكن فى مساء اليوم نفسه ، كانت الحقيبتان والمتفجرات وملابس الضفادع البشرية كلها أمام (محمد نسيم) ، فى منزل آمن فى قلب (أبيدجان) ، لا يمكن أن يلفت انتباه جيش المخابرات الأمريكى الإسرائيلى ، الذى يملأ شوارع عاصمة ساحل العاج ..

وكالمعتاد ، قام (محمد نسيم) بدراسة الموقع ، وإجراءات الأمن ، ووسيلة التعامل مع الحفار ، وكل الأشياء الأخرى ، التى تهم الرجال ، الذين سينفذون العملية فى الوقت المناسب ..

ولم يصل الحفار إلى الميناء فى (أبيدجان) ، ولكنه رسا فى عرض البحر ، فى انتظار الأوان ، ونجح أحد مندوبى المخابرات المصرية ، وهو تركى الجنسية ، فى كشف هذا الأمر ، وحدد الموقع بمنتهى الدقة ..

وبسرعة ، وصل الرجال ، واجتمعوا مع قائدهم فى المنزل الآمن ، وبدءوا فى وضع خطة العمل ، وخطة الخروج من (أبيدجان) بعد التنفيذ ..

وفى مساء اليوم نفسه 7 مارس ، اقترب الحفار من الميناء ، وبدا واضحًا للأعين ، ووقف (نسيم) والرائد (خليفة) يراقبانه من رصيف الميناء ، وهما يناقشان الموقف ، الذى حسمه (نسيم) قائلاً :

- لو أننا نجحنا فى وضع شحنة ناسفة تحت البريمة ، سننهى أمر هذا الحفار تمامًا الليلة .

كان هذا تحديدًا للوسيلة والموعد ، فغمغم الرائد (خليفة) فى بساطة وهدوء :

- على بركة الله .

وقبل أن تلقى الشمس أول أضواء الفجر ، كان رجال الضفادع البشرية الأبطال قد بلغوا الحفار ، وثبّتوا عبواتهم الأربع فى أماكنها ، وتسللوا عائدين إلى الشاطئ ، حيث بدّلوا ثيابهم ، وانطلقت بهم سيارة لتغادر (أبيدجان) كلها ، فى حين بقى (محمد نسيم) فى فندقه ليتابع الموقف كله ، ويطمئن إلى نجاح العملية ..

وفى الثامنة وخمس دقائق بالضبط ، فى صباح 8 مارس 1970م ، ارتجت نوافذ الفندق كلها بدوى انفجار هائل ، وقع فى البحر ، على بعد سبعة كيلو مترات ..

وعلى الرغم من الذعر الذى ساد المنطقة كلها ، امتلأ قلب (نسيم) بارتياح غامر ، وبدا له دوى الانفجار كالموسيقى العذبة ، فغادر حجرته ، وهو يكتم ابتسامته فى أعماقه ، واتجه إلى مكتب الهاتف ، وأرسل إلى (القاهرة) برقية مختصرة ، تقول :

- (مبروك الحج) .

وكان هذا يعنى أن العملية قد تمت بنجاح .

وأن الحفار لن يصل إلى (إسرائيل) .. لن يصل قط .

* * *

عملية عاجلة ..

لا أحد يدرى لماذا جاء صيف 1973م شديد الحرارة ؟!.. وكأنما يشعر الطقس بكل تلك التحركات الساخنة ، التى تدور تحت غطاء بارد هادئ ، استعدادًا لتوجيه ضربة ثأرية مركزة للعدو الإسرائيلى ، الرابض فى صحراء (سيناء) ، والذى يقف متبجحًا ساخرًا ، عند الشاطئ الشرقى لقناة (السويس) ، واثقًا بأن خط (بارليف) الذى اعتبره المؤرخون العسكريون أقوى خط دفاعى استحكامى عسكرى عرفه التاريخ ، سيقف كجدار من الصلب فى وجه أية محاولة مصرية للعبور ، أو استرداد الأرض السليبة .

وفى نفس الوقت الذى ترهل فيه جنرالات (إسرائيل) ، من نشوة النصر والثقة المفرطة ، والإحساس بالذات والقوة ، الذى تضخم أكثر مما ينبغى ، استنادًا إلى أكذوبة أسطورة الجيش الإسرائيلى الذى لا يقهر ، والتى أطلقوها للتأثير فى المعنويات العربية ، ثم ما لبثوا أن صدقوها ، وغرقوا فيها حتى النخاع ! كان المصريون يعملون على قدم وساق ويبذلون الجهد والعرق والمال والحياة أيضًا ، لوضع خطة التحرير ، وما ينبغى أن يسبقها ، من خطة الخداع الاستراتيجية المتكاملة ..

وفى الوقت الذى بلغت فيه الأمور ذروتها أو كادت ، وصلت تلك المعلومات المخيفة ، الإسرائيليون تعاونوا مع إحدى دول (أمريكا اللاتينية) لتطوير وتحديث وسائل الكشف والتأمين والدفاع داخل خط (بارليف) ..

كانت خطورة الخبر تكمن فى أن الرجال قد عملوا كثيرًا وطويلاً ، طوال الأشهر الماضية ، لجمع كل المعلومات الممكنة ، عن خط (بارليف) ، من كل الزوايا الممكنة ، حتى إنهم قد استطاعوا صنع نموذج متكامل لإحدى وحدات (بارليف) ، ليتم تدريب قوات الاقتحام عليه ، وتم تدريب قوات الكوماندوز بالفعل .. والتغيرات المفاجئة ، فى هذا الوقت تصنع ارتباكًا غير مطلوب على الإطلاق .. ثم إن الوقت ضيق للغاية ، ولو أن الخبر صحيح مائة فى المائة ، فمن المحتم أن يحصل الرجال على المتغيرات الجديدة ، بأسرع وأضمن وسيلة ممكنة ، حتى يعاد تدريب قوات الاقتحام لتحقيق النتائج المنشودة ، وتفادى المفاجآت غير المتوقعة ، فى اللحظات الحاسمة .. وكالمعتاد اجتمع الرجال مع ملف عملية (بارليف) ، والملف الكامل للعلاقات والتعاون بين (إسرائيل) وتلك الدولة فى (أمريكا اللاتينية) .. وفى الوقت ذاته ، نشط عملاء المخابرات المصرية ، لجمع كل المعلومات الممكنة ، مهما بلغت دقتها ، حول هذا التطور وأبعاده .. ولم

يكن الأمر سهلاً بالتأكيد فلا شك فى أن الإسرائيليين سيحرصون أشد الحرص على إخفاء ما يحدث ، وعلى إحاطة الأمر كله بالسرية البالغة ، وحمايته طوال الوقت وبأى ثمن .. ولقد فعلوا هذا بالطبع ، ولكن عيون المخابرات المصرية وآذانها نجحت فى اختراق الجدار الفولاذى ، وتسللت إلى قلب العدو ، وعرفت ما يحدث .. ولكن هذا كان مجرد بداية ، فعلى الرغم من كل ما بذل من جهد وعرق ودم ، لم تتوصل المخابرات المصرية إلى طبيعة التعديلات والتغيرات فى نظم الأمن والدفاع داخل خط (بارليف) ولكنها استطاعت تحديد المكان ، الذى توضع فيه تصميمات التغييرات ومعرفة أسماء بعض العاملين فيه ونوعياتهم ووظائفهم .. وكان من الواضح أن الإسرائيليين قد أجادوا اللعبة إلى حد مدهش هذه المرة ، وأنهم قد أحاطوا عملهم بسياج لا يقهر بالفعل ، لحجبه وحمايته .. ولكن الرجال فى القاهرة ، كانوا يؤمنون بأمر واحد .. أنه لا يوجد مستحيل ..

هناك حتمًا ثغرة ما ، فى مكان ما ..

وهناك عقول تفكر ، وتبحث ، وتدبر ، وتخطط ..

وتلك العقول هى التى عثرت على الثغرة .. فلو أن اختراق منطقة العمل مستحيل ، والحصول على الخطة والتغييرات ، بعد وصولها إلى (إسرائيل) يحتاج إلى جهد شديد ، ووقت غير

متوافر .. إذن فأفضل مرحلة يمكن فيها الحصول على المطلوب هى مرحلة النقل .. نقل التصميمات الجديدة من (أمريكا اللاتينية) إلى (تل أبيب) .. وبدأ الرجال بالفعل ، فى دراسة تلك الخطوة الجديدة .. كان هناك خبراء فى فهم أسلوب وتفكير العدو الإسرائيلى والتعامل معه ، وهؤلاء قدروا مجتمعين أن (إسرائيل) - كوسيلة من وسائل السرية - لن تحاول نقل التصميمات تحت حماية مشددة واضحة ، حتى لا تجذب الانتباه إلى مضمونها وخطورتها ، وإنما ستحاول استخدام وسيلة جديدة ، مع تأمينها على نحو سرى غير مباشر .. ولا أحد يمكنه أن يتصور كم كانوا عباقرة !.. فهذا ما فعله الإسرائيليون بالضبط .. لقد لجئوا إلى أسلوب جديد بالفعل ولكنه فعال إلى حد كبير ، فقد عهدوا بالتصميمات إلى واحد من أبرع رجالهم ، وهو رجل المخابرات (دان كوهين) ، الذى وضع تلك التصميمات داخل حقيبة خاصة ، مزودة برتاج من أحد الأنواع المعروفة ، فى ذلك الوقت ، مجهز بحيث ينثر مادة حمضية مركزة ، على كل التصميمات داخل الحقيبة ، عند أية محاولة لفتحها بالقوة ، والحقيبة نفسها تم ربطها بأغلال فولاذية ، إلى معصم رجل أعمال يهودى ، اعتاد استخدام تلك الوسيلة ، لحماية الأموال الكثيرة ، التى يحملها معه فى صفقاته ، من السارقين واللصوص ، بحيث يحمل رجل

الأعمال التصميمات السرية فى حقيبته ، المثبتة فى معصمه ، فى حين يسافر (دان) معه على الطائرة نفسها ، حاملاً حقيبة ملابس عادية ، لحراسة التصميمات وحمايتها طوال الوقت دون أن تبدو منه أدنى بادرة ، توحى بمعرفته لرجل الأعمال ..

وعلى الرغم من أن أحد عملاء المخابرات المصرية ممن لهم باع طويل فى (أمريكا اللاتينية) قد حصل على تفاصيل الخطة الكاملة ، فإن الأمر لم يتجاوز طبيعته الأولى ..

جدار صلب من الفولاذ ، يصعب اختراقه أو تجاوزه ..

كيف يمكن الحصول على تصميمات مهمة كهذه ، من حقيبة يحملها رجل ، بواسطة أغلال فولاذية حول معصمه ، دون أن يدرك العدو ما حدث ، حتى لا يعمد إلى تغيير النظام مرة أخرى ، أو تعديل خطط أمنه ودفاعاته ، لتفادى كشف تصميماته الجديدة ؟!

ومرة أخرى ، كان على الرجال أن يواجهوا المستحيل ..

المستحيل المطلق ..

وفى مبنى المخابرات العامة المصرية ، ظلت حجرة الاجتماعات الرئيسية مضاءة ، طوال أكثر من عشر ساعات متصلة ، استهلك الرجال خلالها ما يقرب من ستة لترات من القهوة ، وهم يدرسون الموقف الجديد من كل الوجوه ويراجعون كل ما لديهم ، عن رجل المخابرات الإسرائيلى (دان) ، وعن رجل الأعمال اليهودى ..

كل التفاصيل مهما بدت تافهة ، كانت تعنى الكثير دومًا ، فى مثل هذه الظروف ..

العادات .. الذوق .. الموسيقى المفضلة .. أو حتى نوع الجوارب المستخدمة .

وفجأة ، هتف رجل المخابرات المصرى (أ.ص) فى الخامسة إلا عشر دقائق فى فجر اليوم التالى :

ـ وجدتها !

وبحماس شديد هب من مقعده ، وراح يشرح للكل خطته العبقرية المدهشة ، وهو يدور حول مائدة الاجتماعات ويستخدم ذراعيه وأصابعه لوصف انفعالاته وتوضيحها ، ويشرح تفاصيل فكرته ، وأبعادها ، واحتمالاتها ، كعادته كلما اندمج بمشاعره كلها فى أمر ما .

وبمنتهى الاهتمام ، راح الكل يستمع إليه ، ويتابعه ، ويناقشه أو يستوضحه ، حتى انتهى من شرح ما لديه ، فران على المكان صمت مهيب ، استغرق دقيقة كاملة على الأقل ، قبل أن يقول قائد المجموعة فى خفوت :

ـ فكرة عجيبة ومجنونة ..

ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة حماسية ، وهو يضيف :

ـ ولكنها ممكنة التحقق .

سرت بين الجميع همهمة استحسان وارتياح جعلته يستدرك فى حزم صارم ، لو أحسنا أداء كل خطوة منها ، وحرصنا بشدة على التوقيت .

فكانت عبارته هذه إيذانا ببدء دورة جديدة من الاجتماعات والمناقشات ، لم تنته قبل الخامسة عصرًا ، عندما تم اتخاذ قرار نهائى بتنفيذ الخطة ، وعهد بها لصاحبها كالمعتاد ، (أ.ص) .

كان الوقت أضيق مما ينبغى ، لذا ، وعلى الرغم من أنه لم يذق لحظة واحدة من النوم ، خلال الثمانية والأربعين ساعة الأخيرة ، فقد بدأ (أ.ص) على الفور سلسلة من الاتصالات الدولية ، وتحدث إلى عشرات من عملاء المخابرات المصرية ، فى (أمريكا اللاتينية) و(أوروبا) قبل أن يستقل الطائرة إلى (مدريد) فى العاشرة والنصف مساء حيث فرد مقعده عن آخره ، وترك جسده بهدوء فى نوم عميق للغاية طوال الرحلة ..

وفى مساء اليوم التالى ، فى أمريكا اللاتينية استقل رجل الأعمال اليهودى طائرته المتجهة إلى (أسبانيا) ومنها إلى (تل أبيب) ، وهو يمسك بقوة تلك الحقيبة الخاصة ، المثبتة بأغلال

فولاذية فى معصمه ، واستقر على مقعد فى الدرجة الأولى وخلفه بأربعة مقاعد فقط جلس رجل المخابرات الإسرائيلى (دان) يراقبه بعينى صقر شرس ، مستعد ومتأهب ومتحفز للانقضاض ، فى أية لحظة ، إذا ما لاح الخطر من بعيد ..

وبعد ساعة واحدة من الانطلاق ، طافت مضيفة حسناء الطائرة ، تسأل الركاب عما يرغبون فى تناوله ، وتدفع أمامها عربة صغيرة ، عليها عدد من المشروبات المرطبة والروحية المختلفة .

وعندما وصلت إلى رجل الأعمال اليهودى ، لم تكن عربتها تحوى سوى زجاجة واحدة صغيرة من البوبورن .. المشروب المفضل له دومًا ..

وكان من الطبيعى أن يلتقطها ، من بين كل المشروبات الأخرى ومن الطبيعى أيضًا أن تمنحه المضيفة الحسناء ابتسامة ساحرة وهى تقول :

بالهناء والشفاء يا سيدى ..

سحرته ابتسامتها بالفعل ، وظلت عالقة بذهنه ، طوال الساعات التالية ، والطائرة تواصل رحلتها عبر المحيط ، و ..

وفجأة وبالقرب من سواحل (أوروبا) بدأ رجل الأعمال يشعر بتلك الأعراض المؤلمة ..

مغص محدود، فى أسفل الجانب الأيمن من بطنه ، مع ارتفاع طفيف فى درجة الحرارة ، وميل شديد للقىء ..

ثم راحت تلك الأعراض تتطور وتتطور ، حتى بدأت مرحلة القىء العنيف والمغص الشديد والحمى ، حتى إن رجل الأعمال راح يتلوى من الألم وعلى الرغم من المسكنات التى حقنه بها مضيف الطائرة ، والمتوفرة فى صندوق الإسعافات الأولية ..

ولأنه من الضرورى إلا يبدى (دان) أية معرفة برجل الأعمال اليهودى إلا فى حالات الخطر القصوى ، فقد اضطر رجل المخابرات الإسرائيلى إلى التزام الصمت والسكون ، وقائد الطائرة يبلغ مطار (مدريد) بوجود مريض يحتاج إلى إسعاف عاجل فور الهبوط هناك ..

وقبل حتى أن تلامس إطارات الطائرة مهبط المطار ، كانت هناك سيارة إسعاف تقف هناك فى انتظار المريض الذى فقد الوعى داخل الطائرة بالفعل من شدة الألم ..

وبسرعة توحى بالخبرة والثقة ، شخص الطبيب المصاحب لسيارة الإسعاف الحالة ، باعتبارها التهابًا حادا وانفجارًا بالزائدة الدودية ، مما يحتم إجراء جراحة عاجلة فورية ، ثم أبدى قلقه لوجود تلك الحقيبة المتصلة بمعصم الرجل ، وسأل عن أى

شخص مصاحب للرجل ، حيث لم يتم العثور على مفاتيح الأغلال فى ثياب رجل الأعمال .

وعلى الرغم من أن (دان كوهين) كان يحمل المفاتيح الأصلية فى جيبه ، إلا أنه لم يفصح عن هذا قط كضابط مخابرات محترف يدرك أهمية الحفاظ على سر عمله وغطائه ..

وهنا تساءلت المضيفة الحسناء عما إذا كان بالإمكان إجراء الجراحة ، دون فصل الحقيبة ، فتردد الطبيب بعض الوقت ، قبل أن يجيب بأن هذا ممكن ولكن غير مريح ، ثم لم يلبث أن قلبه كفيه فى استسلام ، وقبل الأمر ، على نحو يوحى بأنه مرغم على هذا ..

وكاد عقل (دان) يطير ، عندما انصرفت سيارة الإسعاف حاملة رجل الأعمال اليهودى ، وحقيبة الأسرار ، ولم يعد أمامه سوى التخلى عن إكمال الرحلة بدوره ، بأية حجة كانت ؛ ليتابع الموقف عن كثب ، ويطمئن إلى مصير الحقيبة ..

وفى (مدريد) تم نقل رجل الأعمال اليهودى إلى قسم الطوارئ بالمستشفى العام ، حيث كان فى انتظاره فريق من الأطباء تم انتقاؤه بدقة تفوق الوصف .

وتحت إشراف ورعاية (أ.ص) شخصيًا !

وداخل غرفة العمليات والطوارئ حدثت أمور يعجز العقل عن استيعابها !

فبينما انهمك الأطباء فى إجراء عملية إزالة الزائد الدودية لرجل الأعمال اليهودى بالفعل ، كان الفريق التابع للمخابرات العامة المصرية يعمل بنشاط ودقة وسرعة مذهلة ، وببراعة تستحق إعجاب يفوق الوصف ..

خبير خاص قام بفتح الرتاج ، لتفادى انطلاق نظامه الدفاعى ، والحفاظ على سلامة الوثائق التى تم انتزاعها ، وتصوير كل سنتيمتر منها ، ثم إعادتها إلى الحقيبة بنفس الترتيب والتنسيق .

كل هذا خلال ربع الساعة التى يستغرقها إجراء عملية إزالة الزائدة الدودية ودون نزع الأغلال التى تربط الحقيبة بمعصم الرجل ..

وفى رواق المستشفى ، راح (دان كوهين) يتحرك فى عصبية كذئب جريح ، ويجرى مجموعة من الاتصالات أدت إلى استدعاء طبيب يهودى من منزله ، وإبلاغ القيادة فى (تل أبيب) ، بذلك التطور غير المتوقع أو المنتظر ..

ولقد وصل ذلك الطبيب اليهودى بأقصى سرعة ، واندفع على الفور إلى حجرة عمليات الطوارئ فى نفس اللحظة التى كان فريق

الأطباء يغلق فيها الجرح ، بعد أن انصرف الفريق التابع للمخابرات المصرية ، دون أن يترك خلفه أدنى أثر ..

وكطبيب .. كان ينبغى للرجل أن يبدى الاهتمام الأول بالمريض .. الراقد أمامه إلا أنه وعلى الرغم من هذا راح يلقى عشرات الأسئلة عن الحقيبة المثبتة بمعصمه فأجابه فريق الأطباء بأنها تزعجهم وتربكهم كثيرًا ولكن ما باليد حيلة ؛ لأنهم يجهلون تمامًا وسيلة انتزاعها ..

ومن المؤكد أن (دان) قد شعر بالارتياح الشديد ، عندما سمع من الطبيب اليهودى هذا .. إلا أنه أرسل فى طلب خبير خاص للاطمئنان على أن أحدًا لم يمس الحقيبة أو محتوياتها بأية صورة كانت ..

ولقد وصل ذلك الخبير الإسرائيلى فى مساء الليلة نفسها وانتزع الحقيبة من معصم رجل الأعمال اليهودى ، ثم فتح رتاجها بوسيلة خاصة ، وفحص محتوياتها بكل دقة واهتمام ، قبل أن يقول فى حزم :

كل شىء سليم .. الوثائق والتصميمات لم تمس ..

وهنا فقط تنفس (دان كوهين) ورؤساؤه الصعداء ، وأرسلوا إلى (دان) يطلبون منه تسليم الحقيبة للخبير ، ليعود بها على طائرة خاصة إلى (تل أبيب) ..

وفى نفس اللحظة التى وصلت فيها الحقيبة إلى (تل أبيب) كان (أ.ص) يصل بكل الصور والوثائق إلى (القاهرة) ..

وقبل حتى أن يبدأ الإسرائيليون فى تنفيذ التصميمات والتعديلات الجديدة، داخل خط (بارليف) كان المصريون يدرسونها، ويفحصونها، ويضعون كل الخطط للتعامل معها ..

والسيطرة عليها ..

بل وسبقوا الإسرائيليين فى تنفيذ التعديلات، وتدريب قوات الكوماندوز ومجموعة الاقتحام الأولى عليها فى سرية بالغة، بلغ من دقتها وتعقيدها، أن الإسرائيليين لم يعلموا بأمرها، إلا مع العبور والاقتحام الفعلى .. فعندما اندلعت حرب أكتوبر 1973م، وانطلقت موجة الطيران الأولى لتدك الحصون والمطارات فى قلب حصون خط (بارليف)، كان الإسرائيليون يتصورون أن الاستعدادات والتطويرات الجديدة ستفاجئ المصريين، وتسحقهم سحقًا بلا رحمة .. ولكن المفاجأة كانت من نصيبهم هم، لقد اقتحم المصريون حصون خط (بارليف)، وهو يعرفون طريقهم جيدًا، وينطلقون فى ثقة وجرأة وثبات، كما لو أنهم يعرفون طريقهم جيدًا !..

وعندما وصلت الأخبار، بسقوط خط (بارليف)، أقوى مانع

عسكرى فى التاريخ، وانهيار أسطورته، مع أسطورة الجيش الإسرائيلى الذى لا يقهر، ابتسم (أ.ص) . فى ثقة وارتياح ..

ابتسم، لأنه يدرك أن خطته كانت جزءًا من هذا النجاح .

خطة العملية العاجلة ..

العملية التى استأصلت زائدة ضارة من الجسد الأم ..

زائدة اسمها العدو .. الإسرائيلى !

* * *

عيـون الصـقر !

السادة الركاب ، المسافرون على طائرة شركة (لوفتهانزا) المتجهة إلى (بون) يتوجهون إلى البوابة رقم ثلاثة ..

تردد ذلك النداء فى أرجاء ميناء (القاهرة) الجوى فى السـاعة الثامنة من مساء يوم الاثنين 1969/6/2م ، وراح يتكرر بعدد من اللغات الأجنبية ليحث ركـاب الطـائرة الألمانيـة على التوجـه إلى طائرتهم ، وبدأ الركاب يستعدون بالفعل ، وحمـل بعضهم حقائب اليد ، فى حين انهمك البعض الآخر فى مراجعة جواز سفره وتذكرته وتحرك الباقون نحو البوابة رقم ثلاثة ..

وبين هؤلاء وهؤلاء تحرك ثلاثة من الركاب يتبادلون حديثًا باسمًا بألمانية سليمة ، وإن بدت ملامح أوسطهم مصرية إلى حد كبير على عكس ملامح رفيقيه ، اللذين يمكن اعتبارهما نموذجًا مثاليًا لأبناء الجنس الجرمانى ، بشعرهما الأشقر الذهبى ، وعيونهما التى تحار فى التفرقة بين لونها ولون السماء الصافية فى يوم صحو ..

كان الثلاثة يتحركون فى ثقة ، نحو البوابـة رقم ثلاثـة ، وكل منهم يحمل حقيبـة يد أنيقـة من طراز اعتاد المصريون ربطـه بالدبلوماسيين ، فى تلـك الفترة ، عندمـا اعترض طريقهم فجأة

شاب ممشوق القوام ، عريض المنكبين ، محدد الملامح واستوقفهم وهو يقول بألمانية سليمة للغاية :

- الهر (فايزر) والهر (درابو) والأستاذ (بهجت) أليس كذلك ؟

بدا الذعر على الألمانيين ، وأطلت فى عيونهما الزرقـاء نظرة عجيبة أشبه بنظرة فأر وقع فى مصيدة محكمـة ، فى حين قـال المصرى فى شىء من العجرفة :

- بلى .. ماذا تريد منا ؟.. إننا نريد اللحاق بالطائرة .

أجابه الشاب فى هدوء لم يخل من الحزم :

- لا أعتقـد أنـك ستستقل مع صديقيك هذه الطـائرة يا أستاذ (بهجت حمدان) فقد قررنا استضافتك هنا طويلاً .

انتقل (بهجت) فجـأة من الألمانية إلى العربية ، وقال بلهجـة مصرية خالصة وبحـروف ترتجف علـى شفتيه ، وتكـاد تتساقط تحت قدميه :

- من .. من أنت بالضبط ؟

أبرز الشاب بطاقته ، وهو يقول فى حزم :

- (أكرم حسين) .. من المخابرات العامة المصرية .

نطقها بالألمانية ، قبل أن يدير عينيه فى الوجوه الثلاثة الشاحبة ، ويستطرد :

- أظنكم تعلمون الآن لماذا لن تسافروا على متن تلك الطائرة .

ولم يكن الموقف يحتاج إلى تفسير أكثر لذا فقد انهار (بهجت حمدان) تمامًا وترك حقيبته تسقط أرضًا ، وهو يقول بصوت مختنق :

- ولكن كيف ؟! كيف كشفتم أمرى ؟.. لقد كنت حريصًا للغاية !

ابتسم ضابط المخابرات المصرى وهو يقول :

- هذا ما كنت تتصوره ولكن الحقيقة هى أنه مهما بلغ حرصك ومهما بلغ ذكاؤك ، فلن يمكنك أن تفلت قط من عيون رجالنا اليقظة ..

واكتسى صوته بمزيج من الحزم والفخر والإباء وهو يضيف :

- عيون الصقر .

لم يكن ضابط المخابرات المصرى مبالغًا فى قوله هذا أو متجاوزًا حقيقة الموقف فعلى الرغم من الحرص والحذر الشديدين ، اللذين تميز بهما ذلك الجاسوس ، وعلى الرغم من أنه ظل حريصًا أشد الحرص على ألا يلفت إليه الانتباه أو يحيط نفسه بالشكوك إلا أن رجال المخابرات المصرية كشفوا أمره بسرعة كبيرة ..

ومن اللحظة الأولى ..

ففى تلك الفترة ، فى بداية الستينات كان الإسرائيليون يتبعون تكنيكًا جديدًا فى تعاملهم مع فئة خاصة من الجواسيس فلا يستخدمون أية وسيلة من وسائل نقل المعلومات لا أجهزة لاسلكية ، أو كتب شفرة أو رسائل .. أو حتى أحبار سرية .

كان على العميل أن يكتفى باختزان المعلومات وحفظها عن ظهر قلب ثم يسافر بها إلى الخارج ويفرغها دفعة واحدة على شرائط تسجيل أو أوراق ومستندات مكتوبة ..

وكان على المخابرات العامة أن تتصدى لهذه الوسيلة بأسلوب مبتكر أو جديد ..

وبعد دراسة متأنية ، اتفق رأى الرجال على استخدام وسيلة أكثر تعقيدًا وأكثر تكلفة ولكنها ذات نتائج مضمونة إلى حد كبير فقرروا القيام بمراقبة كل الأوكار ، التى تستخدمها المخابرات الإسرائيلية والمنتشرة فى أقطار الأرض فى شقة ذات غرفتين فى (أمستردام) إلى غرفة عادية الأثاث فوق بار صغير فى ميدان (رودلف) فى (ألمانيا الغربية) إلى منزل سرى ذى بوابة حديدية فى (دسلدورف) إلى قاعة الاستقبال فى فندق (ستار) فى (باريس) ..

وكانت هذه العملية شاقة للغايـة ، ولكن النتائج التى أسفرت عنها وأثمرتها كانت رائعة ومدهشة إلى حد جعلها تساوى الجهد والمشقة والتكلفة ومن ضمن هذه الثمرات كانت قضيـة (بهجت حمدان) ..

و(بهجت حمدان) ابن لأسـرة بسـيطة ، اعتصـرت حياتهـا لترسله إلى (ألمانيا الغربية) عـام 1955م ، علـى أمـل أن تظفـر فى النهاية بابن ناجح مرموق ولكن (بهجت) خذل هذه الأسرة وانساق لتيار الفتنة والفساد فى (ألمانيا) وتصادق مع عدد من الشباب المنحرف ، غرق معهم فـى الملذات المحرمـة ، وأهمـل دراسته تمامًا ، حتى إنه فشـل فـى الحصول علـى مؤهلـه طوال سنوات الدراسة وحتى عام 1958م ..

ولكن (بهجت) لم يستسلم لهذا ..

لقد تزوج فى تلك الأثناء فتاة تدعى (أنجريد شـوالم) عاونتـه على الحصول على شهادة غير حقيقية ، تثبت حصوله علـى نـوع مـن الدبلومـات الفنيـة الهندسـية هنـاك ، فـاصطحب زوجتـه وشهادته ، وعـاد بهمـا إلـى (القـاهرة) والتحق بعمـل جيـد فـى الهيئـة العامـة لمشروع الخمـس سـنوات وكـانت تلـك وظيفـة مرموقة فى تلك الفترة ..

لقد ظل طوال فترة عملـه مثـالاً للموظـف الفاسـد المرتشـى المستهتر ، حتى بلغ به الفساد حـد بيع بعض أسرار المشروع لعدد من الشركات الألمانية نظير مبلغ ليس بالكبير وانكشف أمـر هذه الصفقة القذرة ، ففصل من عمله على الفور ..

وفى عام 1962م ، رحل (بهجت) وزوجته عن البلاد واتجها إلى (لبنان) ومنها إلى (باريس) حيث أقاما فى فندق ستار أحد أوكـار المخـابرات الإسـرائيلية فــى (أوروبـا) وهنـاك استشـف موظف الاستقبال أنه صيد سهل فألقى شباكه حوله وراح يتقـرب إليه ، ويشمله برعايتـه ، ويصطحبـه معه إلـى الحفلات الماجنـة وأمـاكن اللهو ، حتـى توطـدت أواصـر الصداقـة بينهمـا ، وبـدأ الموظف يستعد لتجنيده ..

وفى تلك الأثناء ، كان رجال المخابرات المصرية ينفذون خطة عين الصقر ويراقبون كل أوكار المخابرات الإسرائيلية ، ومـا إن لاحظـوا تلـك الرابطـة التـى جمعـت بيـن (بهجـت) وموظـف الاسـتقبال الـذى يعمـل لحسـاب الإسرائيليين ، والمولـود فـى (بورسعيد) حتى وضعوا الأول تحت المراقبة فورًا وبدءوا فـى دراسة كل حركاته وسكناته بمنتهى الدقة ..

وذات ليلة ، وبعد سهرة ملتهبة ، صارح (بهجت) صديقه بأنـه ، عند مغادرته (القاهرة) حصل علـى بعض الوثـائق والمستندات

الخاصة بمشروع السنوات الخمس ، وأنه يدرك فائدتها الاقتصادية ، ويرغب فى بيعها لمن يدفع ثمنًا أكبر ..

وكان هذا أفضل ما يمكن أن يتوقعه موظف الاستقبال الذى قدم (بهجت) لرجل آخر ، يدعى (جورج سيمون) وأخبره أن هذا الأخير رجل أعمال وأنه يهتم كثيرًا بالوثائق التى فى حوزته ..

وفى لقائهما الأول ، وافق (سيمون) على شراء الوثائق بعشرة آلاف فرنك دفعها عدًّا ونقدًا ، فسلم (بهجت) الوثائق وتأكد سيمون من أهميتها قبل أن يسأل فى اهتمام :

ـ هل تدرك خطورة هذه الوثائق ؟

هزَّ (بهجت) كتفيه وهو يقول ساخرًا ، لماذا فى رأيك تقاضيت عشرة آلاف فرنك ثمنًا لها ؟

سأله (سيمون) :

ـ ألا يهمك من سيشتريها ؟

ابتسم (بهجت) قائلاً :

ـ يا عزيزى أنا مستعد للتعامل مع الشيطان نفسه لو أن هذا يفيدنى .

مال سيمون نحوه وتطلَّع إلى عينيه وهو يسأله مباشرة :

ـ وماذا عن المخابرات الإسرائيلية ؟

صمت (بهجت) لحظة ثم أجابه فى حزم :

ـ هذا يتوقَّف على ما سيدفعونه .

كان الحوار يبدو مباشرًا وصريحًا ، على نحو يتنافى مع الأساليب التقليدية ، المتبعة فى عالم المخابرات ولكن الواقع أنه لم يكن عشوائيًا ، فقد درس الإسرائيليون (بهجت) جيدًا لفترة طويلة ، وتأكدوا من أنه مستعد لعمل أى شىء فى الدنيا مقابل المال قبل أن يواجهوه على هذا النحو المباشر ..

ولقد بدءوا فى التعامل معه على الفور ، فنقلوه من (باريس) إلى (فرانكفورت) فى (ألمانيا الغربية) وقدموه إلى أحد عملائهم ويدعى (بوتا) وهو من أكبر تجار البورصة فى مدينة (بريمن) لتدريبه على العمل فى مجال الاقتصاد ودراسة الأسواق ..

واستمرت عملية التدريب هذه عامين كاملين تأكد (بوتا) بعدهما من نجاح تلميذه فعاونه على الحصول على الجنسية الألمانية التى أسقطت عنه الجنسية المصرية طبقًا لقوانين تلك الفترة فى أوائل عام 1967م ..

وبدأ (بهجت) فى إجراء اتصالاته مع مؤسسة البترول فى (مصر) لشراء بعض المنتجات البترولية ، وحضر إلى (القاهرة)

بالفعل مع عدد من رجال صناعة البترول الألمان وحاولوا عقد عدة صفقات ولكن محاولاتهم فشلت تمامًا لأن الأسعار التى قدموها كانت تقل كثيرًا عن الأسعار العالمية فعادوا إلى (ألمانيا) بخيبة أمل ..

ولكن (بوتا) كان يعد للرجل فكرة جديدة ..

لماذا لا يقتحم عالم تجارة السلاح ويحاول توريد بعض صفقات الأسلحة إلى الدول العربية و(القاهرة) ؟..

وراقت الفكرة لـ(بهجت) ، فسافر مرة أخرى إلى (القاهرة) وحاول أن يعرض خدماته على بعض المسئولين والمختصين لتوريد المعدات العسكرية والمهمات ..

كل هذا دون أن يدرك أو يشك هو وجهاز المخابرات الإسرائيلى كله فى أن المخابرات المصرية تتابع كل هذا خطوة بخطوة وأنها تفرش أمامه طريق السقوط حتى يمكنها اقتناصه فى اللحظة المناسبة ..

وبناءً على توجيهات جهاز المخابرات العامة تظاهر المسئولون والمختصون بموافقتهم على إتمام مثل هذه الصفقات العسكرية مما رفع معنويات (بهجت) ومنحه شعورًا بالثقة جعله يعود إلى (بوتا) فى (ألمانيا) ويلقى على مسامعه كل ما لديه فعرفه

(بوتا) على اثنين آخرين ، وكوّن الثلاثة معًا شركة للتعامل مع الشرق الأوسط فى مجال الأعمال الإنشائية تحت اسم (شركة نورد) وراحوا يحلمون بالفوز والربح والتفوق ..

وفى أواخر عام 1968م سافر (بهجت) مرة أخرى إلى (القاهرة) بصحبة شريكيه (ألبرت فايزر) و(وولف درابو) لدراسة العروض مع المختصين والمسئولين الذين واصلوا مجاراتهم للموقف وأبدوا استعدادهم للمضى فى العملية وطلبوا من (بهجت) وشريكيه إيداع مبلغ من المال كتأمين وضمان لجدية الصفقة ..

وعاد الثلاثة إلى (ألمانيا) وقلوبهم تكاد تطير من صدورهم من فرط شعورهم بالظفر والزهو والنجاح وفى منزل (بهجت) فى (بريمن) قال رجل المخابرات الإسرائيلى (سيمون) الذى حضر خصيصًا من (تل أبيب) :

ـ لقد حصلت على صفقة رائعة يا (بهجت) والمفروض منا أن نحسن استغلالها إلى أقصى حد .

سأله (بهجت) فى لهفة وجشع :

ـ وهل سأحصل على مكافأة جيدة ؟

أجابه (سيمون) :

- بالطبع .. وهذا بالإضافة إلى الأرباح الباهظة التى ستحققها من العملية ، وستقدم لك المخابرات الإسرائيلية كافة المساعدات والإمكانيات لإنجاح هذه الصفقات ؛ ولكننا نريدك أن تبذل قصارى جهدك فى (مصر) لجمع أكبر قدر من المعلومات عن القوات المسلحة والاستحكامات العسكرية ، كما نريدك أن تدرس كل المحيطين بك من معارف وأصدقاء من المدنيين والعسكريين وترسل إلينا أسماء من ترى أنه يصلح للتجنيد منهم للعمل لحسابنا .

ولم يدخر (بهجت) وسعًا فى سبيل تنفيذ ما طلبته منه المخابرات الإسرائيلية فسافر مع شريكيه مرة أخرى إلى (مصر) وهناك سدد مبلغ ربع مليون مارك ألمانى كتأمين ثم اتصل بزوج شقيقته وهو أحد العاملين بشركة المقاولون العرب فى منطقة القناة وأبلغه أنه فى سبيل القيام بمشروع هندسى ضخم لحساب الحكومة المصرية بالتعاون مع شركة ألمانية غربية وعرض عليه الالتحاق بالعمل معهم فور بدء المشروع ولوَّح له بمرتب يسيل له اللعاب ويتجاوز ثلاثة أضعاف راتبه الحالى .

وسقط الرجل فى الفخ ، وقدمه (بهجت) لشريكيه (فايزر) و(درابو) اللذين كررا العرض وأسقطا الرجل فى الفخ أكثر وأكثر ..

وتكررت لقاءات زوج الشقيقة بـ (بهجت) وشريكيه وفى كل مرة كان الحوار يتجه إلى الاستعدادات العسكرية التى تقوم بها مصر بعد نكسة يونيو 1967م والإنشاءات التى تقوم بها لهذا الغرض ..

ودائمًا كان زوج الشقيقة يتحدَّث أكثر ويشعر بالزهو وهو يستعرض ما لديه من معلومات حول الإنشاءات العسكرية ومواقعها وأنماطها ..

كل هذا دون أن تتدخل المخابرات المصرية مرة واحدة ..

ولكن عيون الصقور لم تنم قط.

لقد ظلَّت تراقب وترصد كل التحرُّكات والحوارات والمناقشات حتى كان يوم قال فيه ضابط الحالة لرئيسه المباشر :

- العملية تطورت كثيرًا يا سيدى وأعتقد أنه حان الوقت لإنهائها ..

سأله رئيسه فى اهتمام :

- ولماذا ترى هذا ؟

أجابه الضابط على الفور :

- (بهجت حمدان) طلب من زوج شقيقته بعض الرسومات الهندسية الخاصة بالإنشاءات العسكرية والاستعدادات السرية وهى تعتبر من أدق الأسرار العسكرية ولقد سلم الرجل الرسومات

المطلوبة وسيسافر بها مع شريكين إلى (ألمانيا) غدًا فى الثامنة والنصف مساءً ..

عقد رئيسه حاجبيه فى شدة وراح يدرس الأمر فى ذهنه ثم طلب عقد اجتماع عاجل فى مكتبه لم تدم المناقشة فيه لأكثر من نصف ساعة وبعدها تطلّع الرئيس إلى ضابط الحالة المسئول وقال فى حسم :

ـ أنهِ العملية ..

وكان هذا الأمر المختصر هو كل ما يطلبه ضابط المخابرات المصرى ، الذى نهض فى حماس وهو يقول :

ـ أمرك يا سيدى .

قالها وعقارب ساعته تشير إلى تمام الرابعة ثم انطلق ليتخذ الإجراءات الرسمية المطلوبة حتى كان لقاؤه مع (بهجت) وشريكيه فى المطار ..

وكانت لحظة السقوط ..

وفى مبنى استجوابات المخابرات بدا (بهجت) ذاهلاً شاحبًا وهو يسأل بحروف مرتجفة متفككة :

ـ ولكن كيف ؟.. كيف ؟

فاجأه رجال المخابرات المصرية بملف ضخم يحمل اسمه على غلافه مع عدد هائل من الصور والتسجيلات التى تحمل وجهه وصوته منذ لقاءاته وسهراته مع موظف استقبال فندق ستار فى (باريس) وحتى تلك اللحظة التى تسلم فيها الرسومات الهندسية للمنشآت العسكرية من زوج شقيقته ..

وأمام هـذا السيل الجارف من الأدلة والبراهين انهار (بهجت حمدان) تمامًا وراح يبكى ويتوسل ويطلب العطف والعفو وكانت أعصابه متوترة تمامًا حتى إنه كرر كتابة اعترافه ثلاث مرات ووقعه مرتين لأن أصابعه ترتجف فى كل مرة .

وأثناء محاكمته لم يجد محاميه ما يدافع عنه سوى أنه يحمل الجنسية الألمانية ، وأن ما فعله يعتبر تجسسًا وليس خيانة ..

ولكن هذا لم يفد (بهجت) كثيرًا ..

ففى الثامن والعشرين من فبراير عام 1971م التف حبل المشنقة حول عنق (بهجت حمدان) الذى لفظ أنفاسه الأخيرة وهو يدرك أنه سقط بسبب عيون لا تهدأ ولا تنام قط وهى تحمى وتحرس أمن مصر ..

عيون الصقر .

* * *

فن النصر

النصر له زهوة خاصة .. حقيقة لا يختلف عليها اثنان ، فى أى زمان ومكان ، وتحت أية ظروف أو قواعد .. وخاصة عندما يكون النصر عسكريًا وحربيًا ، حققته دولة صغرى ، على دول كبرى ، لها تاريخها وعراقتها وحضارتها ..

ولهذا كان لنكسة يونيو 1967م أثرها القوى ، على المجتمع الإسرائيلى كله ، وبالذات على جنرالاته ، الذين انتفخت أوداجهم فى زهو ظافر ، وهم يعلقون الأوسمة ، ويتلقون التهنئة ، ويصافحون عشرات الأيدى ، التى تمتد إليهم طوال الوقت بالتحية والتقدير .. وفى كل اللقاءات والاجتماعات والمحاضرات ، وعلى صفحات المجلات وأوراق الصحف ، وشاشات التليفزيون ، راح المجتمع الإسرائيلى كله يتحدَّث عن الجيش الأسطورى ، الذى لا يُهزم أو يُقهر أبدًا ، والذى حقق معجزة عسكرية ، على أى مقياس استراتيجى ..

أما المخابرات الإسرائيلية ، فقد بدت أشبه بالطاووس ، من شدة الغرور ، والشعور بالتفوق والقوة ، وراحت تخرق كل القواعد الأمنية ، لتتحدَّث طوال الوقت عن انتصارها الساحق ، على أجهزة المخابرات العربية والسوفيتية ، ونجاحها فى مباغتتهم جميعًا بضربة ساحقة ماحقة ..

وفى كل وسائل الإعلام الإسرائيلية ، تردَّدت نغمة واحدة ، فى إلحاح مستفز .. أن حرب يونيو 1967م ، هى آخر الحروب ، بين العرب و(إسرائيل) ..

والحجة فى هذا ، كانت أن العرب قد انهزموا هزيمة نكراء ، لن تقوم لهم بعدها قائمة أبدًا ، تحت أى مقياس منطقى أو عسكرى ..

ووسط كل هذا ، وكعادتها فى طبيعة عملها ، لاذت المخابرات المصرية بالصمت التام ، واحتفظت بكل ما لديها داخلها ، على الرغم من كل ما واجهته من انتقادات واتهامات ، وكأن الكل يحاول اعتبارها كبش الفداء ، الذى يفترض منه أن يدفع فاتورة الهزيمة كاملة ..

وكان لصمتها هذا عشرات الأسباب ، من أهمها أنها لا تستطيع ، بحكم طبيعتها أن تفصح عن كل ما لديها ، وأن رجالها وخبراءها لم ينتهوا من بحث ودراسة أسباب الهزيمة بعد ، ثم إن القاعدة الذهبية ، التى تؤمن بها دومًا ، هى أنه ليس المهم من ينتصر فى الجولة الأولى ، ولكن الأهم من يربح المباراة فى النهاية ، كما أن كل رجالها يؤمنون بأن من يضحك أخيرًا يضحك كثيرًا .. وطويلاً ..

ومن هذا المنطلق ، ومن ثقتهم التامة فى أنه ، وعلى الرغم من كل فوائد النصر ، هناك نقطة ضعف كبرى تتصل به ، ألا وهى

أن المنتصر ينتفخ زهوًا ، ويكتظ بالثقة ، إلى الحد الذى يفقده الكثير والكثير من الحذر والحكمة ..

والواقع أن نظريتهم هذه كانت سليمة تمامًا ، فجنرالات (إسرائيل) تحولوا بالفعل إلى نجوم لامعة فى المجتمع ، وأحاط بهم بريق الشهرة ، وخلبت لبهم أضواؤها ، فراحوا يتصرفون ويتعاملون من هذا المنطلق ، وحملت برامجهم اليومية ، لأول مرة ، مواعيد الحفلات والاستقبالات والمحاضرات ، التى يعاملون فيها كالأبطال ..

وكرد فعل طبيعى ، بدأ الجنرالات يولون أناقتهم ونرجسيتهم اهتمامًا بالغًا ، ويحيطون أنفسهم بكل مظاهر البريق والزهو ، مما أصابهم بالترهل والتراخى ، وسلبهم بالفعل الكثير من حذرهم التقليدى ، وحرصهم المعتاد ..

ومن بين هؤلاء كان الجنرال (موشى جولدمان) ، أركان حرب الجبهة الشرقية للجيش الإسرائيلى ..

ولأن زوجة (جولدمان) من تلك الطراز ، الذى مقت العسكرية منذ الأزل ، وحلم طيلة عمره بالثراء والشهرة ، فقد وجدت مبتغاها فيما أحاط بزوجها من شهرة وبريق ، وراحت تتعامل بدورها كسيدة مجتمع راقية ، وزوجة لأحد أهم مشاهير (إسرائيل) الحديثة ، وهى تلقى بالأحاديث الصحفية هنا وهناك ، وتتدرب

على الابتسام أمام المرآة ، وعلى لباقة الحديث ورونقه ، وتحرص على ارتداء أفضل وأفخم الثياب ، إلى الحد الذى أرهق ميزانية زوجها ، وجعله يعترض ويغضب ويصرخ أحيانًا ، مطالبًا إياها بالحد من الإنفاق ، وإن لم يحاول هو تطبيق المبدأ ذاته على نفسه ، وهو يستبدل أزرار زيه العسكرى بأخرى ذهبية ، ويختلق المناسبة تلو الأخرى ، لتتصدر صورته صفحات الصحف الأولى ..

ووسط كل هذا ، وجدت زوجته ، فى إحدى الحفلات ، من يهمس فى أذنها بفكرة جديدة ، بدت لها عبقرية جذابة ، وخلبت لبها بحق ، لما فيها من ابتكار ، لم يسبقها إليه أى جنرال آخر ..

لماذا لا يصنع زوجها لنفسه تمثالاً نصفيًا أنيقًا ، يزين به مكتبه ؟

وانبهرت زوجة (جولدمان) بالفكرة ، ولم تلبث أن نقلتها إلى زوجها ، وهما فى طريق العودة إلى منزلهما ، إلا أنه استنكر الأمر تمامًا ، وقال: إن هذا سيجعله أضحوكة ، فى نظر ضباطه وقياداته ..

ولكن النساء يمتزن بعامل خاص جدًا ، مهما اختلفت جنسياتهن ..

الإلحاح ..

وبهذا العامل ، لم تتوقَّف الزوجة عن التحدث عن الفكرة ، طوال الليل والنهار ، وعن تزيينها ، وتجميلها ، وتبريرها ، حتى إنها اقترحت أن تقوم إحدى صديقاتها بعمل التمثال ، ثم ترسله إليه كهدية ، تقديرًا لدوره الفائق فى الحرب ..

ورويدًا رويدًا ، راح الجنرال (جولدمان) يخضع للفكرة ، ويستسلم لها .. بل وبدأت تروق له أيضًا ، وهو يتخيل تلك التمثال الأنيق ، على سطح مكتبه ، يواجه كل زائر ببراعته وانتصاراته ، و ..

وأدركت الزوجة أنها قد نجحت ، وحان موعد التنفيذ ..

وعندما أعلنت هذا لصديقتها ، التى أوعزت لها بالفكرة ، نصحتها تلك الصديقة ، اليونانية المولد (إيلينا) باختيار فنان معروف للقيام بالعمل ، ثم رشحت لها الفنان والمثَّال الإيطالى (بجاروتى) ، والذى ـ ويا للمصادفة ـ يزور (إسرائيل) فى تلك الآونة ، للاطلاع على معارض الفن هناك ..

وبمعاونة (إيلينا) ، قامت زوجة (جولدمان) بالاتصال بالمثَّال الإيطالى ، الذى اعترض على الفكرة فى البداية ، بحجة أن وقته فى (إسرائيل) لن يكفى ، للقيام بعمل يفتخر به ، ثم لم يلبث أن لان قليلاً ، مع توسلاتها المستميتة ، والمبلغ الكبير ، الذى لوَّحت به .. وأخيرًا ، وافق (بجاروتى) على الفكرة ، وطلب مقابلة الجنرال ، لصنع النموذج الأولى ، وهيكل الأسلاك اللازم لعمل التمثال ..

وهنا تردد الجنرال (جولدمان) كثيرًا ، وأصابه القلق من الموقف كله ، وأعلن لزوجته عن قلقه وشكوكه ، وخشيته من أن يؤدى هذا إلى بعض المشكلات ، إلا أنها تسلَّحت مرة أخرى بسلاح الإلحاح والإقناع ، وطلبت منه أن يقوم بعمل بعض التحريات ، عن (بجاروتى) هذا ، حتى يطمئن إليه ، قبل أن يقف أمامه لتنفيذ التمثال ..

ووجد الجنرال (جولدمان) رأى زوجته عمليًا ومقنعًا هذه المرة بالفعل ، خاصة وأنه صديق لمدير المخابرات الإسرائيلية ، الذى وافقه على الفكرة ، وحبَّذ وجهة نظره ، باعتبار أن كل شخص ، يتصل بأحد الجنرالات ، فى جيش (إسرائيل) ، لابد من التقين من حقيقة هويته وانتماءاته أولاً ..

وهكذا ، بدأت المخابرات الإسرائيلية فى عمل كل التحريات اللازمة ، عن الفنان الإيطالى (بجاروتى) ، وكل ما يتعلق به ..

ولقد استغرقت تلك التحريات أسبوعًا واحدًا ، اتصل بعدها مدير المخابرات بصديقه (جولدمان) ، وقال فى حزم :

ـ الرجل نظيف .. امض فى الأمر ..

وبكل ارتياح ، حدَّد (جولدمان) موعدًا للمثَّال الإيطالى ، فى منزله فى (تل أبيب) .. وفى الموعد بالضبط ، حضر (بجاروتى) ..

كان إيطاليًا حتى النخاع ، فى كبريائه ، وغروره ، وشعره الأسود الطويل ، المبعثر فى خصلات حول رأسه ، ولحيته وشاربه القصيرين ، اللذين يمنحانه عمرًا يفوق سنواته الفعلية بكثير ..

ولا أحد يمكنه أن يتصوّر كم شعرت زوجة (جولدمان) بالفخر ، وهى تستقبل مثَّالاً إيطاليًا شهيرًا فى منزلها ، وتقدمه لصديقاتها ، ولزوجات الجنرالات الآخرين ، اللاتى حضرن لرؤيته ، ومتابعة عمله على الطبيعة ..

وفى زهو حقيقى ، وقف الجنرال أمام الإيطالى ، الذى راحت أصابعه تعمل ، فى خفة وسرعة ومهارة ، ليصنع الهيكل السلكى ، ثم يكسوه بالجبس والصلصال ، وملامح الجنرال (جولدمان) تتكوَّن أمامه رويدًا رويدًا ، على نحو مبهر ، يشف عن موهبة واضحة ، وبراعة بلا مثيل ..

وطوال ثلاثة أيام كاملة ، واصل الفنان عمله ، حتى تكوَّن أمام العيون المبهورة ، ذلك النموذج الأولى ، الذى أبدى الجنرال إعجابه الشديد به ، وراح يلقى بشأنه ملاحظاته هنا وهناك ، والإيطالى ينفذ التعليمات ، حتى استقر النموذج ، وشهقت زوجات الجنرالات الآخرين انبهارًا به ، مما أعلن نجاحه التام ..

وكان هذا يعنى أنه لم تعد هناك سوى خطوة واحدة ..

صنع القالب الرئيسى ، لإنتاج التمثال النهائى ..

ولكن هذه الخطوة بالذات لم يكن من الممكن أن يقوم بها الإيطالى ، فى منزل الجنرال (جولدمان) ، وإنما كان من المحتم أن يتم عمله فى مرسم خاص ، حيث تحيط به كل أدواته ..

وهكذا ، حمل (بجاروتى) النموذج إلى ورشته الخاصة ، بمباركة الجنرال (جولدمان) وزوجته ..

وكانت أطول ليلة ، فى حياة الفنان الإيطالى ..

لقد انتهى من عمل القالب الرئيسى ، فى الثالثة والنصف صباحًا ، ثم أجرى اتصالاً هاتفيًا قصيرًا ..

وفى الرابعة إلا خمس دقائق ، استقبل فى منزله ثلاثة زوّار ..

اليونانية (إيلينا) ، وبصحبتها رجلان ، توحى ملامحهما بأنهما من اليهود الشرقيين ، الذين قضوا فترة طفولتهم وشبابهم فى (مصر) ..

وحتى السادسة صباحًا ، انهمك أحد الزائرين مع (إيلينا) ، فى عمل بعض التوصيلات الخاصة داخل القالب الرئيسى ، ومدّ بعض الأسلاك ، و ..

وفى السادسة والربع ، قام (بجاروتى) بصب المادة الرئيسية

للتمثال فى القالب ، فى حرص بالغ ، وما أن انتهى من عمله ، وراجعه بمنتهى الدقة ، حتى غادر الزوّار الثلاثة المكان ، بنفس الخفة والحذر ، اللذين وصلا بهما ..

أما (بجاروتى) ، فقد ألقى جسده على فراشه ، فور انصرافهم وغرق فى نوم عميق ..

عميق للغاية .. وفى اليوم التالى ، استيقظ (بجاروتى) فى التاسعة مساءً ، وارتدى ملابسه ، ثم خرج لقضاء السهرة فى أحد الملاهى الليلية ، وكأنه مجرد فنان لاه ، لا يقيم للدنيا وزنًا ..

ومع مقدم السبت التالى ، حمل (بجاروتى) تمثاله الأنيق للغاية ، إلى منزل الجنرال (جولدمان) ..

وانطلقت شهقات التقدير والإعجاب والانبهار ، من حلق زوجة الجنرال ، والزوجات الأخريات ، اللاتى شعرن ، إلى جوار مشاعرهن العادية ، بموجة قوية من الحسد تجتاح نفوسهن ، والجنرال يبدى إعجابه البالغ بالتمثال ..

وفى الصباح الباكر ، نقل الجنود التمثال النصفى ، إلى مكتب الجنرال ..

وانتقل معه الحسد ، إلى قلوب باقى الجنرالات ..

وبإيعاز من أحدهم اعترض الأمن على وضع التمثال فى مكتب الجنرال ، قبل عرضه على المختصين ، وفحصه بأجهزة كشف التنصت ..

وعلى الرغم من غضب الجنرال (جولدمان) لهذا ، إلا أنه طلب تطبيق كل إجراءات الأمن المعتادة ، حتى يخرس الألسنة ، ويجدع أنوف الحاسدين ..

وبمنتهى الدقة ، فحص رجال الأمن العسكريون التمثال ، وأخضعوه لكل اختبارات التنصت الإلكترونية ..

وجاءت النتيجة سلبية تمامًا ..

وهكذا ، احتل التمثال موقعه ، فى صدارة مكتب الجنرال (موشى جولدمان) ، دليلاً على براعته وانتصاراته ، فى حرب يونيو 1967م .

واستعد (بجاروتى) للعودة إلى (إيطاليا) ولملم أوراقه وحمل حقيبة ملابسه ، و ..

وفجأة ، انهال عليه سيل من الطلبات ..

أكثر من عشرة جنرالات ، فى الجيش الإسرائيلى ، يطلبون تماثيل نصفية لهم ، بالزى الرسمى ، بكل ما عليه من أوسمة ونياشين ..

ولأن الأمر قد أقلقه كثيرًا ، اتصل (بجاروتى) بزميلته اليونانية (إلينا) لاستشارتها ، وأرسلت هى بدورها رسالة شفرية إلى (القاهرة) ، استقبلها رجل المخابرات المصرى (م . ن) بنفسه ، وقرأها فى إمعان ، قبل أن يبتسم ، قائلاً :

ـ من كان يتصوَّر كل هذا النجاح .

وبعد ساعة واحدة ، عقد (م . ن) اجتماعًا لرجاله ، لدراسة الأمر ، وتحديد ما إذا كان على (بجاروتى) أن يرحل ، مكتفيًا بمهمته الأولى ، أم يستمر لتحقيق المزيد والمزيد من النجاحات ؟!..

وبعد مناقشات ومحاورات ، ودراسات استمرت ست ساعات كاملة ، اتخذ الرجال قرارهم باستمرار الإيطالى فى عمله ، لاختراق مواقع قيادية أكثر ، فى الجيش الإسرائيلى وقال (م . ن) فى حزم :

ـ خبراؤنا واثقون من أن أجهزة التنصت ، التى يتم زرعها داخل التماثيل ، لن يمكن كشفها بالوسائل المعتادة ، خاصة وأنها ستظل خاملة لأكثر من عام كامل ، قبل أن تبدأ عملها ؛ لتنقل إلينا كل ما يدور ، داخل مكاتب جنرالات الجيش الإسرائيلى ، ثم إن مادتها الصلبة تجعلها غير قابلة للكسر بسهولة ، مما يعنى

أن انكشاف أمرها ليس بالأمر المحتمل ، فى القريب العاجل ، فلماذا لا نربح أرضًا أكثر ..

وهكذا صدرت الأوامر إلى العميلة اليونانية (إيلينا) ، التى نقلتها شفاهة إلى الفنان الإيطالى ، الذى مدَّ فترة إقامته فى (إسرائيل) ، لتلبية كل الطلبات ..

وخلال شهر واحد ، احتلَّت تماثيل (بجاروتى) معظم مكاتب جنرالات الجيش الإسرائيلى ..

وفى بداية عام 1972م ، انتهى (بجاروتى) من عمل آخر تماثيل الجنرالات ، واتخذ قراره بالعودة إلى (إيطاليا) ..

وفى فبراير 1973م ، وبعد أن نسى الجميع أمرها ، بدأت التماثيل فى القيام بعملها ، فى كفاءة تامة ..

وبدأت المخابرات المصرية تستقبل عشرات التسجيلات الدقيقة ، لكل ما يدور فى مكاتب جنرالات الجيش الإسرائيلى ، من أحاديث ، ومحاورات ، وقرارات .. وكل ما يتردد فيها من معلومات وأسرار بالغة الخطورة ، كان لها دور كبير ، فى الإعداد والمواجهة القادمة ..

ومع منتصف سبتمبر 1973م ، تلقَّت (إيلينا) رسالة شفرية لاسلكية عاجلة ، من المخابرات العامة المصرية ، تحمل أوامر

مشددة بمغادرة (إسرائيل) ، والسفر فورًا إلى (اليونان) أو (قبرص) ..

ونفذت (إيلينا) الأوامر ، وسافرت إلى (اليونان) ، وهناك التقى بها رجل مخابرات مصرى ، منحها جواز سفر خاص ، من جوازات السفر المصرية ، ثم اصطحبها إلى طائرة من طائرات (مصر للطيران) ، فى العشرين من سبتمبر ، حملتها فى رحلة مباشرة إلى (القاهرة) ..

وكانت مفاجأة حقيقية لها أن تلتقى بالإيطالى (بجاروتى) ، فى مكتب (م . ن) ، الذى استقبلهما معًا بترحاب شديد ، وأخبرهما أنهما سيبقيان فى (مصر) ، حتى منتصف أكتوبر ، حيث سترد أوامر أخرى بشأنهما ..

وفى السادس من أكتوبر 1973م ، أدرك الاثنان لماذا صدرت إليهما الأوامر بالقدوم إلى (القاهرة) فورًا ..

لقد اندلعت الحرب بغتة ، بين (مصر) و(إسرائيل) ، وعبر المصريون قناة (السويس) ، وسحقوا خط (بارليف) ، وجنّ جنون القيادة الإسرائيلية ، وطار صواب جنرالاتها ، الذين راحوا يدرسون ويفحصون ويمحصون ، فى محاولة لفهم أسباب تلك الهزيمة الرهيبة ..

وحتى ثورتهم هذه ، نقلتها أجهزة التنصت ، المزروعة فى تماثيل (بجاروتى) إلى آذان المصريين مباشرة ..

وارتفع العلم المصرى ، على جانبى قناة (السويس) ، وانبهر العالم كله بذلك الانتصار الساحق ، الذى نسف أسطورة جيش (إسرائيل) الذى لا يقهر ، ورفع أسهم العرب عشرات المرات ..

أما رجال المخابرات العامة المصرية ، فقد ارتفعت هاماتهم فى ظفر ، وانطلقت من حلوقهم الضحكة الأخيرة ، وهم يتحدثون عن تلك العملية العبقرية ، التى استخدموا فيها سلاحًا جديدًا ، لم يخطر ببال الإسرائيليين قط ..

سلاح الفن ..

فن النصر ..

* * *

لعبة المحترفين

اقتربت سيارة الأجرة العتيقة فى حذر ، من ذلك المبنى الصامت المهيب ، وضغط قائدها على فراملها فى خفة ، وتركها تتوقف فى بطء ، على مسافة كبيرة من بوابة المبنى ، وهو يلقى عليها نظرة متوترة ، قبل أن يلتفت إلى الراكب الوحيد ، الذى يحتل المقعد الخلفى ، ويقول فى صوت خافت ، أقرب إلى الهمس ، وكأنما يخشى أن يسمعه أحد العاملين بالمبنى :

ـ المخابرات يا أستاذ .

لم يكن الراكب أقل عصبية أو قلقًا ، وهو يلقى نظرة شاحبة على المبنى ، الذى لم تكن سمعته فى ذلك الحين ، فى نهاية الستينات ، تتجاوز كونه معتقلاً رهيبًا غير رسمى ، يندر أن يدخله شخص بإرادته ـ من غير العاملين ـ .

وفى توتر ملحوظ ، غادر الراكب السيارة ، ونقد سائقها أجره ، ولم يكد هذا الأخير يتسلم النقود ، حتى ألقاها أمامه ، وضغط على دواسة الوقود ، وانطلق مبتعدًا عن المبنى ، وهو يبسمل ويحوقل ، ويحمد الله (سبحانه وتعالى) ، على أنه خرج من هذا المكان سالمًا ..

أما الراكب ، فعلى الرغم من كونه ضابطًا سابقًا ، من ضباط القوات المسلحة ، الذين ذاقوا مرارة الهزيمة ، عام 1967م ، والذين خاضوا أهوالاً تعجز عن وصفها الكلمات ، حتى عادوا نصف ممزقين إلى منازلهم وأسرهم ، إلا أنه شعر برهبة ما بعدها رهبة ، وهو يزدرد لعابه ، ويتطلع إلى المبنى الشهير .

ووقف صامتًا أمام رجل أمن البوابة ، الذى بادره بالحديث ، فى لهجة مهذبة ، أذابت شيئًا يسيرًا من توتره :

ـ أية خدمة يا أستاذ ؟

ازدرد الشاب لعابه مرة أخرى ، وقال بصوت شاحب :

ـ أريد مقابلة أحد المسئولين هنا .

كان يتصور أنه يطلب أمرًا جللاً ، وأن الحارس سيرمقه بنظرة غاضبة صارمة ، وينهال عليه بالأسئلة والاستجوابات ، ولكنه فوجئ به يقول فى هدوء :

ـ بطاقتك لو سمحت .

ناوله بطاقته فى قلق ، والتقطها الحارس فى بساطة ، وعاد إلى حجرته ، ذات الجدار الزجاجى السميك ، وأجرى بعض الاتصالات الهاتفية فى سرعة ، قبل أن يعود إليه قائلاً فى بساطة :

ـ تفضل .. سيصحبك زميلى إلى المكان المطلوب .

عبر إلى ساحة المبنى فى توتر شديد ، وتبع الحارس الثانى إلى داخل المبنى ، وعبر عددًا من الممرات الطويلة ، كان أكثر ما يميزها ذلك الصمت المهيب ، والسكون العجيب ، والأبواب المغلقة ، وتلك اللوحات الإرشادية ، التى تملأ الحوائط ، وتتحدث عن إجراءات الأمن الواجب اتباعها ، للحفاظ على أسرار الوطن .

وانتهت الرحلة الطويلة إلى مكتب صغير ، يجمع ما بين الأناقة والبساطة ، يجلس فيه ضابط مخابرات شاب ، وسيم الملامح ، باسم الثغر ، يرتدى ثيابًا مدنية ، ويبدو مختلفًا أشد الاختلاف ، عن تلك الصورة الصارمة المخيفة .

وفى بساطة وترحاب ، صافح ضابط المخابرات ذلك الشاب ، الذى لم يكد يجلس على ذلك المقعد ، المواجه لمكتب الضابط ، حتى قال :

ـ اسمى (ماهر عبد الحميد) .. ضابط سابق فى القوات المسلحة .

قال الضابط بابتسامة هادئة :

ـ تشرفنا .

ازدرد (ماهر) لعابه للمرة العاشرة على الأقل ، وتردد لحظة ، ثم لم يلبث أن حسم أمره ، وقال فى سرعة ، وكأنه يخشى التراجع :

ـ لقد جندنى (الموساد) لحسابه .

كان يتصورّ أنه يلقى بقنبلة ، فى وجه ضابط المخابرات ، إلا أن هذه القنبلة لم تلبث أن انفجرت فى أعماقه هو ، عندما ابتسم الضابط الشاب ، وقال فى اقتضاب واثق :

ـ نعلم هذا .

وانتفض جسد الشاب كله ، من هول المفاجأة .

ـ تعلمون هذا ؟!.. كيف ؟

اتسعت ابتسامة الضابط الشاب ، وهو يفتح درج مكتبه ، ويخرج منه مظروفًا يكتظ بالصور الفوتوجرافية ، وضعه أمام (ماهر) ، الذى أخرج الصور ، واتسعت عيناه فى ذهول ، وهو يشاهد نفسه فى الصور ، مع ذلك الجاسوس ، الذى جنده لحساب (الموساد) ، فى عدة مواضع وأماكن ، وعلى نحو بالغ الدقة .

ـ كيف حصلتم على هذه الصور ؟

لوّح الضابط الشاب بكفه ، وقال :

ـ لا تقلق نفسك بهذا الأمر الآن ، وأخبرنى أولاً عن كل ما لديك .

حاول (ماهر) أن يزدرد لعابه هذه المرة أيضًا ، ولكن حلقه كان أشبه بصحراء جافة .

وبدأ يروى ..

* * *

بدأ كل شىء بعد حرب يونيو 1967م ، عندما لم تسمح حالة (ماهر) الصحية بالعودة إلى صفوف القوات المسلحة ، مما أورثه مرارة وألمًا شديدين ، حركا جراحه ، وأقنعه طبيبه المعالج بضرورة إرساله إلى المستشفى العسكرى لاستكمال علاجه القديم ..

وهناك التقى (ماهر) - لأول مرة - بذلك الرجل ..

كان ضابطًا عربيًا ، يحيا كلاجئ سياسى فى (مصر) ، ويحظى بكل الرعاية والعناية فيها ، وكان أنيقًا مهيبًا ، له اتصالاته الواسعة وعلاقاته الجيدة ، مع عدد من كبار المسئولين .

ومنذ اللحظة الأولى بدأ الرجل حواره مع (ماهر) ، وقدم له نفسه ، واحتواه بعبارته الأنيقة ، وأسلوبه الجذّاب ، حتى لم يأت لقائهما الثالث ، إلا و(ماهر) يتحدث إليه كصديق قديم ، ويشرح له أحلامه وآماله :

- كم أتمنى أن أؤلف كتابًا عن حرب يونيو ، أقص فيه للدنيا أخبار البطولات ، التى قام بها رجالنا على أرض (سيناء) ، على الرغم من الهزيمة .

واستمع إليه الرجل فى اهتمام ، ثم قال :

- ليس هذا بالأمر العسير .. إننى أعرف المسئولين هنا ، ويمكننى إقناعهم بالفكرة .

وغادره (ماهر) والأحلام تملأ رأسه ، وراح يكتب فى منزله ملخصًا للكتاب ، وتقريرًا بكل الفوائد التى تأتى من نشره ، ولم تمض أيام حتى كان يهرع بالملخص والتقرير إلى (صبحى) ، الضابط العربى ، وكله أمل فى أن يكون (صبحى) قد حصل على الموافقة المنشودة ..

ولكن (صبحى) قرأ الملخص والتقرير فى صمت ، ثم هز رأسه ، قبل أن يقول فى أسف :

- لقد رفض المسئولون الفكرة للأسف .

هوى قلب (ماهر) بين ضلوعه ، وانهار على مقعده مبهوتًا ، ولكن (صبحى) استطرد :

- ولكن لى صديقًا فى (ألمانيا) ، يمتلك دار نشر ضخمة ، ويمكنه نشر كتابك هناك .. إنهم ديمقراطيون كما تعلم ، ويؤمنون بأن كل شخص له حق التعبير عن رأيه .

لم يصدق (ماهر) نفسه ، وقد انتعش الأمل فى قلبه من جديد وهتف :

- هل يمكن هذا حقًا ؟

ارتسمت ابتسامة غامضة على شفتى (صبحى) ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد .. سيحضر شقيقى (عبد القوى) من (ألمانيا) قريبًا ، وسيحمل الملخص إلى صديقنا الألمانى .. ومن يدرى ياصديقى ؟.. ربما أصبحت من الأثرياء .

قالها وهو يربت على كتفى (ماهر) فى حرارة ، وينعش الأمل فى أعماقه أكثر وأكثر .. وأتى (عبد القوى) من (ألمانيا) ، والتقى بـ (ماهر) ، الذى شرح له فكرة الكتاب بكل حماس ، فابتسم (عبد القوى) ، وقال :

ـ رائع .. كتاب جميل بالفعل ، ولكن ..

عاد قلب (ماهر) يهوى ، مع ذلك الاستدراك ، قبل حتى أن ينطقه (عبد القوى) :

ـ ولكن كل شىء مرهون بموافقة الناشر الألمانى .

وسافر (عبد القوى) ..

سافر وانقطعت أخباره فترة ، تضاعفت خلالها لهفة (ماهر) ، والتهبت مشاعره ، حتى وصل خطاب قصير منه ، يحمل عبارة واحدة :

ـ « تسجيلات (ماهر العطار) قيد البحث » ..

كانت العبارة تبدو مبهمة بالنسبة لـ (ماهر) ، ولكن (صبحى)

أعلن فهمه لها ، وأعلن أيضًا ضرورة سفره بنفسه إلى (ألمانيا) ..

وسافر (صبحى) ، وغاب بضعة أيام ، ثم عاد ..

ومع عودته بدأت أحلام (ماهر) تتحقق على نحو مبهر ، فقد منحه (صبحى) ـ بعد عودته ـ مبلغًا ضخمًا من المال ، وساعة ذهبية ، عليها اسمه بنقوش بالغة الأناقة ، وحقيبة ممتلئة بعدد لا حصر له من الهدايا المستوردة ، التى لم يكن من السهل ـ بل من المستحيل ـ أن يحصل عليها مصرى عادى ، فى ذلك الحين ..

وعلى الرغم من كل هذا ، جاء جوابه بشأن الكتاب عجيبًا :

ـ لقد وافقوا على نشر الكتاب ، ولكن ليس وسط المناخ السائد حاليًا .

ولما سأله (ماهر) فى حيرة عما يعنيه ، أجاب وهو يتنهد فى عمق وحكمة :

ـ نظام الحكم الحالى ، وأساليبه وسياسته ، كلها أمور لا تتفق ونهضة ثقافية ، أو سياسية .. اعمل معى على أن ينتهى هذا النظام ، ويأتى نظام جديد ، وعندئذ لن يتردد الأصدقاء لحظة واحدة فى نشر كتابك .

قالها بلهجة واثقة حازمة ، وهو يربت على كتفى (ماهر) ، ويمنحه ابتسامة كبيرة ، دون أن يدرك أن عبارته هذه أيقظت شيئًا ما فى أعماق ضابط القوات المسلحة المصرى السابق ..

أيقظت حاسة الشعور بالخطر ..

* * *

انتهى (ماهر) من روايته ، عند تلك النقطة ، التى أدرك فيها أن الأمر يتجاوز مجرد نشر كتاب ، إلى محاولة تجنيد كاملة ، وساد الحجرة الصغيرة صمت ثقيل ، وراح (ماهر) يتطلّع إلى ضابط المخابرات المصرى الوسيم ، الذى قطع حبل الصمت بكلمة موجزة :

ـ عظيم .

أسرع (ماهر) يقول :

ـ لقد ذكرت كل ما حدث .

ابتسم الضابط الشاب ، وقال عبارته نفسها :

ـ نعلم هذا .

سأله (ماهر) فى شىء من التوتر :

ـ ما الذى ينبغى على فعله الآن .. هل أنسحب من اللعبة كلها ؟

هزّ ضابط المخابرات رأسه نفيًا ، ومال نحو (ماهر) ، وهو يقول فى حزم :

ـ على العكس تمامًا .. لقد انغمست على الرغم منك فى أخطر لعبة فى العالم أجمع يا صديقى . ولم يعد أمامك سوى أمر واحد .

أن تمضى فى اللعبة حتّى النهاية .

وفى هذه المرة جاء دور (ماهر) ليصغى ويستمع .. وبكل جوارحه ..

* * *

لم تتوقف اللعبة ، بعد هذا اللقاء ..

لقد استمرت فى نفس خط السير ، الذى أعده الجاسوس من قبل ، و(صبحى) يتصوّر أنه لاعب شطرنج ماهر ، يجيد تحريك القطع على اللوحة بكل خبرة وفن وذكاء ، دون أن يخطر بباله ـ مجرد خاطر ـ أنه صار هو نفسه مجرد قطعة على لوحة (شطرنج) أخرى ، يديرها المصريون بحنكة .

وأدى (ماهر) دوره بإتقان يستحق الإعجاب ، فقد راح يجمع المعلومات بالوسائل التقليدية ، دون أن تعاونه المخابرات المصرية مرة واحدة ، حتى لا يثير أمره أدنى شك ..

فقد كان ضابط المخابرات الشاب يطالع كل هذه المعلومات ، قبل أن يسلمها (ماهر) إلى الجاسوس ، وكان فى بعض الأحيان يحذف منها معلومة أو معلومتين ..

وانهالت المعلومات الدسمة على الجاسوس ، على نحو يسيل اللعاب ..

مرة عن الخبراء السوفيت على الجبهة ، ومرة عن أنشطة القوات المسلحة ، وأخرى حول أحدث طائرات (الميج) ، التى انضمت إلى القوات الجوية ، أو عن تسليح وطلقات ذخيرة طائرات (السوخوى) .. بل كانت المعلومات فى بعض الأحيان عن كمية الخبز ، التى يستهلكها الجيش كل يوم ..

ولم يمنح الجاسوس ثقته لـ (ماهر) دفعة واحدة ، بل راح يضعه أمام الاختبار تلو الآخر ، والامتحان بعد الامتحان ، حتى لم يعد يشك فى أمره أدنى شك ..

وهنا كان من الطبيعى أن ينتقل به إلى المرحلة التالية ..

مرحلة التدريبات ..

وكان هذا أكبر دليل على الثقة .. وعلى نجاح المخابرات المصرية ..

وتلقى (ماهر) أحدث التدريبات فى عالم الجاسوسية ، على يد خبراء (الموساد) .

تعلم كيف يرسل رسالة بالحبر السرى ، وكيف يلتقط صور الوثائق والمواقع فى سرية تامة ، وكيف يجمع المعلومات ، أو يوطد صلاته بذوى الشأن ..

وعندما انتهى من تدريباته ، حانت لحظة المصارحة ..

كان يجلس مع الجاسوس ، يشاهدان آثار غارة إسرائيلية ، على الأراضى السورية ، على شاشة التلفاز ، عندما قال (صبحى) :

ـ إننا المخطئون يا أخى .. لم لا نحيا معهم فى سلام .

وافقه (ماهر) فى حماس ، فافتر ثغر (صبحى) عن ابتسامة ارتياح ، وبدأ يتحدث عن الإسرائيليين .. و(الموساد) ، والشعوب الحرة ، و(ماهر) يتظاهر بالدهشة ..

كانت هذه هى المرحلة ، التى أخبره عنها ضابط المخابرات المصرى ، والتى يكف فيها (صبحى) عن التظاهر بأنه و(ماهر) يعملان لحساب (الأصدقاء الألمان) ، كما كان يسميهم ، ويعلن صراحة أنهما يعملان لحساب (الموساد) ..

ومع المصارحة ، راح (صبحى) يغرى (ماهر) بذلك الثالوث الشهير ، فى عالم الجاسوسية ، بالخمر ، والمال ، والجنس ..

وكان من المحتم أن يجاريه (ماهر) فى كل هذا ، حتى لا يثير شكوكه ، وأن يتظاهر بأن هذا هو كل هدفه من الحياة ، وأنه يبحث عن الثراء والمتعة ، حتى ولو كان على حساب وطنه وأمنه .

ومع الجاسوس ، شاهد (ماهر) عملية تجنيد مواطن مصرى آخر ، وراقبها هذه المرة بعين الخبير ، وشعر بالقلق ، ونقل شعوره هذا إلى ضابط المخابرات المصرى :

ـ هذا الرجل يزداد خطورة فى كل مرة .. لم لا ننهى أمره الآن .

ابتسم الضابط الشاب ، وقال فى هدوء :

ـ اصبر .. لكل شىء أوان .

ولكن (ماهر) كان أكثر قلقًا .

إنه يتابع ما يفعله (صبحى) بوطنه .. ويرتجف كلما تصور النتائج ، التى يمكن أن تنشأ عن هذا ، ويرتعد مع تخيل مصير بلاده ، وأسرارها تنساب إلى العدو ، على هذا النحو .

ثم حانت اللحظة ..

كان هذا فى التاسع عشر من مارس ، عام 1969 ، عندما قال ضابط المخابرات المصرى فى حزم :

ـ اليوم سنلقى القبض على الجاسوس .

انتفض قلب (ماهر) ، ورقص طربًا وسعادة ، وعاد إلى منزله ، وهو يتخيل فى حماس لحظات القبض على الرجل ، الذى لم يكد يواجه رجال المخابرات ، حتى قال فى سرعة :

ـ كل ما لدى هنا مجرد وديعة ، تركها عندى ضابط سابق ، يدعى (ماهر عبد الحميد) .

ولكن رجال المخابرات ابتسموا فى سخرية ، واتجهوا أمام عينيه الذاهلتين إلى أماكن تم تحديدها مسبقًا ، وراحوا يخرجون كل ما يريدون من مخبئه ، ثم أداروا شرائط التسجيل ، وأخرجوا الصور وقال (صبحى) بصوت مختنق :

ـ أريد ورقة وقلمًا .

وفى استسلام تام ، جلس يكتب اعترافًا تفصيليًا ..

لقد أدرك ، حتى قبل محاكمته ، أن كل شىء تم إعداده بدقة مدهشة وأنه لم يعد من الممكن أن ينكر أو يراوغ أو يناور ..

وعندما التقى بـ (ماهر) ، أثناء محاكمته ، فى المحكمة العسكرية ، تطلَّع إليه فى انهيار ، وغمغم بصوت مختنق :

ـ أحسنت اللعبة يا رجل .

ابتسم (ماهر) ، وهو يقول :

ـ بل أحسنها رجال مخابراتنا .

وخفض الجاسوس عينيه فى مرارة ، ولم يستطع مواجهة هؤلاء الثعالب ، الذين حققوا ذلك الانتصار ، وهزموه فى اللعبة التى تصوَّر نفسه أستاذًا لها ..

لعبة المحترفين .

* * *

من قلب العدو

بدأ ذلك الصباح ، من أحد أيام السبعينات ، هادئًا ، فى مبنى المخابرات العامة المصرية ، وتحرَّك أحد ضباط الجهاز ، من الذين تم إلحاقهم به حديثًا ، فى الممر الطويل ، الذى يحوى حجرات رجال التخطيط والمتابعة ، ثم دلف إلى حجرة العميد (فؤاد أبو غزالة) ، أحد رجال المخابرات القدامى ، أصحاب الباع الطويل فى هذا العالم السرى الغامض ، وقال بابتسامة مهذبة :

ـ صباح الخير يا سيادة العميد .. كيف حالك ؟

استقبله العميد (فؤاد) بلهفة واضحة :

ـ صباح الخير .. هل قرأت ذلك البيان ، الذى أصدره مأمور سجن (شطا) الإسرائيلى اليوم ؟

ـ لا ليس بعد .. ما الذى يحويه ؟

تنهَّد العميد (فؤاد) وقال :

ـ لقد مات (إسرائيل بيير) فى السجن .

هتف الضابط الشاب فى دهشة :

ـ حقًّا ؟!.. إنها مفاجأة بالفعل ..

هزّ العميد (فؤاد) رأسه ، وكأنه يسترجع ذكريات قديمة هامة ، وقال :

- من الطبيعى أن تنتهى حياته على هذا النحو العجيب ، فهذا جزء من طبيعة (إسرائيل بيير) هذا كان يعمل لحسابنا ، بشكل غير مباشر ؟

قال الضابط الشاب :

- نعمَ يا سيادة العميد .. أعلم هذا .

قال العميد (فؤاد) :

- وهل تعمل أن (موشى ديان) ، وزير الدفاع الإسرائيلى هو الذى ألقاه فى قبضتنا ، دون أن يدرى ؟

هتف الضابط الشاب فى دهشة بالغة :

- كلا .. لست أعلم هذا ..

وهنا راح العميد (فؤاد أبو غزالة) يقص على تلميذه فى عالم المخابرات العامة قصة مستشار الأمن القومى الإسرائيلى الذى كان عميلاً للمخابرات المصرية ..

* * *

عندما ظهر (إسرائيل بيير) لأوّل مرة ، فى المجتمع الصهيونى ، كان يحمل قصة أنيقة لا يمكن أن تثير الشكوك ، حول ولادته فى (فيينا) لأب من كبار رجال الصناعة ، ودراسته لفن الإخراج المسرحى ، وعمله فى المسرح ، حتى تولى (هتلر) السلطة .. وعندئذ يقول (إسرائيل) إنه التحق بالأكاديمية العسكرية وتخرج فيها كضابط محترف ، وعلى الرغم من هذا فقد درس فى أكاديمية الفنون حتى حصل على شهادة الدكتوراه ..

وعندما طرح (إسرائيل) هذه القصة ، بعد قدومه إلى (فلسطين) ، كان كل شىء معدًا ومناسبًا لاستقباله ، مع وجود عصابات (الهاجاناة) التى تتكون من الشباب اليهودى المتعصب وتسعى لتخريب القرى العربية ، واغتيال سكانها الأبرياء وكان من الطبيعى أن ينبهر الجميع بحلته العسكرية وشهادة الدكتوراه حتى إنهم أسندوا إليه منصب مدير عملية (الهاجاناة) ..

لم يكتف (إسرائيل بيير) بهذا ..

لقد ترقى فى صفوف الجيش الإسرائيلى ، حتى حصل على رتبة (كولونيل) ثم بدأ إلقاء المحاضرات فى جامعة (تل أبيب) ونشر من تأليفه مجموعة من الكتب ..

ومع الوقت ، أصبح (إسرائيل بيير) أحد مستشارى الأمن

القومى فى (إسرائيل) وجرت بين يديه الأموال المخصصة للمهام السرية ، باعتبار أنه ممثل الجيش الإسرائيلى ، فى كل المنظمات العسكرية الأوروبية فراح يغترف من هذه الأموال اغترافًا ، وينفق منها فى بذخ مثير للاستفزاز على علاقاته النسائية ، وسهراته الصاخبة ، وحياته اللاهية ، التى جعلت منزله رقم (67) فى ضاحية (اليوكون) ملهى ليلاً غير رسمى فى شارع (برانديس) ..

ولكن بقاء الحال من المحال ..

لقد بدأ خلاف واضح يطفو على السطح ، بين (إسرائيل بيير) و(موشى ديان) وزير الدفاع الإسرائيلى ، عندما وصف الأولّ الثانى يومًا بقول :

ـ وزير الدفاع هذا جاهل أفّاق ، كل مؤهلاته هو أنه كان يُراقب ساحة المعركة من بعيد عبر منظاره المقرب فأصابته رصاصة طائشة اقتلعت إحدى عينيه ، فمنحته مظهرًا متميزًا ، يصلح لنجوم السينما ، بأكثر مما يصلح لرجل عسكرى .

ولم يكد هذا القول يبلغ (موشى ديان) حتى قال فى غضب :

ـ ومن (إسرائيل بيير) هذا ؟!.. إنه مجرد قارئ عسكرى ، ولكن هل يمكن أن يربح معركة ؟!

واحتدم ذلك الصراع ، حتى إنه فى أحد الاجتماعات ، التى ضمتهما معًا ، هبَّ (موشى ديان) صائحًا ، وهو يشير إلى (إسرائيل بيير) فليغادر هذا الأفّاق الاجتماع ، أو أغادره أنا ..
ولأن (ديان) قد اعتبرها حربًا شخصية ، فقد سعى جاهدًا بكل قوته وخبرته واتصالاته حتى وصل إلى ما يبتغيه ..

لقد توقفت امتيازات (إسرائيل بيير) المادية السرية .. ولم يستطع (بيير) احتمال هذا ..

لقد اعتمد فى حياته كلها على هذه المصروفات السرية ، حتى إنه انهار بدونها تمامًا وراح يغرق نفسه فى الخمر ، بعد أن انفض عنه كل من حوله ، وفارقه الجميع ، ولم يعد له من نديم ولا صديق عدا فتاة واحدة .. (ريناتا) ..

وأثناء سهرة محدودة ، دعا فيها (إسرائيل بيير) صديقته (ريناتا) وصديقه (جاك بيتون) أو (رفعت الجمال) ، العميل المصرى الذى زرعته المخابرات المصرية فى قلب (إسرائيل) بكت (ريناتا) من أجل (بيير) وقالت لصديقها (جاك بيتون) أن (بيير) مستعد لفعل أى شئ فى الدنيا ، ليستعيد مكانته السابقة .. وفى الليلة نفسها ، أبرق (رفعت) إلى (القاهرة) قائلاً :

ـ لقد وضعت يدى على مفتاح (إسرائيل) وأطلب السماح بمحاولة تجنيده .

ولم يمض أسبوع واحد حتى كان (رفعت) يلتقى فى (روما) بالخواجة اليونانى (باباياتو) فى بهو فندق (أمبريال) ويناقش معه الفكرة ولكن الخواجة (باباياتو) والذى لم يكن سوى المقدم (مصطفى عبد الحميد) ..

قال فى هدوء :

ـ لا تتعجل الأمور .. دع الصيد يسقط وحده .

وبعدها علم (رفعت) أن المخابرات المصرية قد اختارت طريقًا آخر ، وهو السعى لتجنيد الفتاة الغارقة فى حب (إسرائيل بيير) ، والتى تسعى لإعادته إلى مجده السابق ..

وبشكل بدا طبيعيًا وبسيطًا ، أهدى (رفعت الجمال) إلى (ريناتا) تذكرة مجانية إلى (باريس) عبر شركة (ستورز) التى يمتلكها ، وأشار إلى أنها ستلتقى هناك بصديق له يعمل فى منظمة عالمية تسعى للسلام ومساعدة البشرية ، وأن هذه المنظمة يسعدها أن تتعامل مع المثقفين والخبراء من أمثال صديقها (بيير) ولم ينس الإشارة إلى أنهم يدفعون مقابلات مادية جيدة ..

وفى (باريس) قدمت (ريناتا) بطاقة (جاك بيتون) إلى الفرنسى (ديمترى جوزيف) الذى حملق فيها طويلاً وكأنه يحاول أن يتذكر ، ثم لم يلبث أن هتف :

ـ آه .. (جاك بيتون) .. تذكرت .. إنه رجل سياحة خفيف الظلّ وعاشق لدولته (إسرائيل) .. لقد قابلته هنا ذات مرة .

ولم يكن (ديمترى جوزيف) هذا سوى العقيد حينذاك (فؤاد أبو غزالة) الذى أدار اللعبة بعبقرية وبراعة ، وتدبير شديد الإتقان ، فترك (ريناتا) تقضى أسبوعًا كاملاً فى (باريس) ، دون أن يوليها اهتمامًا زائدًا ، ثم أخبرها بعد ذلك أنها ستلتقى برئيس المنظمة ، قال إنه رجل مشغول دائمًا وليس لديه الوقت للمناقشة والمحاورة ، وطلب منها أن تتحدث معه بكل صراحة وتخبره بما يمكنها تقديمه إليه ، مع صديقها (إسرائيل بيير) وعمّا إذا كان الأخير على علم بما تفعله أم لا .. وفى حجرة مغلقة مسدلة الستائر ، فى الطابق الثانى من شركة سياحية ، فى قلب (باريس) التقت (ريناتا) بشاب قوى البنية ، ممشوق القوام ، استقبلها بابتسامة واسعة ، وسألها :

ـ لقد أخبرونى بجديتك فى التعاون معنا ، وسوف أنقل رغبتك الصادقة هذه إلى المسئولين ، ولكن قبل أن أفعل أحب أن أعرف بشكل واضح هل أنت مستعدة مع (بيير) لتزويدنا بأية معلومات نطلبها ؟

قالت بسرعة :

- أنا مستعدة لفعل أى شىء تطلبونه ، من أجل مساعدة (بيير) وهو يعلم أننى أسعى لمساعدته ..

صمت الشاب قليلاً ثم قال :

- فليكن .. سأشرح هذا لهم ، ولكن احتفظى بكل ما دار هنا سرًا ، ولا تخبرى حتى ذلك الرجل الذى أرسلك إلينا ، لأنه يجهل حقيقة أهدافنا .. هل فهمت ؟ وافقت (ريناتا) على كل طلباته وأوامره ، وافترقا بعد أن اتفقا على إجراء لقاء آخر بعد أسبوعين فى (روما) واتفقا على مكانه وكيفيته ، وعادت هى فى ترقب إلى (تل أبيب) دون أن تدرى أنها أصبحت مطروحة على مائدة البحث ، وفى مبنى المخابرات العامة فى (القاهرة) ، وبين ثلاثة من أهم وأخطر رجال الجهاز : المدير ونائبه لشئون الجاسوسية ، ومساعده المختص بدولة (إسرائيل) ..

واستغرق البحث والمناقشات يومًا كاملاً ، وفى منتصف الليل ، ذهب مدير المخابرات بنفسه لطرح الأمر على أهم رجل فى (مصر) كلها فى ذلك الحين .. على الرئيس (جمال عبد الناصر) نفسه .

وفى الصباح المبكر ، كان القرار قد اتخذ بحسم كامل ..

ستعمل (ريناتا) لحساب المخابرات العامة المصرية ، حتى يتم تجنيد عشيقها (إسرائيل بيير) بشكل غير مباشر ..

ولأن السبب الرئيسى لما فعلته (ريناتا) هو الحاجة إلى المال ، فقد أغدقت عليها المخابرات المصرية التى كانت مستعدة لدفع أية مبالغ ممكنة ، للوصول إلى شخص بالغ الأهمية فى الحكومة الإسرائيلية ، مثل (إسرائيل بيير) .

ولكن هذه الأموال التى ستتدفق على (بيير) كانت كافية لإثارة الشكوك حتمًا ، خاصة وأن (موشى ديان) لم يكن قد أزاح (إسرائيل بيير) من ذهنه بعد ، بل يواصل مراقبته ومتابعة انهياره فى تشف وارتياح ، ولن يقبل بسهولة فكرة خروج (بيير) من عنق الزجاجة ، الذى وضعه فيه ، خاصة ولو كان هذا الخروج محاطًا بالريبة والشكوك ..

وهنا لجأت المخابرات المصرية إلى فكرة عبقرية لمنح (بيير) الأموال اللازمة ، دون إثارة شكوك مخلوق واحد ، حتى (بيير) نفسه ، فقد أوعزت (ريناتا) إلى (بيير) بإعادة طبع كتابه (الشرق الأوسط بين الشرق والغرب) ، وعندما تم طرحه ابتاعت المخابرات المصرية كل نسخة من الأسواق فبدا وكأن الكتاب قد لاقى رواجًا مدهشًا ، ودرَّ على مؤلفه أرباحًا خيالية ، أثارت غيظ (ديان) وحنقه ، فاعتبر ما حدث مجرد ضربة حظ ..

أما بالنسبة لوسيلة الاتصال بين (ريناتا) والمخابرات المصرية ، فقد تم تأمينها بشكل شديد الإتقان والتعقيد ، حتى لا تتطرق إليها أيضًا ذرة واحدة من الشك ..

وفى هذا المضمار ، لجأت المخابرات المصرية إلى أختين غير شقيقتين ، إحداهما من أم فرنسية ، والأخرى من أم مصرية ، فكانت إحداهما تعمل فى مكتبة أوروبية ، والثانية فى فرع شركة مصر للطيران ، فى نفس الدولة الأوروبية ..

وكانت (ريناتا) تدخل إلى المكتبة ، فى الأوقات التى تقل فيها حركة روادها ، فتشترى كتابًا عاديًا ، ثم تذهب لدفع ثمنه للأخت الفرنسية ، ومع النقود تعطيها ما لديها من المعلومات ..

وكأمر طبيعى ، كانت الأخت المصرية تذهب لزيارة أختها فى المكتبة بين الحين والآخر ، فتأخذ المعلومات وترسلها إلى (القاهرة) ..

أما بالنسبة للنقود ، التى تحصل عليها (ريناتا) من أجل صديقها (بيير) فكانت تسير فى المسار العكسى ، من الأخت المصرية إلى الفرنسية .

وعلى الرغم من المبالغ الضخمة ، التى كانت تحصل عليها (ريناتا) إلا أن ما ترسله من معلومات ووثائق ، تختلسها من (إسرائيل بيير) كانت تستحق كل هذا وأكثر فقد أمدت المخابرات المصرية بوثائق شديدة الأهمية والسرية كان لها أعظم الأثر فى ازدياد نشاط وفاعلية رجال القوات الخاصة المصرية ، واتساع

نطاق عملياتهم فى قلب (إسرائيل) وارتفاع نسب نجاحها إلى درجات ملحوظة ..

ولكن مع رجل مثل (إسرائيل بيير) لم يكن من الممكن أبدًا أن يسير كل شىء على ما يرام طوال الوقت ، فإفراط الرجل فى الشراب وحياة اللهو ، جعله عصبيًا فظًا قاسيًا فى معاملته للجميع ، وعلى رأسهم (ريناتا) التى وعلى الرغم من حبها له عجزت فى النهاية عن احتماله وطلبت من المصريين إعفاءها من المهمة ، ولكنهم نصحوها بالبقاء لبعض الوقت ، حتى لا يخسروا ذلك السيل من الوثائق والمعلومات ، الذى ينهمر من مبنى وزارة الدفاع الإسرائيلية إلى مكتب (بيير) فى منزله ..

فقد كان (بيير) يعمل لحساب المخابرات السوفيتية ، ويسعى لتقديم كل وثائق الحكومة الإسرائيلية إليها .

وكانت (ريناتا) تحصل على صور كل هذه الوثائق وترسلها إلى المصريين الذين وعدوها بمكافأة مالية ضخمة ، مع كل نجاح تحققه .

وذات يوم ، فوجئت (ريناتا) بصديقها (إسرائيل بيير) يعود إلى المنزل ، حاملاً كمية ضخمة من الأوراق ، فسألته فى دهشة :

ـ ما كل هذا ؟

انعقد حاجباه ، وهو يقول فى خشونة :

ـ لا شأن لك به .. إنه العمل ..

لم تدر لماذا شعرت لحظتها بالتوتر والدهشة فى أنها قد أحبت هذا الفظَّ النحيل الأصلع صاحب الوجه الأحمر ، الذى يعمل كمؤرخ فى وزارة الدفاع الإسرائيلية ، ومعلق عسكرى فى جريدة (هاآرتس) !

لقد بدا لها فى ذلك اليوم بالذات ، مقيتًا عنيفًا ، سخيفًا ، حتى إنها قررت أن تهجره بعد أن ينتهى عملها مع المخابرات المصرية ..

وفى الليلة نفسها ، تسلَّلت إلى حجرة مكتبه ، لتفحص تلك الأوراق ، التى أحضرها من وزارة الدفاع الإسرائيلية .. وكانت مفاجأة مدهشة ..

لقد بلغ الرجل درجة من الغرور والاستهتار جعلته يحضر إلى منزله ثلاثين كيلو جرامًا من الوثائق البالغة السرية .

وكانت فرصة نادرة بالنسبة لـ(ريناتا) .

وطوال الليل تقريبًا ، ظلت (ريناتا) تلتقط عشرات الصور لهذه الوثائق ، والحيرة والدهشة لا يفارقانها قط ، مع كل سطر تقرؤه وكل وثيقة تلتقط صورتها .

كان تصرفًا بالغ الجرأة والحماقة من (إسرائيل بيير) بالفعل ، أن ينقل كل هذا إلى منزله ، أمام أعين الجميع ..

بل كان نقطة الانهيار ، لعالمه كله ..

فلم يمض يوم واحد ، حتى تم إلقاء القبض على (إسرائيل بيير) وتفتيش منزله ، حيث عثر الإسرائيليون على كل هذا الكم من الوثائق البالغة السرية ومبلغ ضخم من الدولارات الأمريكية .. وكانت مفاجأة مذهلة ، للمجتمع الإسرائيلى كله .. وفضيحة ما بعدها فضيحة ..

وأثناء محاكمته ، هاجمه الادعاء فى عنف ، حتى اضطر (إسرائيل بيير) إلى الاعتراف بأنه لم يلتحق بأية أكاديمية ، ولم يحصل قط على شهادة الدكتوراه ..

وأدين (إسرائيل بيير) إلى الاعتراف بشدة ، وصدر الحكم ضده بالسجن خمسة عشر عامًا ..

أما (ريناتا) ، فقد خرجت من الأمر مثل الشعرة من العجين كما نقول فى (مصر) ..

لم يكن هناك قط ما يدينها .. بل ولم تتطرق إليها حتى الشبهات !

والعجيب أن (ريناتا) أمكنها الاحتفاظ بصور الوثائق التى التقطتها لمدة عشرة أيام ، بعد اعتقال صديقها (بيير) ثم نجحت فى إرسالها إلى المخابرات المصرية ، وطلبت منهم استضافتها فى (مصر) وحمياتها وتأمين مستقبلها ..

وكان لها ما أرادت .

وبعد عام واحد من السجن ، تم إعلان وفاة (إسرائيل بيير) رسميًا فى حين رحلت (ريناتا) إلى (أسبانيا) واستقرت هناك لتجتر ذكرياتها مع حبيبها السابق الذى لم يكن يعلم أنه يعمل لحساب المخابرات المصرية من الباطن ..

* * *

نجم هوى

اعتدل جنود الحراسة ، الرابضون أمام منزل رئيس الجمهورية (جمال عبد الناصر) ، فى ذلك اليوم ، من أيام يناير عام 1965م ، عندما توقفت أمامهم سيارة سوداء ، تحمل داخلها وجهًا معروفًا ، اعتادوا استقباله فى مقر الرياسة ، فى منشية البكرى ، وتعلقت عيونهم بصاحب الرأس الأصلع والحاجبين المعقودين الصارمين ، الذى لم ينبس ببنت شفة ، وسيارته تعبر بوابة المنزل ، وتتوقف به أمام المبنى نفسه ، وعندما غادر السيارة كان يحمل فى حرص واهتمام ملفًا أحاطه بأصابعه فى حزم ودقة ، يشفان عن خطورة محتوياته ، ولقد قاده المسئول بسرعة وعلى الفور إلى مكتب الرئيس ، الذى استقبله بهدوئه المعهود وهو يقول :

ـ خير يا (صلاح) .. لماذا طلبت مقابلتى على وجه السرعة ؟

لم يكن ذلك الرجل مجرد شخص عادى ، يطلب مقابلة رئيس جمهوريته ، وإنما كان ـ فى اعتقاد الكثيرين ـ واحدًا من أخطر رجال (مصر) ، فى تلك الحقبة من الزمن ..

كان مدير المخابرات العامة (صلاح نصر) ..

وفى شيء من الانفعال واللهفة ، وضع (صلاح نصر) الملف الذى يحمله أمام الرئيس (جمال) وهو يقول :

ـ الأمر بالغ الخطورة يا سيادة الرئيس .. اقرأ بنفسك .

ألقى الرئيس نظرة على الملف ، ثم قرأ بعناية المذكرة التوضيحية ، التى وضعها مدير المخابرات العامة فى مقدمته ، ولم يكد ينتهى منها ، حتى هتف :

ـ (صلاح) .. إنه ليس مجرد أمر بالغ الخطورة .. إنه كارثة .

ومع قوله ، كانت عيناه تعيدان قراءة الاسم المدون على الملف ..

اسم (إيلى كوهين) ..

* * *

(إيلى حوفى كوهين) .. اسم يستحيل أن يجهله أى رجل مخابرات عربى أو إسرائيلى ، فى هذه الأيام ، وخاصة بعد أن صدرت عنه عشرات الكتب والروايات ، معظمها إسرائيلى ، تحيطه بإطار من القوة والبطولة ، وتنسج حوله عشرات القصص الأسطورية ، التى تجعله بمثابة نجم ، فى هذا العالم السرى ، أو هكذا حاول الإسرائيليون أن يظهروه ، دون أن يشيروا إلى ما أصاب هذا النجم ..

إلى السقوط ..

وبدايات (إيلى) بسيطة وعادية للغاية ، فقد كان والده (حوفى كوهين) تاجرًا سوريًّا متواضعًا ، هاجر مع أسرته إلى (مصر) ، واستقر بهم المقام فى (الإسكندرية) . وهناك ولد (إيلى) فى 16 ديسمبر 1924م ، وهناك أيضًا التحق بمدرسة (الليسيه) الفرنسية .

وهناك أيضًا التقى بـ (بولندى جابى) ، التى كانت بداية الخيط ..

و(بولندى) هذه كانت إحدى سيدات الأسر اليهودية الثرية ، وعضوًا نشيطًا فى الوقت ذاته ، فى جهاز (هاموساد اليابيت) .. أو (الموساد) ، الذى قرر إنشاء فرع له فى (مصر) ، عن طريق حركة الشباب اليهودية المصرية ، المعروفة باسم (هاشيروت) ، فأرسل أحد رجاله (ليفى إفراهام) ، التى رشحت له عددًا من الشباب اليهودى ، وعلى رأسهم (إيلى) ..

وعمل (إيلى كوهين) لحساب (الموساد) ، قبل أن يحصل على شهادة (البكالوريا) ، أو الثانوية العامة فى ذلك الوقت ، وأبدى نشاطًا ملحوظًا فى تسهيل خروج اليهود المصريين إلى (فلسطين) ، وفى الاتصال بالسفارات والقنصليات ، وأجاد الإنجليزية والفرنسية والإيطالية ، والتحق بكلية الهندسة بجامعة (فؤاد الأول) ـ (القاهرة) حاليًا ـ وحصل على شهادته ، على الرغم من هجرة أسرته كلها إلى (إسرائيل) .. عام 1950م ..

وفى عام 1953م ، أرسلت المخابرات العسكرية الإسرائيلية (أمان) ، أحد رجالها إلى (مصر) ، وهو (إبراهام دار) ، الذى وصل بجواز سفر بريطانى ، يحمل اسم (جون دارلنج) ، سعيًا وراء تكوين خليتين صهيونيتين ، فى (القاهرة) و(الإسكندرية) ، وأرسل خمسة من أعضاء الخليتين إلى (تل أبيب) ، عن طريق (باريس) ، لتلقى تدريبات حول تفجير القنابل الزمنية ، ثم أعيد هؤلاء الخمسة إلى (مصر) ، حاملين مخططًا تخريبيًا خاصًا .

ومن بين هؤلاء الخمسة كان (إيلى كوهين) ..

وفى خلال عملية عرفت باسم (عملية سوزانا) ، أصدر (جون دارلنج) أوامره للخليتين ، بنسف وتخريب عدد من المنشآت البريطانية والأمريكية ، بهدف إفساد اتفاقية الجلاء ، التى تم توقيعها بين الجانبين المصرى والبريطانى فى هذا الوقت .

ولكن أحد أفراد الخليتين ارتكب خطأ قاتلاً ، أدى إلى اشتعال النيران فى جيبه ، قبل تفجير هدفه ، مما دفع أحد رجال الشرطة إلى إلقاء القبض عليه ، واصطحابه إلى قسم شرطة محطة الرمل ، حيث تم استجوابه ، واعترف بالأمر كله ..

وسقطت الخليتان ..

وفى مساء الليلة نفسها ، جرت حملة اعتقالات واسعة ، فى

(القاهرة) و(الإسكندرية) ، لكل أفراد الخليتين والعناصر المشتبه فيها ، ومن بين هؤلاء أيضًا كان (إيلى) ..

وعلى الرغم من أن اعترافات أعضاء الخليتين شملت عددًا كبيرًا من شباب اليهود ، إلا أنها لم تتضمن اسم (إيلى كوهين) ، مما أدى إلى الإفراج عنه وإخلاء سبيله ، وإن لم يمنع هذا من فتح ملف خاص له ، فى جهاز المخابرات العامة المصرية الذى كان يخطو خطواته الأولى ، فى هذا العالم السرى الغامض ..

وحمل الملف اسم (إيلى حوفى كوهين) ، وكان هذا يحتم توقف (إيلى) عن النشاط .

ثم حدث العدوان الثلاثى على (مصر) ..

وكإجراء وقائى ، تم اعتقال كل أصحاب هذه الملفات ، دون أدلة اتهام ، حتى ديسمبر 1956م .. عندما تقرر إطلاق سراحهم ، وطردهم خارج (مصر) ، لدواعى الأمن ..

وفى العشرين من ديسمبر 1956م غادر (إيلى) (مصر) ، على باخرة تابعة للصليب الأحمر ، نقلته إلى (إيطاليا) ، مع عدد كبير من اليهود المصريين ، حيث قضى عدة أسابيع فى (جنوة) .

وفى (بات يام) ، جنوب (تل أبيب) ، قضى (إيلى) أيامه الأولى فى (إسرائيل) ، مع والدته وأسرته ، وراح يدرس اللغة

العبرية ، ثم لم يلبث أن التحق فى أواخر العام نفسه بعمل فى وزارة الدفاع الإسرائيلية ، يعتمد على ترجمة كل ما ينشر فى الصحف العربية إلى العبرية ، وإعداد تقارير وتحليلات عنه ، لصالح جهاز المخابرات العسكرية (أمان) ..

ولم يلبث أن مل هذا العمل أيضًا ، فتقدم بطلب للنقل إلى جهاز (الموساد) ، إلا أن طلبه هذا قوبل بالرفض ، مما دفعه إلى تقديم استقالته ، والعمل فى شركة لتسويق المواد الغذائية ، وأثناء هذا العمل التقى بـ (ناديا) ، الممرضة بمستشفى (هداسا) بالقدس ، وتزوجها بعد فترة تعارف قصيرة ..

ولم يشعر (إيلى) بالارتياح فى عمله الجديد ، ولكنه لم يشك منه هذه المرة ، أو يحاول تركه .

صحيح أنه لم يسع للاستقالة ، ولكن الأمر جاء بوسيلة مختلفة هذه المرة ، إذ التقى بصديق قديم ، كان يعمل معه فى (أمان) ، ودار بينهما حديث حول استقالته ، وبعدها انصرف زميله ، بعد أن اتفقا على اللقاء مرة ثانية .

وفى هذه المرة الثانية ، دعاه صديقه للسير على الشاطئ ، وهناك سأله فجأة :

ـ أما زلت ترغب فى الانضمام لجهاز (الموساد) ؟

وهنا صارحه زميله بأنه أحد ضباط (الموساد) ، وطلب منه كتمان ما سيسمعه تمامًا ، حتى بالنسبة لأسرته وزوجته ، ثم أبلغه موافقة (الموساد) على عمله فى صفوفهم .

وفى ربيع وصيف 1960م ، اجتاز (إيلى) برنامجه التدريبى ، واستعد لتسلم عمله الجديد ، ومهمته البالغة الأهمية ، فى (سوريا) .

وعلى الرغم من أن المهمة كانت تستهدف (سوريا) ، إلا أنها بدأت فى (بيونس أيرس) ، عاصمة (الأرجنتين) ، التى وصل إليها (إيلى) فى 21 مارس 1961م ، قادمًا من (زيورخ) ، وحاملاً اسم (كامل أمين ثابت) ، الذى يشير جواز سفره إلى جنسيته السورية ..

وفور وصوله ، نشط (إيلى) فى التعرف على مجتمع المغتربين فى (بيونس أيرس) ، وراح يوطد صداقاته معهم ، حاملاً قصة تم إعدادها بدقة ، تقول : إنه سورى من أصل لبنانى ، هاجر مع عائلته إلى (الإسكندرية) ، ثم سافر عمه إلى (الأرجنتين) عام 1946م ، ولحق هو به مع عائلته عام 1947م ، ثم توفى والده هناك بسكتة قلبية ، عام 1952م ، وبعده بستة أشهر رحلت والدته ، وبقى هو وحده هناك ، يعمل بتجارة الأقمشة ، ثم سافر إلى (أوروبا) عدة سنوات ، وعاد الآن ثريًا ..

ولم تمض عدة أسابيع ، حتى أصبح (كامل أمين ثابت) رجلاً معروفًا ، فى أوساط المهاجرين ، الذين بلغ عددهم فى تلك الفترة نصف المليون مهاجر عربى ، وتوطدت صلاته برئيس تحرير مجلة (العالم العربى) التى تصدر هناك (عبداللطيف الخشان) ، الذى قدمه بسلامة نية إلى أصدقائه ومعارفه ، من رجال السفارات العربية فى (الأرجنتين) ، وبسرعة أصبح (إيلى) ضيفًا دائمًا فى معظم حفلات السفارات ..

والعجيب أن أحد ضباط المخابرات السورية قد شك فى الرجل ، وأرسل إلى (المكتب الثانى) فى (سوريا) ، يطلب التحرى عنه ، ولكن الإسرائيليين كانوا قد اختاروا قصة حقيقية ، لأسرة مهاجرة ، تحمل اسم (ثابت) ، مما جعل المخابرات السورية تؤيد قصة (إيلى) ، دون أن تهتم بتمحيصها وبحثها جيدًا ، نظرًا لأن الشكوك حوله لم تكن بالقدر الذى يكفى لهذا ..

وبعد عدة أشهر ، وبالتحديد فى أغسطس 1961م ، أعلن (كامل أمين ثابت) عن رغبته فى العودة إلى الوطن (سوريا) ، وتقدم بطلب للحصول على تأشيرة الدخول ..

وفى (دمشق) ، قضى (إيلى) شهرًا كاملاً ، دون أن يزاول نشاطه ، حتى لا يثير الشبهات من حوله فى 28 سبتمبر 1961م ، ثم بدأ فى تأثيث شركة للاستيراد والتصدير ، تخصصت فى تصدير

الأثاث العربى والمشغولات الخشبية إلى (أوروبا) ، وراح يفيد شركته استفادة مزدوجة ، إذ كانت الأحاديث التى يتبادلها مع الآخرين ، بحكم العمل ، تنقل إليه قدرًا وافرًا من المعلومات ، عن أحوال السوق الاقتصادية ، والتى كان يرسلها فور عودته إلى منزله ، إلى (الموساد) مباشرة ، عن طريق جهاز إرسال صغير جدًا ، أما ما يلتقطه من صور ووثائق فكان يرسلها داخل تجاويف خاصة ، فى قطع الأثاث والمشغولات اليدوية ، التى يتم تصديرها إلى (أوروبا) ، حيث يلتقطها واحد من ضباط (الموساد) فى (سويسرا) ..

أما من الناحية الاجتماعية ، فقد كان التطور أكثر سرعة ، وأكثر خطورة ..

لقد نجح (إيلى) فى عقد صداقات عديدة ، مع العسكريين والإعلاميين السوريين ، واستأجر منزلاً فى مواجهة مبنى القيادة العامة للقوات المسلحة السورية ، حيث راح يراقب ما يحدث من تطورات هناك ، مما ساعده على إرسال معلومات بالغة الأهمية والفائدة إلى الإسرائيليين ، الذين اعتبروه عميلاً ممتازًا .

ثم وقع (كامل ثابت) على أهم صيد منذ بدء عمله ..

لقد أقام صداقة مع ضابط شاب ، هو فى الوقت ذاته ابن شقيق

رئيس هيئة الأركان للقوات المسلحة ، ونجح فى استدراجه للحصول على معلومات بالغة الخطورة ، بحجة الاطمئنان على سلامة الوطن وأمنه ، بل واصطحبه الضابط إلى الخطوط الأمامية ، حيث شاهد بنفسه تسليح وتحصينات الوحدات السورية ، وتمادى فى المرة التالية ، فحمل معه آلة تصوير ، والتقط عدة صور للمستعمرات الإسرائيلية ، الواقعة عند سفوح المرتفعات السورية ، وأرسلها إلى (تل أبيب) ، التى حددت منها مواقع المرتفعات السورية ..

وكعضو فى حزب البعث ، وطد (إيلى) علاقاته بقيادات الحزب ، ووزير الإعلام (سامى الجندى) ، وصار واحدًا من الكوادر الحزبية التى يشار إليها بالبنان ، وضيفًا شبه دائم ، فى حفلات الاستقبال ، التى تقيمها رئاسة الجمهورية السورية ، وخاصة بعد اقتراحه بعمل زيارة حزبية إلى (الأرجنتين) ، جمع خلالها تسعة آلاف دولار ، كتبرعات لحزب البعث ، من المهاجرين السوريين هناك ، أضاف إليها ألف دولار من حسابه .

ولمع اسم (كامل أمين ثابت) ، وساعده هذا على تكوين صداقات أكثر قوة وخطورة ، ومنحه حرية حركة أكثر ، خاصة بعد ترشيحه أو ترديد اسمه مرشح لمنصب نائب وزير الإعلام ، أو نائب وزير الدفاع ، حتى إنه استطاع التقاط عدة صور عن

قرب ، للمقاتلة الاعتراضية (ميج ـ 21) ، التى كانت أقوى مقاتلة اعتراضية فى ذلك الحين .

ومع ارتفاع أسهمه ، أصبح (إيلى) أحد أعضاء الوفد السورى المرافق للفريق الأول (على عامر) ، القائد العام للقيادة العربية الموحدة ، عندما زار الجمهورية العربية السورية ، على رأس وفد عسكرى كبير ، فى ديسمبر 1964م ، لإجراء مباحثات مع القادة العسكريين هناك .

وكان (كامل أمين ثابت) هو تقريبًا المدنى الوحيد ، الذى يرافق العسكريين رسميًا ، فى تلك الجولة ، باستثناء المصورين والصحفيين .

وكان هذا هو الخطأ ، الذى بدأ مرحلة النهاية ..

* * *

فى أوائل يناير عام 1965م ، كان أحد ضباط المخابرات المصرية يطالع بعض الصحف العربية ، عندما لفتت انتباهه صورة اللواء (على عامر) ، أثناء زيارته لسوريا ، وحوله أعضاء الوفد السورى ، المرافق له ، وتركز بصره على شخص وسطهم بالتحديد وعقد حاجبيه فى شدة ، وهو يعتصر ذهنه ، فى محاولة لمعرفة متى رأى صاحب هذا الوجه بالتحديد ..

ثم هبَّ من مقعده ، وهو يهتف فجأة :

ـ إنه هو .

واختطف الصحيفة ، واندفع نحو مكتب (صلاح نصر) ، مدير المخابرات العامة المصرية فى ذلك الحين ، ووضع الصحيفة أمامه ، وهو يقول :

ـ هذا الرجل ، الذى يرافق الوفد العسكرى ليس سوريًا .. إنه يهودى يدعى (إيلى حوفى كوهين) .

سأله (صلاح نصر) فى انزعاج :

ـ كيف يمكنك الجزم بهذا ؟

ـ إننى أعرفه جيدًا ، فلقد كنا زميلين فى مدرسة (الليسيه) الفرنسية ، وحصلنا معًا على البكالوريا عام 1946م .. وله ملف كامل هنا .

وهنا طلب (صلاح نصر) الملف ، وطالعه ثم حمله على الفور .. إلى الرئيس (جمال عبد الناصر) ..

ظل الرئيس (جمال) يقرأ الملف لأكثر من خمس وأربعين دقيقة ،

ثم رفع سمّاعة هاتفه ، وطلب من سكرتاريته الاتصال بالرئيس السورى اللواء (أمين حافظ) على الفور ، وما أن تم الاتصال حتى تبادل الرئيس (جمال) مع الرئيس السورى بعض عبارات المجاملة ، ثم أخبره بأنه سيرسل إليه مبعوثًا خاصًا فى اليوم التالى ، يحمل رسالة بالغة الأهمية والخطورة ..

وكان هذا المبعوث هو (صلاح نصر) نفسه ، الذى سافر فى الصباح التالى إلى (دمشق) ، والتقى بالرئيس السورى ، وقدم إليه الملف ..

وكما حدث للرئيس (جمال عبد الناصر) ، أصيب الرئيس السورى بدهشة عارمة ، وهو يتصفح الملف ، ثم لم يلبث أن طلب حضور رئيس المخابرات السورية (المكتب الثانى) ، الذى وصل بعد قليل ، وطالع الملف بدوره ، وأصابه الذهول نفسه ، ثم قال فى غضب يمتزج بالدهشة :

ـ إنه هو إذن .

ففى تلك الفترة ، كان موظفو اللاسلكى فى السفارة الهندية يشكون من حدوث شوشرة على بعض رسائلهم ، المرسلة إلى

(نيودلهى) ، وكان رجال الأمن السوريون يشكون فى وجود جاسوس يرسل إشارات لاسلكية فى المنطقة ، ولكنهم يعجزون عن تحديد موقعه ، نظرًا لاتساع دائرة البحث ، وصعوبة تتبع الإشارات اللاسلكية فى ذلك الحين ..

ومع المعلومات التى أحضرها (صلاح نصر) ، أصبح الأمر واضحًا ، ومحسومًا ..

وبعد ساعات من هذا اللقاء ، كان (إيلى) يستعد لإرسال واحدة من رسائله اللاسلكية إلى (تل أبيب) ، فى ليلة من ليالى يناير الباردة ، عندما فوجئ بعدد من الرجال يقتحمون منزله ، ويصوبون إليه مسدساتهم ، ويأمرونه بعدم الحركة ، فهتف فى انزعاج :

ـ من أنتم ؟.. وماذا تريدون ؟

ولم يكد يتم سؤاله ، حتى رأى أمامه المقدم (أحمد سويدانى) ، رئيس قسم مكافحة التجسس بالمخابرات السورية ، وهو يقول :

ـ انتهت العملية يا (إيلى) .

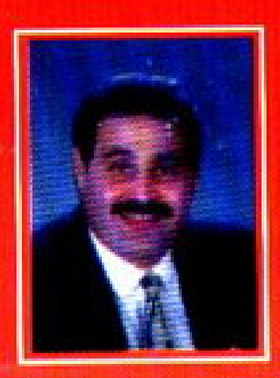
وعندئذ أدرك (إيلى كوهين) أنه قد سقط ..

وجن جنون الإسرائيليين ، عندما علموا بسقوط (إيلى) ، وحاولوا المستحيل لإنقاذه ، وعرضوا مبادلته بدستة من المتهمين بالتجسس لصالح (سوريا) ، ودفع مليون دولار لإطلاق سراحه ، ولكن (سوريا) رفضت هذا بإصرار .

وفى الثامن عشر من مايو ، 1965م ، اقتيد (إيلى حوفى كوهين) إلى حبل المشنقة ، الذى أحاط بعنقه ، ثم دفع الجلاد ذراعًا معدنية ، وسقط جسده فى الفراغ ..

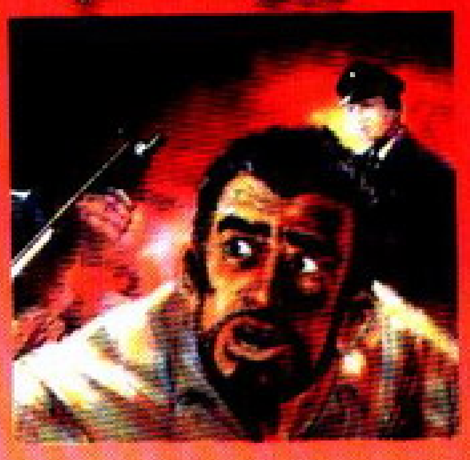
* * *





5 / 7 / 008

عيون الصقر



د. نبيل فاروق

صراع العقول
الذى يتفوق
دوما على
أعتى الأسلحة
والمعدات

5



الثمن فى مصر 500
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم



